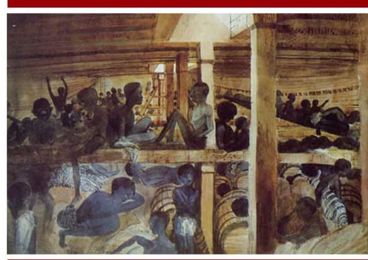
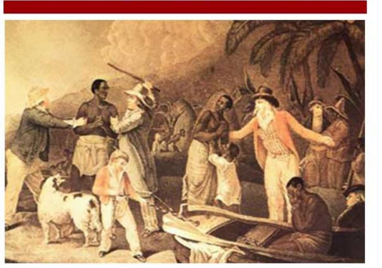
أسياد العبودية

حقائق بين التلفيق والتوثيق


المحامي
محمد ابراهيم إبداح









أسياد العبودية حقائق بين التلفيق والتوثيق
المحامي محمد ابراهيم إبداح



أسياد العبودية

Masters of Slaviry

حقائق بين التلفيق والتوثيق



الطبعة الأولى

٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٣١/ ١/ ٢٠١٦) مركز الايداع ٤١٥

الواصفات قواعد اللغة / / اللغة العربية

الترقيم الدولي **978-9957-594-00-0**

أسياد العبودية

Masters of Slaviry

حقائق بين التلفيق والتوثيق

دار الجنان للنشر والتوزيع

عمان – العبدلي - مجمع جوهرة القدس التجاري – ط(M)

- هاتف: **00962 6 4659891** تلفاكس: **00962 6 4659892**
- موبايل: **00962 795747460** موبايل: **00962 796295457**
- هاتف السودان – الخرطوم **00249 918064984**
- ص.ب ٩٢٧٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩٠ العبدلي
- البريد الإلكتروني: **dar_ jenan@yahoo.com**

daraljenanbook@gmail.com

أسياد العبودية

Masters of Slaviry

حقائق بين التلفيق والتوثيق

المحامي

محمد ابراهيم إبداح

الإهداء

إلى كل تلك الأرواح المزهقة

جوراً وظلماً .. وهي مازالت تحلم بالحرية ..

الرحمة والحرية لأرواحهم

المقدمة

العبودية أو الرق، تلك المصطلحات التي تتنافى مع أبسط حقوق الإنسان المخلوق حراً بالفطرة، غير أن نقيض تلك الحرية، أقرّته على ما يبدو، ذات الفطرة البشرية، لإعتبارات تتعلق بالتسلط وحب المال والظلم ، والتي غالباً ما يعزز فرص انتشارها خضوع الطرف الأضعف ، وقد وُجد الرّق تحت أشكال متنوعة ومختلفة منذ القدم، وليس غريباً القول بأن معظم الطوائف التي ملكت الرقيق إتصفت بالثراء والسلطة، فأخضعت ضحايا الرق روحاً وجسداً للتبعية التامة لأسيادهم.

وقد شكل العبيد على مدار التاريخ مصدراً زهيد الكلفة لجميع الخدمات والأعمال الأساسية التي زادت من ثراء طبقة الملاك والإقطاعيين وكبارالتجار، فمن خدمة المنازل إلى عمال المزارع والمناجم وبيادق الحروب العسكرية، وغيرها من الأنشطة الأخرى التي وصلت في كثيرمن الحالات حد الجنون، حيث كان العبيد في أثينا وروما القديمة، يُستخدمون كطرائد بشرية في مواجهة الأسود والضواري المفترسة في حلبات المصارعة، فقط من أجل الترفيه والتسلية!.

وقد شكلت العبودية السمة المشتركة في العصور البشرية الأولى (٣٥٠٠-٤٧٦ قبل الميلاد) والعصورالوسطى (٤٧٦-١٤٥٣) والحديثة(١٤٥٣-١٧٨٩)، ففي مصر القديمة واليونان والصين والهند وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية كان الرقيق حياة يمكن بكل بساطة سلبها ، أما في حالة إستخدامهم كقوى عاملة فلم يتعدى الأمر إعتبارهم سلعاً تباع وتشترى.

ولا تزال العبودية تشكل السمة المميزة بعصرنا الحالي في ظل ظهور أشكال وصور جديدة، أكثر تدميرا وفتكاً بحقوق الإنسان وكرامته، كتجارة البشر المنتشرة في معظم دول العالم حاليا، والتي تشمل إختطاف الأطفال والنساء وبيعهم في أسواق العمل أوالبغاء أو إجبارهم على المشاركة بالنزاعات المسلحة، فالمأساة مستمرة، وإنتهاك الحقوق الأساسية

للإنسان والتعذيب والإضطهاد والتشريد، بات عملاً منظماً وأكثر إتساعاً ، وخصوصا لدى مافيات تجارة البغاء وتجارة الأسلحة العالمية المعتمدة على العوائد المالية الهائلة لتلك الأنواع من التجارة المحرمة أخلاقياً ودينياً وقانونياً ، ولذا تستمر العبودية الحديثة بهذا الشكل ما دام يهيمن على الحياة البشرية أسياد العبودية يقودهم الجشع والظلم وإستغلال ظروف الفقر والجهل.

الفصل الأول

نشأة العبودية



إقتصر إعتماد الإنسان الأول على إشباع الحد الأدنى من غرائزه الفطرية فسكن كهوف الجبال وتغذى على ما أوجدته الطبيعة من ثمار قطفها أوطرائد اصطادها، ثم كان يمضى بقية اليوم قابعاً في كهفه، يدوّن على جدرانه بالحفرأو الرسم يومياته ،وعينيهِ على باب كهفه متربصاً وحذراً من خطر فضول الآخرين من بني جنسه أو الحيوانات المفترسة، غير أن إكتشافه للنـّار وتمكنه من صنع بعض الأدوات البدائية كالسكين الحجري والرمح شكل وثبة في تاريخ الإنسان الأول ، حيث منحته تلك الإكتشافات والصناعات البدائية أفضلية وشعوراً بالتفوق، فإتسعت دائرة نشاطاته ولم يعد يخشى المبيت خارج كهفه، ومع تنوع حقول المعرفة لدى الإنسان الأول وتراكم خبراته العملية، ظهرت له مفاهيم جديدة في الحياة ، إقتضتها طبيعة مراحل التطور البشري، كالمقايضة والتعاون ضد الأخطار المشتركة، ومن ثم الإندماج والتأقلم على العيش في تجمعات بشرية، الأمر خلق مفهوماً جديداّ لديه، يدعى الإستقرار.

وقد أدى إستقرار الإنسان الأول في تجمعات بشرية، إلى تحدّيات جديدة واجهته في تأمين قوت يومه، فأصبحت الطرائد مع الوقت تبعد أكثر فأكثر عن محيط إقامته،

والوصول إليها بات يحتاج قطع مسافات أطول، مما أوجد حافزاً لديه للتركيز عن بدائل أخرى للغذاء، وأقرب لموقع إقامته فكانت الزراعة وتربية المواشي، ومن ثم تطورت مع الإستقرار إحتياجات عملية أخرى كالدفاع والصيد والبناء فكانت الصناعة.

وفي الوقت الذي تمكن فيه الإنسان من الإستقرار، وتأمين رغد العيش، ظهرت له قيماً ومعايير مادية لم تكن في حسبانه من قبل، فهو يملك أرضاً يزرعها قابلة للتوسع والتطوير، ومسكناً يأويه، وتلك قيماً يجب الحفاظ عليها وتطويرها، بل وحمايتها من تعدي وسرقات الآخرين، ولتحقيق هذه الغاية، كان تلك أول وظائف شاغرة بالتاريخ البشري، عُمّال الزراعة وحرّاس الحقول، كانوا يعملون لدى صاحب الأرض مقابل قوت يومهم فقط ، وضمن شروط يمليها المالك، فكانت تلك مقدمة لأولى صور العبودية التي عرفها العالم، ومع تزايد أعداد البشر وتباين أوضاعهم المادية والإجتماعية، ظهرت الفروقات الطبقية بين أفراد المجتمع، فكان الثري الدائن سيداً والمدين المعسرعبداً، وبرزت هنا ثاني مظاهرالعبودية، ومع زيادة الطلب على الثروات وإشتداد التنافس ظهرت النزاعات والحروب، فكان الأسرى ثالث صورة من صور العبودية في التاريخ، ومن ثم توال ظهور أشكال أخرى متعددة للعبودية، القصرية منها أو الطوعية.

الدوافع والأسباب

قال تعالى : (قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)، [سورة آل عمران، الآية :١٦٥]، فبعد هذه الآية الكريمة، يمكن القول بأن أيّ دوافع أو أسباب تم تفسيرها لأصل العبودية تاريخياً منذ نشوءها وحتى يومنا هذا يُعتبر مقبولاً نظرياً وعملياً، بإستثناء الكفر أوالشرك بالله، كون بيع وشراء العبيد لايعتبر إثماً في الإسلام، بل إن شراء العبيد لتخليصهم من العذاب سواء بعتقهم أو مُكاتبتهم، هو من الأعمال الصالحة في الإسلام، والتي يتقرب بها المؤمن إلى الله، وعتق المسلم لرقبة العبد يعتبر كفارة لبعض الذنوب التي ورد الإشارة إليها في القرآن الكريم، ولهذا كان تجار الرقيق يسوقون العبيد من رجال ونساء وأطفال من معظم أنحاء العالم إلى عواصم الخلافة الإسلامية في عصورها الذهبية ، كما تساق الأضاحي في مواسم الحج، طمعاً في بيعهم للمسلمين، غير أن الأضاحي كانت تساق للذبح في الأعياد الدينية الإسلامية، والعبيد تمضي لحريتها منة أو مكاتبة ، وكأني بجال العبيد لربما كانوا فرحين عند علمهم بأن أسيادهم سيذهبون بهم إلى دولة إسلامية في تلك الحقبة الزمنية لبيعهم، فهم يعلمون في النهاية بأنهم مهما طال بهم الزمن كعبيد إلا أنهم في النهاية سيحصلون على حريتهم في نهاية المطاف.

وبإختصار لايُخل بالمعنى، فإنه ثمة دوافع وأسباب مفضية للعبودية، ففي حين أن الدوافع خاصة، كحب التملك المطلق والتسلط والتجبر، والثراء الغيرمشروع، تكون الأسباب عامة، كالفقر والدّيْن والقرصنة البشرية والحروب وغيرها، فهي أسباب عامة نتجت عن دوافع خاصة مرَدّها الظلم.

ومن المعلوم بأن الله سبحانه وتعالى قد حرّم الظلم، غير أن الظلم لايزال موجوداً بين بني البشر، فالعبودية كأفعى كان قد إستشرى سمها في العالم، ولو حرّمها الإسلام، لقام أعداء الدين بتربيتها في أسرّتهم، غير أن الله سبحانه قد أذاب تلك الأفعى من داخلها بحكمته وعلمه بطبيعة البشر، وخير دليل على ذلك ، أن الإسلام حرّم الزنا والخمر،

فأحل الظالم لنفسه تلك الأمور، ولم يحرم الإسلام العبودية، وإنما أوجد سبل زوالها، فحرمها الإنسان بنفسه في نهاية الأمر يقيناً وطوعا لاكرها، من خلال (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان)، والصادر عن عصبة الأمم عام ١٩٤٨م، وبذا يكون قد تطلب مروراربعة عشر قرنا منذ شروق فجر الإسلام، كي يقتنع العالم بأن العبودية زائلة لامحالة، ولايختلف عاقلان بأن من أنشأ عصبة الأمم هم ذاتهم أسياد العبودية والإستعمار في تاريخ العالم المعاصر، فسبحان الله الخبير البصير.

المصادر التاريخية

لتجارة العبيد

أولا : قارة أوروبا :

شرقاً تعتبر دول البلقان من أكبر الأسواق المصدرة للعبيد الصقالبة سواء في العصور الأولى والتي شكلت أوروبا الغربية جزءًا من الإمبراطورية الرومانية،ولاحقاً على ماعرف بالإمبراطورية البيزنطية، أو في العصور الوسطى والتي عرفت أيضًا باسم العصور المظلمة والتي تشكلت فيها لاحقاً الممالك الأوروبية المختلفة كإنجلترا وفرنسا والبرتغال وغيرها، وكانت إمارة كييف تتولى تصدير العبيد الصقالبة إلى معظم دول العالم، وخصوصاً لبلاد الأندلس وممالك أوروبا[1]، وكانت قوافل العبيد تجتاز بلغاريا إلى خوارزم، ومن ثم كانت تتجه إلى آسيا الوسطى، والصقالبة هم الشعب السلافي[2] ،نسبة إلى اللغات السلافية والتي تشمل اللغات الروسية والاوكرانية والبولندية والبلغارية والصربية وغيرها، فهم يعيشون عموماً في شرق اوروبا وشرق اوروبا الوسطى، ولفظ الصقالبة أطلق على الأسرى الذين وقعوا في يد الشعوب الجرمانية الغازية، ثم أصبح هذا الإسم علامة تجارية لكافة الأجناس الأخرى أياً كان أصلهم، وأغلب هؤلاء كانوا من صغار السن ، ولذا كان اعتناق العبد لديانة مالكه أينما تم بيعه أمرا طبيعياً، ومثال ذلك عبيد الأندلس في عصر الدول الأموية فقد نال الكثيرون منهم قدراً من العلم والمعرفة بلغ حد نظم الشعرالعربي، وغرباً كانت تجارة الرقيق تتم على يد

---

١ - د. حسن المبيض، أسباب انهيار الامبراطورية الرومانية، ص ٢١٨، دار الجامعة اللبنانية للنشر والتوزيع، طرابلس ١٩٩٠.

٢ - الشعوب السلافية هي شعوب أوروبا الشرقية الفقيرة والمقيمة في دول الإتحاد السوفيتي واليوغسلافي سابقاً.

الجرمانيين وقراصنة الفايكنج، بواسطة تجار يهود مملكة الخزر اليهودية (مصدر وأصل اليهود الحاليين)، في أعالي نهر الدانوب والراين، ومن بوهيميا حيث كانت مدينة براغ مركزاً للخصي، ثم لمدينة (راتسبون/ ألمانيا) ، ومن هناك يوزع الرقيق على الأسواق الجرمانية.

وشمالاً كان يصل العبيد إلى (فردان/ فرنسا) التي كانت سوقاً كبيرة للعبيد ومركزاً للخصي في نفس الوقت، ثم مدينة (ليون/ فرنسا) حيث يقوم التجار اليهود بتوزيعهم، إلى بلاد الأندلس.

وجنوباً تتجه تجارة العبيد عن طريق البندقية كقاعدة لهذه التجارة، وبعد ذلك يقوم تجار ونخاسي البندقية (وأغلبهم يهود) بشحن العبيد لموانئ الشرق بالبحر المتوسط، لمصر وبلاد الشام[1].

وقد امتدت العصور المظلمة في الفترة الواقعة ما بين القرن الخامس الميلادي إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وكانت المعلومات التاريخية حول تلك الفترة زاخرة بالخرافات والأساطير، أما في العصور الوسطي، فازداد حال الرقيق سوءاً، رغم كثرة الواجبات، الملقاة على عاتقهم، ففي تلك العصور ترسخت في أوربا طبقة الأمراء والإقطاعيين، وطبقة العبيد أوالأرقاء الذين كانت تقع على عاتقهم مهنة زراعة الأرض، وخدمة الأمراء والنُبلاء، ولم يكن من حق طبقة العبيد التنقل، فهم جزء من الأرض، يُباعوا معها إلى المالك الجديد. ولا يخفى على احد مأساة العبيد بالأمريكتين، وحجم المعاناة، التي تلقاها هؤلاء المستضعفين على يد السادة البيض، والذي كان بوسع الرجل منهم قتل العبد شنقا على قارعة الطريق دون سؤال أو محاكمة، وكان كل ذلك يتم في حماية القانون، ولقد استمر ذلك الوضع حتى القرن العشرين، ناهيك ما كان يحدث للسود في جنوب أفريقيا أصحاب الأرض حتى عهد قريب.

---

١ ـ حضارة العرب ،غو□تاف لوبو□، ص ١٧٩ ، دار النهضة ـ مصر ١٩٨٣ م.

وظل ذلك الوضع المهين لكرامة الإنسان حتى القرن التاسع عشر حيث أُلغي ذلك النظام في جزء منه، وبقى الباقي، فقد أُلغي استرقاق الأوربيين، بينما استمر استرقاق غيرهم من شعوب آسيا وأفريقيا، لخدمة السادة من الأوربيين، فقد كانت أسواق النخاسة التي فتحها الأوربيون لاستعباد أبناء أفريقيا تُحقق أرباحا ضخمة لمنْ يُديرها.

ثانياً : قارة أفريقيا :

كان يتم جلب الرقيق من بلاد النوبة من أعالي النيل عن طريق أسوان التي هي المدخل الجنوبي للبلاد المصريّة، والتي كانت مركزاً للخصي، ولا سيّما في الأديرة المسيحيّة التي تقع فيها، وكذلك من أثيوبيا (الرقيق الحبشي وجواري سلاطين الدولة العباسية) ، عن طريق النيل الأزرق، أوعن طريق موانئ البحر الأحمر إلى مصر وشبه الجزيرة العربية والعراق ، وكذلك كان يتم أسر وخطف الأفارقة ثم يتم إرسالهم إلى مدينة عدن في اليمن، حيث يُنقلون لسوق زبيد الخاص ببيع العبيد، ومن شواطئ أفريقية الشرقيّة كان يجلب العبيد (عبيد الحقول الزراعية والمصانع في الولايات المتحدة الأمريكية)، حيث شكلوا عصب اليد العاملة بحقل التجارة آنذك، وكان يتم إصطياد العبيد أثناء الغزوات والقرصنة أو يتم شراءهم من أسيادهم الملوك ورؤساء القبائل، وكانت الولايات الغربيّة بالسودان كدارفور وكردفان، بمثابة مناجم ذهب بشرية لتصدير العبيد إلى بلاد المغرب والأندلس [١] .

ثالثاً : قارة آسيا : كان يجلب العبيد من دول شرق آسيا المستعبدة من قبل البرتغال وبريطانيا وفرنسا،وكانت شعوب أندونسيا وماليزيا والهند وسيرلانكا والفلبين ذات الحظ العاثرفأغلب العبيد التي كانت تباع في أسواق العمل كانت من تلك الدول.

وتعتبرالأسباب المؤدية للعبودية تاريخياً متداخلة ومتشعبة، وذلك لاعتبارات سياسية وإقتصادية بحتة كالحروب،وقد تعود لاعتبارات إقتصادية وإجتماعية وثقافية مجتمعة كما

---

١ ـ حضارة العرب ،غو□تاف لوبو□، ص ١٩٥ ، دار النهضة- مصر ١٩٨٣

في حالة الفقر والذي يحل بالمرتبة الثانية بعد الحرب، كسبباً للعبودية، فقد كان البعض ولايزال، يبيعون أبناءهم بسبب الجوع، أو الدّين، حيث يصبح المدين عبداً للدائن إن عجز عن السداد، وهو ما نهى عنه الإسلام صراحة، وكذلك السرقة كانت سبباً للعبودية فمن تثبت عليه جريمة السرقة يصبح عبداً أوكما في حالة ثقافة السبي عند بعض القبائل البدوية العربية في شبه الجزيرة العربية ، وقد تكون لإسباب تجارية فقط كما في حالات إختطاف النساء والأطفال لغايات بيعهم في أسواق العمل أو البغاء، ومهما تعددت الأسباب فتبقى الحروب والفقر، وغيرها من الأسباب الموضوعية المتجددة حتى اليوم.

صور العبودية

العبودية الطوعية

قبل ما يقارب خمسة قرون كتب مفكرٌ فرنسي شاب اسمه إيتيان ديلا بويتي (١٥٣٠-١٥٦٣) مخطوطة بعنوان (خطاب حول العبودية الطوعية)، وقد كتب تلك الوثيقة للتنديد بنظام المَلَكية المطلقة وللتحريض على عصيان النظام الاستبدادي ولقد حظيت تلك المخطوطة باهتمام يتعدى زمانها ومكانها، بل إن قيمتها الفكرية مستمرة إلى اليوم رغم مرور ما يقارب خمسمئة سنة[١].

يقدم ديلا بويتي تحليلاً نافذاً للأساليب التي يتبعها الطغاة للبقاء في قمة السلطة، وهو تحليل يتفوق فيه ديلا بويتي على كثيرين من المنظرين في هذه الأيام إذ هو ينطلق من فرضيتيْن متلازمتيْن من فرضيات علم الاجتماع السياسي الحديث الأولى تقول إن مصدر السلطة هم الناس إلا أن هؤلاء يتخلون عن السلطة، لهذه الأسباب أو تلك، لصالح شخص يتحول عاجلاً أو آجلاً إلى طاغية والفرضية الثانية تقول إن بإمكان الناس إزالة الطغيان من دون اللجوء إلى العنف عن طريق رفض الرضوخ لسلطة الطاغية.

لا يخفي ديلا بويتي كراهيته للطغاة، لكنه يوجه اللوم للناس الذين مكّنوا الطاغية من أن يصبح كذلك، أي بقبولهم ما ينفذه من سياسات وما يتبعه من أساليب لإدامة سلطته وتشديد قبضته عليها فالعبودية الطوعية تقوم من جراء رضوخ الناس لسلطة الطاغية وقبولهم تنفيذ أوامره وقوانينه فكما أن الناس هم مصدر السلطة فإنهم أيضاً مصدر العبودية تبدو هذه المقولة هذه الأيام بسيطة إلى حد البداهة إلا أنها كانت اكتشافاً عظيماً في زمنٍ كان أغلب الفلاسفة ورجال الدين فيه يعتبرون الظلم قدراً لا مفر منه ويرى

١ - المقاومة بالحيلة ، كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم، د.كاظم السامرائي ، دار الساقي ، بيروت ،١٩٩٥م.

أغلبهم الاستبداد أمراً من الله الذي سلط الطاغية على الناس إما عقاباً لهم على خطايا وذنوب ارتكبوها أو ليكون امتحاناً لإيمانهم ولقدرتهم على الصبر، شّخّصَ ديلا بويتي مصدر السلطة السياسية وجذور الدكتاتورية علاوة على قيامها وحدد عدداً من الأساليب التي يستطيع الناس بها الحؤول دون استعبادهم أو تحرير أنفسهم من الاستعباد، وما ذكره ديلا بويتي وما استمر المفكرون المصلحون والثوريون ينادون به منذ بدء عصر التنوير وحتى اليوم هو أن الطغيان فعلٌ إنساني[١] .

كما أن الاستعباد فعل إنساني فالأمرُ أولاً وأخيراً بيد الناس فإن شاؤوا كانوا عبيداً وأن شاؤوا أحراراً، فإرادة الناس هي مصدر الحرية وهي مصدر العبودية وفي هذه المقولة التي مهد استيعابها تطوير حقل دراسة الحركات الاجتماعية وأشكال المقاومة المدنية في العقود الأخيرة .ويتعرض ديلا بويتي إلى دور أفراد النخب الذين يحيطون بصاحب السلطان فيزيّنون له أفعاله ويسهمون في إدامة طغيانه، يقول ديلا بويتي: (يرى الطاغية الأفراد القريبين منه وحوله يمالئونه ويستجدون الأفضال منه، وهم لا يطيعون أوامره وحسب، بل عليهم أن يفكروا كما يريدهم هو أن يفكروا، وعليهم غالباً، في سبيل إرضائه أن يتنبؤوا بأفكاره!، فلا يكفي أن يطيعونه بل عليهم إرضاؤه وعليهم أن يجهدوا أنفسهم وأن يتعذبوا، بل إن يستميتوا في خدمته، عليهم أن يستبدلوا ذوقهم الخاص بذوقه، وأن يتخلوا عن رغباتهم ونوازعهم الطبيعية، وعليهم الاهتمام الشديد بمتابعة كلماته وصوته وعينيه وحتى إيماءاته، فليس لهم أعين أو قدم أو أيدٍ ليست منتصبة انتباهاً لرصد رغباته ولاكتشاف أفكاره) .

لابد لنا هنا من استعادة صورة عبيد الحقول والمنازل، التي ترسخت في الفكر الإنساني عن طريق الكشف عن حقيقة معاناة السود بعصر الرق في أميركا، وهو مخزونُ معاناة مازال فاعلاً في المجتمع الأميركي على أكثر من صعيد، رغم الإنجازات التي حققها

١ - عبدالهادي خلف، المقاومة المدنية ص ١٣٥، مؤ□سة الأبحاث العربية، مصر ١٩٨٦م.

نضال وتضحيات قوى التحرر والمساواة في تلك البلاد، فصورة العبيد تمثل حالة إنسانية راهنة وليست ظاهرة أميركية فريدة بمكانها وزمانها وهي صورة نرى تطبيقاتها الحديثة، أي بعد اندثار عصر الرقيق، في الاستراتيجيات التي يستخدمها أهل السلطان لضمان استمرار سلطتهم، ومن بين أنجع هذه الاستراتيجيات هي إدامة تشطير المجتمع عبر التمييز بين المقموعين وتفضيل فئة منهم على فئة أخرى، ففي عصر الرقيق الأميركي كان التفريق دقيقاً وصارماً فئتيْن من العبيد، كان عبد المنزل وعبد الحقل، كلاهما، مملوكان إلا أنهما يعيشان في عالميْن مختلفيْن، فعبيد الحقل هم المكلفون بالأعمال الشاقة، أما عبيد المنزل فهم نخبة ينتقيها المالك لخدمته شخصياً ولمساعدته في مختلف شؤونه بما في ذلك الإشراف على عبيد الحقل. إلا أن عبد المنزل لا يهتم بعبوديته.

وقد لا يتأفف منها، بل هو يرى نفسه محظوظاً، فقد يكون عبد المنزل ممن يحسنون الطبخ أو الغناء أو الرقص أو القتال أو قد يكون حسن المظهر والهندام أو غيرها من الصفات التي تجعله يبدو في عين مالكه مميزاً، يخدم عبيد المنزل مالكهم ويساعدونه في استثمار ممتلكاته بما في ذلك التعامل نيابة عنه مع عبيد الحقل، فهم قد يتولون الترفيه عن العبيد الآخرين في المناسبات أو قد يتولون جلدهم بالسياط في مناسبات أخرى، فما عبدُ المنزل إلا امتداد لإرادة مالكه فإن رضي المالك رضي عبد المنزل وإن غضبَ غضب، وصحيح القول بإن العبديْن بلا إرادة[1]، إلا أن عبد الحقل هو الأكثر استعداداً لتحرير نفسه، فهو لن يخسر شيئاً سوى أغلاله إن هو عصى وتمرد، أما عبد المنزل فهو أول من يدافع عن الوضع السائد، وسيفعل كل ما يستطيع كي يبقى المالكُ مالكاً ولكي يبقى هو متنعماً في ظل سيده ومتميزاً عن عبيد الحقل، فعبودية خدم المنازل هي عبودية طوعية يتمنى هو دوامها، بل ويعادي كل من يتحدى الأسس التي تقوم عليها.

١ - عبدالهادي خلف، المقاومة المدنية مدارس العمل الجماهيري ، مرجع □ابق ص ١٣٧.

القنانة



القنُّ : تعني العبد ويستوي فيه الجمع والمذكر والمؤنث[1]، والقنانة هو وضع اجتماعي اقتصادي لطبقة الفلاحين في ظل الإقطاع، وكانت حالة من الرق أوالعبودية المعدلة ظهرت أولا في أوروبا خلال العصور الوسطى، وكان القن يجبر على العمل في حقول ملاك الأراضي، في مقابل الحماية والحق في العمل في الحقول المستاجرة.

ولم تكن القنانة تنطوي على عمل الحقول فقط، وبل أيضا مختلف الأعمال المتعلقة بالزراعة، مثل الحراجة والنقل (سواء البري أو البحري) والحرف اليدوية وحتى في الإنتاج، وشكلت الضيع الإقطاعية خلال هذه الفترة الوحدة الأساسية للمجتمع،وكل من الإقطاعي وأقنانه ملزمين قانونيا واقتصاديا واجتماعيا، وشكل الأقنان الملزمين بالعمل في الأرض، الطبقة الاجتماعية الأدنى من المجتمع الاقطاعي، كما عرف القن بأنه رقيق على أرض سيد إقطاعي وتنتقل ملكيته من سيد لآخر تؤول ملكية الأرض إليه، ونشأ الإقطاع في أوروبا من الرق الزراعي في الامبراطورية البيزنطية ، ثم انتشر عبر أوروبا في العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر.

وبعد عصر النهضة، أصبحت القنانة نادرة شيئا فشيئا في معظم أوروبا الغربية ولكن كانت قوية في أوروبا الوسطى والشرقية (القنانة المتأخرة) ،وفي انكلترا استمرت حتى القرن السابع عشر، وفي فرنسا حتى عام ١٧٨٩م، وفي أوروبا الشرقية استمر هذا النظام حتى منتصف القرن التاسع عشر، ولم ينشأ إقطاع في كل السويد وفنلندا والنرويج، و كان الرقيق يكسبون حريتهم بالإعتاق، أو شراء الحرية بالمال، أو الخدمة العسكرية، أوالموت.

---

١ - أنظر مختار الصحاح: ولسا العرب : القنن .

عبودية الأجر:

عبودية الأجر هو مصطلح يصف إستغلال القوى الإقتصادية للفئات المعتمدة بشكل تام على العمل مقابل إجور غالباً لاتتناسب وحجم الأعمال المنجزة، وبحيث ينعدم الفرق في الحقوق والواجبات بين حالة توظيف أو إمتلاك العامل، وقد ظهر هذا المفهوم في بداية القرن التاسع عشر مع ظهور الأفكار الإشتراكية المناهضة للأنظمة الرأسمالية، ليشمل حقلاً واسعاً من الأعمال المختلفة ، فعلى سبيل المثال يعتبرالعمل عند شخص ما نتيجة انعدام الخيارات الوظيفية الأخرى نوعا من أنواع العبودية وفق هذا المفهوم [١]، وكان من أهم المنظرين لهذا الفكر(كارل ماركس)، في فترة الثورة الصناعية، ويرجع أصل المصطلح إلى المظاهرات العمالية خلال منتصف القرن التاسع عشر،وفكرة ان ثمة تشابه بين أجر العمل وبين الرق بدأ الحديث عنها من قبل المعارضين للرأسمالية [٢].

وكان المدافعون عن العبودية في الولايات الأمريكية الجنوبية، يدفعون بأن العمال كانوا أحرارا فقط بالاسم ولكنهم عبيد المجهود المضني الأبدي، وبأن عبيدهم كانوا في حال أفضل من أوضاع العمال في الولايات الشمالية.

وقد أوضح (كارل ماركس) فكرة عبودية الأجر، على أنها تحد من شأن الوجود والاستقلال الفردي، باعتبارها قائمة على مادية الجسد والحرية وسبغ الطابع المادي البحت عليهما، فوفق رأي ماركس فإن البروليتاري (العامل)، هو ملك الطبقة البرجوازية ، وهي الطبقة التي تشتري عمل العبد فقط ، والبروليتاري لايملك شخصية قانونية، فهذا الوجود مكفول فقط للطبقة المتنفذة، والعبد خارج هذا النطاق وفقاً لتعريف ماركس، كما أن العبد هو ملك لصاحبه، فقيمة العبد للماك هي أعلى من قيمة

---

١ - فرانكس تايلور، تاريخ الطبقات الإجتماعية ،(غير مترجم)، ص ١٨٤، جو□ إ□تلر ، ناشرو□ وموزعو□، ١٩٩٤م، الترقيم الدولي: ISBN ٩٧٨-٠-٨١٥٣-٠٣٤٢-٨.

٢ - الحرية والعبودية في ظل الرأ□مالية الحديثة، مقدمة لكارل ماركس، ص ١٢٤، (غير مترجم)، مطبعة جامعة كامبردج ١٩٨٦م.

العامل الذي قد يستقيل، أو يسرح من العمل، أو يستبدل، لهذا السبب، ولا يسرح أو يطرد العبيد مثل عمال الأجور، ويقوم صاحب العبد باستثمار أفضل من حيث مبلغ المال الذي يصرفه على عبيده، لهذا السبب، في أوقات الكساد الاقتصادي، لا يمكن، طرد العبيد كما يسرح عادة بعض العمال، وهنالك العديد من الاستراتيجيات والنضالات المتبناة من عبيد الأجور، التي أسفر عنها بداية تشكل النقابات، ومراكز الضمان الاجتماعي التي تستطيع الحد من الظلم الناتج عن عبودية الأجر، وبخلاف العبد يستطيع عبد الأجر إختيار رئيسه، وأسوأ خيار

بالنسبة لعبد الأجر هو إما العمل عند رئيس أو مواجهة الفقر، وحين يرفض العبد أن يعمل، فثمة جملة من العقوبات عليه مواجهتها كالضرب والحرمان من الطعام، أو القتل[١]، غير أن الجدل الدائر حول طبيعة عبودية الأجر، كان يعتقد بشكل عام أن تهديد الموت جوعا هو ما يجبر الفئات المستضعفة للعمل في ظل ظروف لاإنسانية، كعمال المناجم في العديد من دول العالم ، وكي لانذهب بعيد أذكر أني في عام ٢٠٠٧ ذهبت للمشاركة بأحد المعارض الدولية في الشارقة، وقد وجدت بأن أجور عمال النظافة في معرض (إكسبو الشارقة) يتقاضون ٢٥٠ دولارا شهرياً ، وتلك الأجور منخفضة جدا وبشكل استثنائي وبمعدل ١٦ ساعة عمل يوميا، وكان غالبية العمال من دول آسيوية كباكستان والهند وبنغلادش، وقد علمت مباشرة من بعض هؤلاء العمال أن أصحاب العمل يتنصلون من إلتزاماتهم أمام العمال ، علاوة على أن العامل يدفع ٢٥٠٠ دولار مقابل تأشيرة عمل ملحقة بعقد عمل ، وهذا عمل غير قانوني أصلاً، لكن يوجد سماسرة لهذا النوع من العقود ، وعليه فيمكن القول بأن عبودية الآجر قد حلّت مكان العبودية بمفهومها التقليدي، وربما كان تقاطع مصالح أصحاب العمل مع مصالح

١ - الحرية والعبودية في ظل الرأ□مالية الحديثة، مقدمة لكارل ماركس، ص ١٢٧، (غير مترجم)، مطبعة جامعة كامبردج ١٩٨٦م.

العمال، أدى لوجود النقابات العمالية والتي باتت هي الأخرى منابر سياسية لتبادل المصالح الخاصة ، بيد أن من يتخيل أن التجار وأصحاب النفوذ لايجتمعون كما يجتمع ممثلي القطاعات العمالية والنقابية، فهو كمن يريد إدراك المحال، فالسادة يجتمعون دائماً وبأجواء يمكن وصفها بالحميمية!، وهم متفقون فيما بينهم على عدم زيادة أجور العمال، وإن فعلوا فسيكون ذلك لغايات التهدئة وذ التراب في العيون فقط، وللعدة أسباب أهمها وأبسطها بذات الوقت أن غالبية الشركات الضخمة والناجحة، يكون مدراءها أو أعضاء مجالس إدارتها إما وزراء أومسؤولين سابقين أو لاحقين في دول تلك الشركات، وبعبارة أخرى فهم أصحاب نفوذ وقرار، ولذا فهم لن يقوموا بسن تشريعات تأتي على حساب مصالحهم الشخصية، وذلك لتخفيض الخسائر وجني المزيد من الأرباح!.

أول مسابقة في التاريخ لملكات الجمال:

من الطريف أن أول مسابقة لملكات الجمال في التاريخ كانت في العصور الإسلامية المتأخرة، من قبل الامبراطور المغولي قوبلاي خان (حكم الصين بداية القرن الثالث عشر) حيث قام بتنظيم أول مسابقة لملكات الجمال في التاريخ، حينما كلف البلاط الامبراطوري باختيار ٣٦٥ محظية كل عام لقصره الخاص ووضع لذلك شروطاً صارمة غدت مرجعاً لكل من جاء بعده بهذا الشأن، فأولاً يجب اختيار الفتيات من مقاطعة (تارتار) التي يتميز سكانها بجمال طبيعي خاص وثانياً يجب أن تكون أعمارهن بين السابعة عشرة والسابعة والعشرين وثالثاً يجب أن يتميزن بموهبة راقية كالغناء أو كتابة الشعر وحين تكتمل هذه الشروط يسرن أمام لجنة من الحكام في كامل زينتهن ثم إيابا بكامل (فتنتهن) والفتيات اللاتي يحرزن نقاطاً أعلى يوضعن تحت وصاية إحدى العائلات النبيلة لتعليمهن ورفع تقرير عنهن والناجحات ينلن شرف البقاء مع الامبراطور للفترة التي يشاءها.وكان امتلاك أكبر عدد من المحظيات يعكس عظمة الحاكم في العصور القديمة، فملك أوغندا كونو ميتيسا مثلاً (١٨٣٧-١٨٨٤) كان يحتكر لنفسه

٧٠٠٠ جارية وحين دعاه المبشر الانجليزي وايجون إلى الاكتفاء بزوجة واحدة أجابه: (فقط إن وافقت الملكة فيكتوريا على تزويجي إحدى بناتها)[١]، أما سلاطين الدولة العثمانية فعرفوا بجمعهم لأكبر عدد من الجواري وحجزهن في قصور الحريم، فالسلطان عبدالعزيز مثلا (١٨٣٠- ١٨٧٦) بدأ حكمه بعدد ٩٠٠ جارية بقصره الخاص (نصفهن من ارمينيا)، ورغم أن الأتراك والشرق عموماً اشتهروا بقصور الحريم إلا ان التاريخ يثبت أن ملوك أوروبا اعتادوا هذا الأمر، فملوك فرنسا مثلاً كان لديهم زوجات وخليلات وعشيقات رسميات، الزوجة تنجب وريث العرش ، والعشيقات ينجبن أبناء يُعترف بهم، أما الخليلات فلتلبية الرغبات الجنسية.ولضمان تدفق سيل الجميلات ابتكر كل سلطان وحاكم ما يناسب الظروف المحيطة به، فالملك لويس الخامس مثلاً تعامل سراً مع دور البغاء في باريس كي لا ينكشف ورعه الكاذب وللتوفيق بين بخله الشديد وعشقه للنساء كان قيصر روسيا (بيتر الأعظم) يتصيد زوجات العاملين في بلاطه الخاص وبزمن الدولة العثمانيه كانت قصور الحريم تضم أجهزة خاصة مهمتها التفتيش عن أجمل الجواري وترحيلهن لاسطنبول ، أما منافسات الجمال التي نظمها قوبلاي خان فلم تكن إلا توسيعاً لهذا الجهاز وضماناً لأفضل نوعية ممكنة، وفي الحقيقة يخطئ من يظن ان هذه العبودية انتهت فدوام الغريزة الجنسية يضمن دوام البغاء وتجارة الرقيق، فتجارة الرقيق تتلون كل عصر بما يناسب القيود الاجتماعية والمعتقدات الشعبية ، فالإسلام مثلا حرم الزواج بأكثر من أربع نساء ولكن قصور الحريم فاضت بما (ملكت أيمانكم) من الجواري والأسيرات وفي حين يُعيب الغرب على المسلمين هذه العادة نظم هو تجارة الرقيق الأبيض ماضيا وحاضرا بأسماء وحجج ملتوية، وفي حين اختفت أسواق النخاسة بشكلها القديم ظهرت اليوم بثوب جديد عبرالانترنت وقنوات البث الفضائي، وفي حين احتكر (قوبلاي خان) مسابقات الجمال لأغراضه الخاصة تحولت اليوم إلى منافسات

---

١ - تاريخ المجتمعات باتريك مورجا□، مرجع □ابق ص ٢٨٥.

عالمية ترتكز على تناسق الوركين وانتفاخ النهدين وجمال خلفية لا تمت للثقافة بصلة، وكان البغاء العلني مسموحا به في العهد العثماني.
وحينما احتل الانكليز العراق ابّان الحرب العالمية الأولى حرصوا على بقاء الامر كما هو عليه سابقاً، إذ كان في بغداد مبغى عاما بحي الكلجية ، لم يعترضوا عليه ليتركوا السكان على ماكانوا عليه في العهد العثماني والاضافة الوحيدة أنهم علقوا لافتة مكتوب عليها بالحبر الأحمر كلمة (Brothel) وعينوا انضباطا عسكريا لمنع الجنود الانكليز من ارتياده، فالبغاء العلني كان ولازال ممنوعا قانونيا في بريطانيا، رغم انتشار بيوت للدعارة فيها ، وعندما زار بغداد (ويندل ويلكي) نائب رئيس الولايات المتحدة ومؤلف كتاب (عالم واحد) ابان الحرب العالمية الثانية كانت (الكلجية) من المعالم التي أصر المسؤول الأميركي على زيراتها لعدم وجود مؤسسة تماثلها في عالمه ، فطاف فيها وتحدث مع سماسرة (البغاء) ودخل بيوتهم وسامر فتيات الليل وجلس في المقاهي الموجودة ببغداد وشاركهم شرب الشاي واثنى عليهم![1].

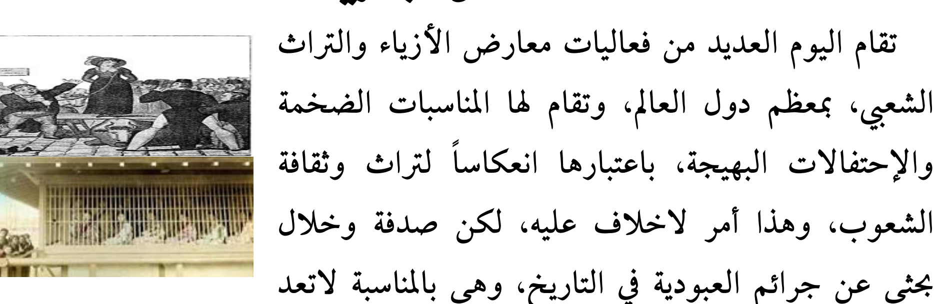
فيضان بغداد وبطولة سُمّار الكلجية !

في عام ١٩٣٨م فاض نهر دجلة وكسرت سدة ناظم باشا من ناحية الوزيرية وتدفقت المياه في الشوارع ، والمعتاد في مثل هذه الحالات أن تقوم الشرطة بتجنيد الناس فيما يسمى بالعمل التطوعي (السخرة بمفهومه القديم) لدرء الفيضان وتقوية السور، في هذه الاثناء دق هاتف معاون شرطة السراي (عدنان محيي الدين) وطلب منه مدير شرطة بغداد بتعبئة الناس فورا لوقف تدفق المياه، وقد كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وآوى الناس لبيوتهم وخلت الشوارع من المارة!، فمن أين يأتي بالسخرة ؟ وقد وجد الحل سريعاً بخبرته الطويلة! فتوجه لمكان يعج بالسُمار النّشطين !، فتوجه لأزقة الكلجية!! [2] ،اقتاد المعاون ثلة من أفراد الشرطة وهرع لمواخير الكلجية، حيث جمع كل

١ - ١تاريخ المجتمعات باتريك مورجا□، مرجع □ابق ص ٢٨٦.
٢ - تاريخ المجتمعات باتريك مورجا□، مرجع □ابق ص ٣١٥.

من وجده هناك من فتيات الهوى وزبائنهن وحشرهم في سيارات الشرطة وهرع بهم الى محلة الكسرة، وهناك انكب الشباب بحفر الارض وملء أكياس التراب وحملت فتيات الهوى الاكياس على ظهورهن لردم الفجوات وايقاف تدفق المياه وقد واصلن العمل حتى الفجر، ولقد اسهمن في سد الثغرة وانقاذ العاصمة من الغرق ولولاهن لاجتاحت مياه الفيضان الجوامع والمساجد والبيوت في الوزيرية ، ثم عادت سيارات الشرطة بهن الى الكلجية!، وفي اليوم التالي بعث امين العاصمة رسالة شكر وتقدير لكل فتيات الليل وأربابهم من الذين ساهموا بالعمل الشعبي لدرء الفيضان عن بغداد .

الحدائق البشرية



تقام اليوم العديد من فعاليات معارض الأزياء والتراث الشعبي، بمعظم دول العالم، وتقام لها المناسبات الضخمة والإحتفالات البهيجة، باعتبارها انعكاساً لتراث وثقافة الشعوب، وهذا أمر لاخلاف عليه، لكن صدفة وخلال بحثي عن جرائم العبودية في التاريخ، وهي بالمناسبة لاتعد ولاتحصى، وما أوردته بهذا الكتاب ليس إلا اليسير!، إكتشفت أمراً غريباً بحق!.

فهل تساءلنا يوما ماهو أصل كل تلك المعارض الخاصة بعرض الأزياء والتراث الشعبي فكما سبق الإشارة إلى أن أصل فكرة إنشاء وتطور مسابقات ملكات الجمال يعود إلى أسياد العبودية، فيبدو لنا أيضاً ذات الأمر أمام الحدائق البشرية الخاصة بالعبيد، أطفال ونساء ورجال وشيوخ جُلبوا من آسيا وأفريقيا وأماكن أخرى لعرضهم كحيوانات!، وقد انتشرت هذه الحدائق في القرنين التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حيث بدأ الأمر في المكسيك عندما عُرض بعض البشر المصابين بإعاقات جسدية أو غريبة كالأحدب والأمهق (شديد البياض) والأقزام إلى جانب حيوانات الحدائق، وفي بدايات عصر النهضة امتلك كاردينال الفاتيكان هيبوليتوس ميديشي مجموعة من البشر من التتار والأفارقة ليضمها إلى الحيوانات النادرة في حديقته الخاصة!، وانتشرت الحدائق في العديد من المدن الكبرى في العالم كلندن وبرشلونة ونيويورك، باريس وهامبورغ وغيرها ، كما احتوت هذه المعارض على العديد من الأصول البشرية منها الأفارقة والأسكيمو والتتار والسورينام والهنود الأمريكان ، وقد كانت هذه الحدائق من أكثر الأماكن جذباً ودرّاً للأرباح، فعند إقامة معرض أو فتح حديقة جديدة كان يأتي آلاف الزوار، وفي عام ١٨٣١م، بلغ عدد زوار الحديقة الموجودة في باريس وحدها ٣٤ مليون زائر[1] !!، وقد انتشرت أفكار هذا النوع من المعارض في بعض المدن اليابانية، فقد

---

١ - جورج لوكاس (العواقب الطبقية)- إ.س.ثومبسو□، ١٩٢٣م، لند□، بر يطانيا، وللأ□ف الشديد تعد المصادر والمراجع العربية التي تتناول الحقائق التاريخية لتجارة الرقيق والعبودية نادرة جداً، وربما لكو□ الإ□لام لم يحرم العبودية أ□لاً، (المؤلف).

كان يتم عرض اليابانيات الجواري في أقفاص أمام الناس!!، ومع مرور الوقت شكلت تلك العادات المسيئة للأقليات المستضعفة في الأرض نواة معارض الأزياء الدولية التي نراها اليوم، فتأملوا واستمتعوا بمعارض الأزياء!!.

بيع الزوجات في إنجلترا:

انتشرت عادة بيع الزوجات في العصور الأوروبية الوسطى كوسيلة بديلة لإنفصال الزوجين، فالطلاق في ذلك الحين كان يستحيل تطبيقه عمليًا بالنسبة للجميع عدا الأسر الأغنى ببريطانيا وخاصةً إنجلترا، فبدأت تلك العادة بالظهور في أواخر القرن السابع عشر وكانت تتم عبر موافقة كلا الطرفين لوضع حد للزواج المضطرب، يقوم الزوج بربط زوجه بحبل إما حول الرقبة أو الذراع أو الخصر واستعراضها بمزاد علني ليبيعها لمن يدفع أكثر!، (كما يظهر في الرسم أعلاه) لعملية بيع وشراء زوجة إنجليزية، حيث تتم في سوق الماشية، ويظهر الزوجة بالفعل راضية، والزوج يبدو مرتدياً قرون!!، إن ذلك العرف يعرض أحداثاً حقيقية على الرغم من غرابتها وشذوذها من الناحية الإجتماعية، إلا أن ذلك العرف كان منتشراً في ذات الوقت ، وخاصّة أن موقف القضاء البريطاني من تلك العادات الشاذة يبدو مبهمًا، فكان قضاة المحاكم البريطانية لايمتلكون الأدوات القانونية لمنع بيع الأزواج! [١]، بل كان ثمة دعاوي يتولاها مناصري حقوق الإنسان في مواجهة (قانون الفقراء) والذي نص صراحة على إجبار الزوج بيع زوجته أو أحد أبناءه لقاء سداد دين مستحق عليه!، فضلاًعن إبقاء عائلاتهم بالإصلاحية، وقد استمرت العادة الرائجة في أحد أشكالها بإنجلترا حتى أوائل القرن العشرين، هذا وقد أدلى المؤرخ والقاضي جيمس برايس في كتاباته لعام ١٩٠١ أن تلك العادة متداولة ومستمرة وإن ليس في العلن، ، ويبدو ذلك العرف في إطاره الإجتماعي كبديل عن الطلاق أو عقاب للزوجة !، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

١ - آنا راشيل ،القانو□ والتاريخ (بيع الزوجة والطلاق الذاتي) ، ص ١٢٣-١٤٥، دار هاملتو□ للنشر والتوزيع، بريطانيا، لند□ ٢٠٠٩، ويشار إلى أ□ الكتاب غير مترجم للعربية ، لكن قام المؤلف بترجمة الفقرات الخا□ة بمواد الكتاب ذات العلاقة، وهو كتاب قيم يكشف العديد من الممار□ات الشاذة لدى الشعوب الأوروبية عموماً، والبريطانية بشكل خاص في معاملتهم للمرأة، وينصح بالإطلاع عليه.

العبودية

في الحضارات القديمة

أولا : الحضارة الإغريقية :

كانت البداية في مهد الحضارة المسينية (اليونانية ١١٠٠ عام قبل الميلاد)، حيث تؤكد اللوحات الموجودة بمدينة أثينا على وجود العبيد، ويمكننا التمييز بين فئتين هما العبيد العوام وعبيدالآلهة (والإله المشارإليه هوالإله بوسيدون) [١]، والشائع أن عبيد الإله كانوا ينادون بأسمائهم ويتملكون أراضيهم وموقفهم القانوني أقرب مايكون إلى الأحرار، وتوضح اللوحات أيضاً أن الوحدة بين العبيد والأحرار كانت شائعة، فالعبيد كانوا يستطيعون أن يتملكوا أراضيهم وأن يصبحوا حرفيين مستقلين، ولذا فإن التمييز لم يقتصر على العبيد والأحرار، وإنما فرق بين المقربون إلى القصر في صور الطبقية الإجتماعية ، وفي إلياذة هوميروس [٢]، كان غالبية العبيد من النساء الذين تم أسرهم بإعتبارهم غنيمة حرب، خلاف من كانوا يدفعون الفدية أويقتلون في المعركة كما أنه في الأوديسية لهوميروس تبين أن العبيد معظمهم كان من النساء الخدم وأحيانا من الجواري، إلى جانب بعض العبيد الذكور.

وفى الحقيقة، من الصعب معرفة وقت ظهور تجارة العبيد تحديداً في الفترات القديمة من عصور الإغريق، فقصيدة (العمل والأيام) في القرن الثامن ق.م ، توضح وجود العديد

١ ـ د. حسن المبيض، أ□باب انهيار الامبراطورية الرومانية، مرجع □ابق، ص ٢١٨.

٢ ـ الإلياذة باليونانية هي ملحمة شعرية تحكي قصة حرب طروادة وتعتبر مع الأوديسا أهم ملحمة شعرية إغريقية للشاعر الأعمى هوميروس ، وتاريخ الملحمة يعود إلى القر□ التا□ع قبل الميلاد،وكلمة إلياذة هي كلمة أlليوس القسم القديم لمدينة طروادة، وتدور حول ملحمة المسيني أخيل الذي أبحر لطروادة من الإغريق لينتقم من باريس الذي قام بغواية هيلين زوجة الملك منيلاوس ملك أ□برطة ومن ثم هرب معها إلى طروادة، فقام الإغريق بتجريد حمله ضخمة للثأر بقيادة أجاممنو□ أخو منيلاوس، وقد هاجم جيش إمبراطورطروادة. والأوديسا تروي قصة الأمير الإغريقي(أوديسيوس أوليس) عند عودته من طروادة، والتي تعرض فيها للعديد من الأخطار مع طاقم □فينته، وكانت قصائد هوميروس من الأدب الشعبي وكانت تروى شفاهة وكانت تضم هاتين الملحمتين الطويلتين اللتين نسج على منوالهما الشعراء فيرجيل باللاتينية ودانتي بالإيطالية وجو□ ميلتونبالإنجليزية ملاحمهم.

من العبيد اللذين لم يتم التعرف على وضعهم، فقد تم التأكد من وجود العبيد عن طريق الشعراء الغنائين ، كما أشارت الآثار الأغريقية (٦٢٠ ق.م) ،التي ناقشت قانون القتل إلى وجود العبيد، ومع نهاية تلك الفترة، أصبحت المراجع التي تناولت موضوع العبيد أكثر شيوعاً، فقد إنتشرت العبودية عند إرساء أساس الديموقراطية في أثينا، والتي كانت أولى المدن الأغريقية التي ظهرت بها تجارة العبيد ، وتمتعت أيضا بالديمقراطية في عهد مبكر في القرن السادس قبل الميلاد، وقد ذكر أفلاطون في وصفه للوضع الإجتماعية السائد في اليونان بتلك الحقبة: (إن أحد مظاهر التاريخ الإغريقي هو بإختصار المزج بين الحرية والعبودية، وكانت جميع الأنشطة متاحة للرقيق باستثناء السياسية منها)[1].

فقد كانت السياسة عند اليونانيين النشاط الوحيد الذي يتطلب أن يكون المرء مواطنًا، أما الأنشطة الأخرى فقد كانت متاحة بقدر الإمكان لغير المواطنين، حيث كان المركز هو المهم وليس النشاط ذاته، وكانت الزراعة، قاعدة الاقتصاد اليوناني، هي مجال الاستخدام الرئيسي للرقيق، وقد امتلك صغار ملاك الأراضي عبدًا واحدًا على الأقل، ويدل ادب التعليمات الوفير الموجّه لملاك الأراضي مثل كتاب (الاقتصاد) لزنوفون [2]، على وجود عشرات العبيد في المزارع الأوسع حجمًا، فكانوا إما عمالًا أو رؤساء عمال، وقد اختُلف حول المدى الذي وصل إليه استخدام الرقيق بوصفهم قوة عاملة في الزراعة، ومن المؤكد أن الرق الريفي كان شائعًا جدًا في أثينا، وأن اليونان القديمة لم تكن تعرف التعداد الضخم للعبيد االذي عرفه الإقطاع الروماني.

وقد انتشر عمل العبيد في المناجم والمحاجر، حيث عمل فيها أعداد كبيرة من العبيد، من الذين استأجرهم المواطنين الاثرياء في الغالب، وقد أشار زنوفون إلى أنهم كانوا يتلقون أوبلة واحدة مقابل كل عبد في اليوم، وقد كان ذلك من أعلى الاستثمارات ربحًا بالنسبة

١ - د.حسن المبيض، أ□باب انهيار الامبراطورية الرومانية، مرجع □ابق، ص ٢٣٥، وتعادل الدراخمة ١٥ □نتاً أمريكياً بوقتنا الحالي.

٢ - كسينوفو□ أو زينوفو□ Xenophon هو مؤرخ يوناني وكاتب فلسفي، عاش بين القرنين الثالث الثاني ق م. وكا□ أحد تلاميذ □قراط واشترك مع الفرس في حروبهم .

للأثينيين، وقد قُدّر عدد العبيد العاملين في مناجم لاريوم أو في مصانع تجهيز الخام بمئات الألوف، وقد اقترح زنوفون أن تشتري المدينة عددًا أكبر من العبيد، بما يصل إلى ثلاثة عبيد لكل مواطن، وذلك لإعالة كافة المواطنين، واستُخدم العبيد كذلك للقيام بمهنة الحرفيين والتجار، وكما هو الحال بالزراعة، فقد عُني الرقيق بالقيام بالوظائف التي تفوق قدرات الأسرة، واستُخدم العدد الأكبر من العبيد في ورش العمل، وعمل العبيد في المنازل كذلك، وكان الدور الرئيسي للعبد في المنزل هو النيابة عن سيده في تجارته، ومصاحبته في الرحلات، أما في وقت الحرب، فكان العبد يتحول إلى جندي مراسلة لجنود المشاة، أما الإناث من الرقيق، فكانت وظيفتهن القيام بالأعمال المنزلية، وبالأخص الخَبز وصناعة المنسوجات، ولم يخلُ من العبيد إلا منازل أشد المواطنين فقراً.

ومن الصعب تقدير تعداد العبيد في بلاد الإغريق نظراً لعدم وجود إحصاءاً دقيقاً، وأيضاً بسبب اختلاف التعريفات الخاصة بالعبيد في تلك الحقبة، والمؤكد هو أن مدينة أثينا كان بها أكبر عدد من العبيد في القرن الخامس ق.م ، حيث ذكر المؤرخ (ثيوسيديس) [١]، فرار آلاف العبيد خلال حرب ديسيليا وكان معظمهم من التجار، ويتضح من الأعمال الأدبية اليونانية أن كل مواطن حر في أثينا كان يمتلك عبداً واحداً ، وقد ذكر أرسطو البيت بأنه: (ذلك الكيان المكون من الأحرار والعبيد) [٢]، وكانت أحدى سمات الفقر هو عدم امتلاك المواطن لعبد، وعلى الرغم من هذا فإن التعداد الضخم للعبيد الرومان لم يكن معروفاً ببلاد الإغريق، وقد وصف افلاطون الفئة الثرية بأنها من تمتلك خمسين عبداً، و أن اكثر أعداد العبيد من البرابرة ، ومن الواضح أن المراكز الرئيسية لتلك التجارة كان فى بيزنطة، وقد كان بعض العبيد البرابرة ضحايا حرب أو القرصنة المحلية، أما الأخرون فقد تم

---

١ - ثو□يديديس (460ق.م.– ٣٩٥ ق.م.) مؤرخ إغريقى ، □احب كتاب تاريخ الحرب البلوبونيزية ويعد أول المؤرخين الإغريق الذين أعطوا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خا□ة ووقع عليه عبء كتابة تاريخ حقبة شاذة من حياة الحضارة التي ترعرع في ربوعها، كما وانه كا□ أول من و□ف المناعة حيث انه حصل وأ□يبت أثينا بالطاعو□ ولاحظ ا□ الذين ا□يبوا بالطاعو□ وشفيوا منه لم يعد اليهم المرض.

٢ - د.حسن المبيض، أ□باب انهيار الامبراطورية الرومانية، مرجع □ابق، ص ٢٣٧.

بيعهم من قبل آبائهم، وفى الحقيقة ليس ثمة أدلة على جنسيات العبيد، وإنما ذكرت بعض الجنسيات المعينة بصورة دائمة وبشكل كبير أثناء تعداد العبيد، مثل فيلق الرماة الذين وظفتهم آثينا كقوات للشرطة ،كما أن أسماء العبيد التي ذكرت في الأعمال الادبية الكوميدية كان لها مدلول جغرافي، فشخصية (ثراتا) المذكورة في أعمال أريستوفانيس[1] الدرامية (الدبابير، أكارنياس ، والسلام)، ماهى إلا تصويرا تاريخياً لوضع المرأة في تراقيا، وكانت جنسية العبد معياراً هاماً لدى المشترين، فقد كانت هناك نصيحة منتشرة بينهم بألا يضعوا عدد كبير من العبيد من نفس الجنسية في مكان واحد وذلك تجنباً لحدوث أي تمرد[2]، ومن المحتمل أيضاً كما عند الرومانيين أن بعض الجنسيات كانت أكثر إنتاجاً للعبيد من غيرها.

وفيما يتعلق بأسعار العبيد، فقد إختلفت وفق مميزات العبيد، فكان زينوفون يعطى عامل منجم من ١٥٠ دراخما، بينما كان يعطى دراخما واحدة فقط للعامل الذي يقوم بالأعمال الشاقة وهذا بالطبع لايقارن بالمبلغ الذي كان يعطى للحرفيين المهرة والذي كان يصل إلى ٦٠٠ دراخمة لكل فرد، وقد فرضت المدن التي تبيع الرقيق الضرائب على عائدات البيع، فعلى سبيل المثال تم تنظيم سوق كبير للرقيق خلال الإحتفالات بمعبد أبوللو[3] في اليونان، وتمتع الزبائن بالضمانات ضد العيوب الخفية، فالمشترى يمكنه إلغاء الصفقة إذا إكتشف أن العبد الذي إشتراه مصاباً بمرض أو عيب ما دون علمه بذلك، وقد تعددت درجات الاسترقاق عند الإغريق، بدءًا من المواطن الحر ومرورا بالمواطنين الأدنى مرتبة، والمُعتقون والأجانب،وانتهاءً بالرقيق، ويربط بين هؤلاء جميعًا الحرمان من الحقوق المدنية، وقد قدّم

١ ـ أريستوفا□ أو أر□طوفانيس، مؤلف مسرحي كوميدي يعتبر من رواد المسرح الساخر في اليونا□ القديمة.
٢ ـ المو□وعة البريطانية، الطبعة ١٥، عام ٢٠٠٧، الصفحات ٢٥٧ـ٢٨٦
٣ ـ وفق المعتقدات الإغريقية فيعتبر أبولو هو إله الشمس وقد أقام اليونانييو□ له معبدا أطلق عليه ا□م شيد معبد أبولو فيمدينة ديديموس قرب ميليت في آ□يا الصغرى عام ٣٣٥ قبل الميلاد، ويعتبر المعبد من أضخم المعابد إذ بلغ طوله١٠٩ م وعرضه٥١م وعدد الأعمدة كانت ٢١م في الضلع الأطول و١٠م في الضلع الأقصركما كانت الأعمدة بصف مزدوج حول المعبد بلغ طول العمود ١٩.٥ م ، وبد□ العمود مؤلف من ١٨ قطعة ا□طوانية،عرض باب الصالة (Nous)كا□ ٨م والصالة كانت كبيرة وغير مسقوفة

أرسطو [١]، مجموعة من المعايير لقياس درجات الاسترقاق المختلفة كالحق في الملكية الخاصة، والسلطة على عمل الغير والعقاب، والحقوق والواجبات القانونية كالعرضة للاعتقال أوالعقوبة التعسفية أوحق التقاضي، والحقوق والامتيازات العائلية كالزواج والميراث وغيرها، وإمكانية الحراك السياسي كالمطالبة بالعتق، والحصول على حقوق المواطنة، والحقوق والواجبات الدينية، والعسكرية كالخدمة في الجيش.

رقيق أثينا : كان رقيق أثينا ملكًا لسيدهم (أو للدولة)، يتصرف فيهم حسبما يراه مناسبًا، فيمكنه أن يعطيهم لغيره أو يبيعهم، أويؤجرهم أو يورثهم، ويمكن للرقيق أن يتخذ زوجة وأبناء، ولكن الدولة لا تعترف بالاسرة المملوكة، ويحق للسيد تفريقهم بأي وقت شاء، وقد امتلك الرقيق حقوقًا قضائية أدنى من حقوق المواطنين، وكان السيد يمثلهم في جميع الإجراءات القضائية، ولو أن العبد ارتكب جنحة أدت إلى تغريم الحر، فإنه يجلد مقابل ذلك، وكانت سوطًا واحدًا لكل درخامة، كما أن شهادة الرقيق لم تكن مقبولة إلا إذا كانت تحت وطأة التعذيب، فيما عدا استثناءات قليلة، حيث كان العبيد يعذبون في المحاكمات لأن ولاءهم غالبًا ما يظل لأسيادهم، وقد تمتع رقيق أثينا بحماية غير مباشرة ، فلو أن العبد تعرض لمعاملة سيئة، فإنه يحق لسيده الشروع في دعوى قضائية بخصوص الخسائر والفوائد، وبالمثل، يحق لأي مواطن محاكمة السيد المسيء لمملوكه [٢].

وقد ذكر سقراط بأن (أقل الرقيق قيمة لم يكن ليُعدم دون محاكمة) [٣]، فلم تكن سلطة السيد على عبده مطلقة، وقد نص قانون دراكو [٤]، على أن عقوبة قاتل الرقيق الإعدام،

---

١ - أر□طو الفيلسوف اليوناني، تلميذ أفلاطو□ ومعلم الإ□كندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والمو□يقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسيا□ة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء.

٢ - د. أحمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية، ص ١٢٦، الدار الجامعية، بيروت ١٩٩٥.

٣ - د. أحمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية، مرجع □ابق، ص ١٢٦.

٤ - داركو فيلسوف إغريقي من طبقة النبلاء وقد وضع جملة قواعد قانونية مثلت د□تور أثينا المكتوب الأول من نوعه، و□ُجلت على ألواح خشبية، وحُفظت على مسلات على شكل هرم ثلاثي الجوانب (وكا□ يُطلق على هذه الألواح محاور وذلك لأنها يمكنها الارتكاز على محور الهرم بحيث يمكن قراءتها من أي جانب، ويتميز هذا الد□تور بالعديد من الابتكارات الهامة، فبدلاً من القوانين العرفية الشائعة بين أو□اط محددة، والتي كانت تفسر تُطبق بشكل ا□تبدادي ومتحيز، وكانت كل هذه القوانين مكتوبة بحيث يتمكن كل المواطنين المتعلمين من الإحاطة بها، (ويمكنهم حينئذ التقدم بالتما□ات إلى المجلس الأعلى لرفع المظالم)، وذلك وفقًا لما نص

حيث كان المبدأ الذي ينطلق منه هو أن انتشار هذه الجريمة أكثر يمكن أن يؤدي إلى أضرار خطيرة على المجتمع ، فالدعوى المرفوعة ضد قاتل الرقيق لم تكن دعوى تعويض عن خسائر، مثلما هو الحال مع قاتل الماشية، والتي يُعاقب عليها لانتهاكها الدين عن طريق سفك الدماء، وعلى الرغم من كل ذلك، فقد انتمى الرقيق انتماءً حقيقيًا إلى أسرة سيدهم، وجرت العادة باستقبال العبد الجديد بتقديم الأطعمة والفواكه، مثلما هي العادة باستقبال الضيوف، كما شارك الرقيق في معظم الطقوس المدنية والإجتماعية، وكان بمقدور الرقيق طلب اللجوء إلى للمعبد ، وقد اشترك الرقيق في عبادة آلهة أسيادهم، وإن سُمح لهم بالإبقاء على أعرافهم الدينية الخاصة ، ولم يُكفل للرقيق حق الملكية، ولكن سمح لهم بالإدخار ليتمكنوا من شراء حريتهم، كما سمح لهم بممارسة التجارة مقابل دفع ضريبة لأسيادهم، وقد كان قانون أثينا يحرّم ضرب الرقيق، وقد حارب رقيق أثينا جنبًا إلى جنب مع أحرارها في المعارك، وهو ما تذكره الآثار، وبالمقابل فُرضت على الرقيق قيود والتزامات معينة، فعلى سبيل المثال، حُرم العبيد من دخول معهد المصارعة ولا يُسمح للرقيق بممارسة الرياضة أو التدهن بالزيت كالأحرار، وتنسب القواعد السابقة لسولون[1]، وقد كان يتم استرقاق أبناء الأعداء المهزومين، وكانوا يعملون كعبيد.

رقيق جزيرة كريت : دلت النقوش الأثرية الإغريقية بجزيرة كريت، والتي يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد على معاناة الرقيق من التبعية الشديدة، وقد شرعت العقوبات

عليه الد□تور الذي وضعه دراكو والذي مثل أول منظومة تشريعية آنذاك)، وقد فرقت تلك القوانين بين جرائم القتل المتعمد والقتل غير المتعمد، ولكن تلك القوانين كانت □ارمة بصورة مبالغ فيها،على □بيل المثال، كا□ من يتخلف عن □داد ديناً وكانت ظروفه المادية لا تفي بـالدين الذي عليه يُحكم عليه بالعبودية، لكن تلك العقوبة كانت تخفف لمن يدينو□ بأموال لمن هم أقل منهم في المرتبة الاجتماعية، أما عقوبة الإعدام، فكانت تمثل العقوبة المتبعة حتى في بعض حالات الانتهاكات الأقل، وفيما يتعلق بالا□تخدام المفرط لعقوبة الإعدام في نظام دراكو□ التشريعي، يعلق بلوتارخ قائلاً: "يُقال أ□ دراكو□ نفسه عندما □ُئل عن □ر فرض عقوبة الإعدام على غالبية حالات انتهاك القانو□، أجاب أ□ تلك العقوبة منا□بة للجرائم الأقل شأنًا، وأنه لا يملك عقوبة أكبر لفرضها على الجرائم الأبشع، (Stanton, G.R. *Athenian Politics c800-500BC: A Sourcebook*, Routledge, London (1990) p. 76)).

١ - □ولو□ مشرع وأديب أثيني قام بسن مجموعة من القوانين الإ□لاحية والتي تعارضت مع نظام الدولة المتبع آنذاك كتحريم الرق الناتج عن الدّين ، ورغم أ□ إ□لاحاته فشلت فيما بعد إلا أنه يعتبر الممهد لقيام ما تم تسميته لاحقا بالنظام الأثيني الديمقراطي.

المالية على الرقيق، كالغرامة لارتكاب جنحة أو جناية، وبالمقابل، كانت عقوبة الجريمة المُرتكبة في حق رقيق أقل بكثير من تلك المُرتكبة في حق حر، ورغم من ذلك، فقد تمتع الرقيق بحق ملكية المنازل والمواشي وتوريثها إلى ذرياتهم، وكذلك الملابس والأثاث المنزلي، واعترف القانون بأسرة الرقيق، فلهم الحق في الزواج، والطلاق، وكتابة الوصية، والميراث، مثل الأحرار وذلك بخلاف ما نص عليه الفقه الإسلامي الذي لم يمنح العبيد حقوقا متعلقة بالميراث أو الوصية.

رقيق الدَّين (الإعسار المالي) :اعتاد الإغريق إستعباد صاحب الدين المعسر، وشكل غالبية ضحايا هذا النظام الفلاحون والذين كانوا يعملون في أراضٍ مؤجرة يملكها أثرياء المُلاك، ولا يملكون ما يدفعون به الإيجار، وفي هذه الحالة يتحرر الرقيق عند سدادهم الديون الأصلية، غير أن سولون وضع حدًا لهذا النوع من الاسترقاق عن طريق قانون سولون (رفع الأعباء)[١]، حيث يستطيع العبد شراء حريته بالمال ، وهذا ما يقابل نظام المكاتبه في الفقه الإسلامي كطريق لحرية العبد، وقد ذكر سقراط في (الدستور الأثيني) بإحدى نثريات سولون، والتي يقول فيها : (كم من رجل باعته خديعةُ مكرٍ أو قانون .. أُبعِد عن أرض الله فأصبح عبدًا منبوذًا .. ثم رددته إلى أثينا .. وكم من منفيّ أبعده الدّين عن الأوطان لا يتكلم إلا بلسان أثينا.. صال وجال البلدان فرددته إلى أثينا .. كم من رجل سام الذل وهان ثم لدى سيده الساخط أحنى الجبين فوهبته الحرية)، وقد ميز سولون بين رق الدّين ورقّ الحروب، حيث يبقى العبد الأثيني أفضل حالاً، كما أنه يظل في موطنه الاصلي ، وهذا يفسر الاستياء الشعبي من إقتصار منع الرق في القرن السادس قبل الميلاد، والناتج عن الديون، بينما أبقى ذات القانون على الرق الناتج عن أسرى الحروب، ونجد ذات الأمر في الفقه الإسلامي حيث يصبح أسرى الحروب إما عبيدا أو

١ ـ حال هذا القانو□ دو□ مطالبة الدائن بشخص المدين، وجرّم بيع أحرار أثينا، الأمر الذي أثار حفيظة الطبقة المتنفذة في أثينا أنذك.

سبايا، وفي الحقيقة تلك مفارقة عجيبة، حيث نجد بأن نظام المكاتبة للعبيد في الإسلام أو اعتاق الرقبة (منة) هو موجود في (قانون سولون) قبل ظهورالإسلام، غير أنه ثمة حالتان استثنائيتان لم تطلهما إصلاحات سولون، وهما المرأة الغير متزوجة التي فقدت عذريتها، فيحق لوليها أن يبيعها كأَمَة، كما أنه يحق لأي مواطن أن يتصرف(بيعا أو هبة) عن طفله الوليد والذي لا يرغب بتربيته[١].

١ ـ د. أحمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية، مرجع سابق، ص ١٦٠.

تجارة الرقيق في
الحضارة الإغريقية

من المؤكد ان عتق الرقيق كان موجودًا في مدينة أثينا منذ القرن السادس قبل الميلاد، وقد يعود تاريخ العتق إلى مرحلة أبكر من ذلك، حيث أنه كان يتم شفاهة، فلم يكن المواطن يحتاج لأكثر من أن يكون معه شهود يصحبونه ومملوكه لتحرير علني، يكون إما في المسرح أو أمام المحكمة العامة، وقد حُظرت هذه الممارسة في أثينا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وذلك تجنبًا للإخلال بالنظام العام.

وقد أصبح العتق أكثر شيوعًا في القرن الرابع قبل الميلاد، فظهرت نتيجة لذلك بعض النقوش الحجرية، والتي يعود تاريخها إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، حيث أصبح العتق الجماعي أمرا شائعاً كمكافأة للعبيد على ولائهم، ولكن كان يتم التعاطي مع العتق في معظم الحالات كفعل تطوعي يقوم به المالك فغالبًا ما يكون المالك هو المُعتِق (منة) ، وقد وجب على الرقيق في كثير من الأحيان أن يدفع مبلغًا من المال مقابل حريته كما هو الحال بنظام (المكاتبة) في الشريعة الإسلامية - كما سنبين ذلك لاحقاً- بحيث يفتدي العبد نفسه بالمال، على أن لا يقل المبلغ عن قيمته السوقية، ويمكنه دفع هذا المبلغ من مدخراته، وكثيرًا ما كان العتق ياخذ طابعًا دينيًا، بحيث يُعتبر عملية بيع العبد وسيلة التقرب إلى أحد الآلهة الأغريقية !!، والذي غالبًا ما يكون معبد أبولو وغيره، أوبحيث يُنذر العبد بعد تحريره.

ويحصل المعبد الوثني على جزء من الصفقة النقدية، بالإضافة إلى أنه يضمن العقد، كما يمكن أن ياخذ العتق طابعًا مدنيًا تمامًا، حيث يلعب القاضي دورالإله وفق معتقداتهم، وتكون حرية الرقيق إما كلية أو جزئية، حسبما يشاء السيد فالحرية الكلية تحصن الرقيق استعباده مرة أخرى، وهو ما يميل ورثة الملك السابق، أما الحرية الجزئية، فيمكن أن تضع على الرقيق بعض الالتزامات تجاه السيد السابق، وقد كان أكثر العقود صرامة هو

البارامون، وهو رق مؤقت يحتفظ السيد فيه فعليًا بحقوق مطلقة، أما في ما يتعلق بالمدينة، فلم تتساوَ حقوق الرقيق المحرر مع حقوق المواطنين بالميلاد حيث كان مثقلًا بمختلف الالتزامات، كما يظهر في مقترحات أفلاطون في كتابه (القوانين) فعليه المثول في بيت سيده السابق ثلاث مرات شهريًا، كما أنه يُمنع من أن يفوق سيدَه ثراءً[١]، وفي الواقع، تشابهت منزلة الرقيق المحررين مع منزلة (المتيك) ، وهم الأجانب المقيمون، والذين كانوا أحرارًا ولكنهم لم يتمتعوا بحقوق المواطنين.

رقيق اسبرطة: استخدم مواطنو اسبرطة (الهلوت)[٢]، وهم مجموعة تابعة تملكها الدولة بشكل جماعي، وقد ذكرت النصوص الأغريقية الرقيق الهلوت، فذكر أفلاطون امتلاك أثرياء اسبرطة للعبيد والهلوت، كما تحدث بلوتارخ عن العبيد ، وفق نص الاتفاقية التي أخمدت ثورة الهلوت عام ٤٦٤ ق.م. مما يدل على أن امتلاك عبيد المتاع لم يكن مجرمًا وقتها، وقد أجمع معظم المؤرخين على أن اسبرطة عرفت استخدام عبيد المتاع، ولكنهم لم يُستخدموا بأعداد كبيرة، كما أنهم كانوا مقصورين على الطبقات العُليا من المجتمع، وكما كان الحال في المدن الإغريقية الأخرى، كان عبيد المتاع يُشترون من السوق أو يُأسرون في الحروب، وقد ذكر أرسطو أن البرنامج اليومي للعبيد يتلخص بالعمل، والانضباط ، والإطعام، حيث كانت تتم معاملة العبيد تماما مثلما يتم التعامل مع الحيوانات الأليفة[٣]، أى يعاقب الغير مطيعين ويكافيء ذوي السلوك الجيد، ولكن أرسطو آثر أن تتم معاملة العبيد مثلما تعامل الأطفال، وألا تستخدم الأوامر فحسب بل النصائح أيضاً، فالعبد يستطيع فهم الأسباب وراء أى شيء إذا ماشرحت له، وقد زخر الأدب اليوناني بالعديد من مشاهد جلد العبيد، كانت هذه وسيلة لإجبارهم على العمل، وكذلك السيطرة على الحصص الغذائية، والملابس، ووقت الراحه، وهذا العنف كان يمارسه السيد أو المراقب

---

١ - د. أحمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية، ص ١٦٤

٢ - أ□برطة أو □بارتا مدينة يونانية تأ□ست عام 900 ق.م ، تجمع أربع قرى: لمناي، ميسوا، كينو□ورا، بيتاني، واشتهرت أ□برطة بمجتمعها العسكري الذي نشأ على القتال، ووفقًا للأ□اطير اليونانية، فمؤ□س أ□برطة هو لاكديمو□، ابن زيوس ، وقد □ماها على ا□م زوجته ابنة يوروتاس.

٣ - د. لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونا□، مقدمة في التاريخ الحضاري، ص ١٨ دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ٢٠٠١م.

الذي ربما كان أيضاً أحد العبيد [1] ، وقد أختلقت أحوال العبيد وفقاً لمكانتهم، فقد عاش عبيد المناجم وفتيات البغاء حياة وحشية للغايه، بينما تمتع عامه العبيد من الحرفين، والتجار، بإستقلال نسبي، وأصبح لديهم الحرية في العمل الحر وذلك مقابل رسوم تدفع لأسيادهم ، ومن خلال ذلك يستطيع العبد جمع الأموال لشراء حريته.

رقيق أثينا : فى أثينا كانت هناك طبقات ثلاث للعبيد وهم المواطنون والغرباء والعبيد ، وهؤلاء العبيد إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أنقذوا من الهلاك بعد الحرب ، وكانت قلة منهم فى بلاد اليونان يونانية الأصل، وكان تجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع، ويعرضونهم للبيع، وكان النخاسون فى أثينا من أغنى سكانها، وكان فى أثينا سوق يقف فيه العبيد متأهبين للفحص وهم مجردون من الثياب ،وكانوا يشترون إما لاستخدامهم فى العمل مباشرة، أو لاستثمارهم، فقد كان أهل أثينا الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يؤجروهم للعمل فى البيوت أو المصانع أو المناجم ، وكان الفقير عموماً يمتلك عبدًا أو إثنين، وكان عددهم فى بيوت الأغنياء يصل أحيانًا إلى خمسين ، وكانت سلطة أثينا تستخدم عددًا منهم فى الأعمال الكتابية وفى خدمة الموظفين، وفى المناصب الصغرى، وكان منهم بعض رجال الشرطة.

أما فى الريف فكان العبيد قليلى العدد، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخادمات فى البيوت، ولم يكن الأهالي فى شمالى بلاد اليونان بحاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم وكان العبيد فى في أثينا يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة، كما كانت الجوارى يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة، ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون بجزء كبير من الأعمال الكتابية وبمعظم الأعمال التنفيذية والشؤون المالية.

---

١ ـ د. أحمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية، مرجع □ابق، ص ١٦٨.

ثانياً : الحضارة الرومانية :

أعاد الرومان فتح ملف العبودية لأسوأ حالاته، فقد كانوا يحصلون عادة على الأرقاء من أسرى الحروب، وأولاد العبيد، وأولاد الأحرار الذين حكم عليهم القانون نتيجة إعسارهم المالي، وكان ثلاثة أرباع سكان الامبراطورية الرومانية رقيقاً [١]، وفى أثناء الحرب كان النخاسون يلازمون الجيوش[٢]، اذ كان الأسرى يباعون بأثمان زهيدة، و كان النخّاسون من الرومان يسرقون الأطفال والنساء للاتجار لإعادة بيعهم ، وكان الرقيق فى روما يقف على حجر فى السوق، ويدلل عليه البائع، ويباع بالمزايدة، وكان المشتري يطلب أحيانًا مشاهدة العبد عارياً لفحص العيوب الخفية! ، وكان ثمة فرق بين ثمن العبد المتعلم من غيره ، وبين الجارية الحسناء والأقل حسناً ،وكان الاتجار بالجوارى الجميلات من أسباب الثراء، وكان الأرقاء قسمين الأول ينتفع به فى المصالح العامة كحراسة المبانى، والقيام بأعمال السجّان فى السجن، والجلاّد فى المحكمة للمساعدة فى تنفيذ حكم القاضى، وقسم ثاني ينتفع به فى المصالح الخاصة كالأعمال المنزلية الزراعية، وكان القانون يعتبر الرقيق بلا شخصية، وعليه فليس ثمة أي حقوق له، والعبد وما ملكت يداه لسيده، ويتبع الرقيق أمه حين الوضع، فإذا كانت حرّة فبها وإلا فكان عبداً مثلها.

ولم تكن ثمة أية عقوبة فى القانون الرومانى تُطبّق على السيد الذى يقتل عبده ، وكانوا يعتبرون الرقيق مجرد متاع، وكان منظر الجثث المصلوبة على جذوع الأشجار للعبيد أمراً شائعاً أيضاً، وكانت الهواية المحببة لدى الرومان المبارزات الحية بكل الأسلحة الفتَّاكة بين العبيد ويقول (تشارلز ورث) فى كتابه (الامبراطورية الرومانية) : (كان يقف العبيد حول مائدة أسيادهم صامتين ، بل ويعاقب كل من يسعل منهم أو يعطس بالجلد).

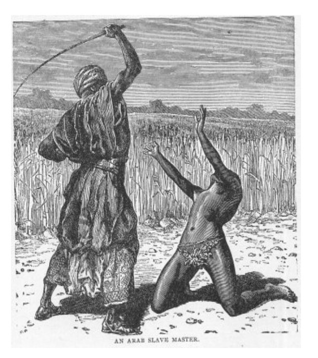
---

١ ـ د. حسن المبيض، أ□باب انهيار الامبراطورية الرومانية، مرجع □ابق، ص ٢٦٤.

٢ ـ النخاسون من النخاسة اي تجارة العبيد والرقيق .

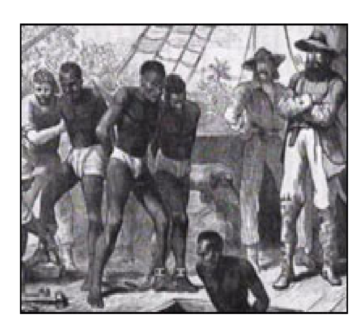
ثالثاً: الحضارات القديمة الأخرى:

شكل الرقيق أدنى الطبقات الاجتماعيّة في عهد الفراعنة والبابليين والفرس، كسائر المجتمعات القديمة المتعددة الطوابق، رغم الجهود المضنية التي بذلتها هذه الطبقة المسحوقة في رفع بناء الأهرام وتشييد أبراج بابل، ولم يكن الرقيق في المجتمع الروماني أسعد حالاً من غيره في المجتمعات الأخرى، عندما عاش محروماً من كافة حقوق المواطنة، وقد عبر عن هذه النظرية القديمة للمواطنة فيلسوف اليونان (أرسطو) حيث قال: إن العبد شيء من المتاع، ويشبه أثاث المنزل، ولصاحبه حق تأجيره وبيعه، بل وقتله إذا شاء، ولم يكن الإنسان في تلك المجتمعات يعامل بأفضل من الرقيق، فقد كان سلطان الرجل على زوجته في روما مطلقاً، وكانت تعد أمةً لا قيمة لها في المجتمع، ولم يكن لها قاض سوى زوجها الذي بيده حق حياتها وحق موتها، ولم تعامل القوانين اليونانية المرأة بنحو أفضل، ولم تعترف لها بأي حق، كالميراث[1].


AN ARAB SLAVE MASTER.

١ ـ د. لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونا□، مقدمة في التاريخ الحضاري، ص ١٨ دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ٢٠٠١م.

واقع العبيد قبل ظهور الإسلام



عاشت البشريّة تاريخياً في ظل مجتمعات وحضارات تسودها نظم الطبقية المطلقة، أساسها العادات القبلية التي قسّمت البشر إلى مراتب إجتماعية متباينة، يتربع على قمتها الأحرار من ذوي النفوذ والسلطة ، ويقبع في قاعها العبيد دون أية حقوق، وقد إستمر الوضع على هذا الحال إلى أن جاء الإسلام وحال العبيد من سيءٍ إلى أسوأ، بل كانت تجارة الرقيق تمتلك قواعد وأصول مرعية، ذات أسواق مكتظة وعامرة.

لذا تمسّك به معارضوا الحرية، عند ظهور الإسلام واعتبروه حقاً لا تجوز المجادلة فيه، وكانت الجزيرة العربية جزءاً من المنظومة الدولية التي انتشرت فيها تجارة الرقيق، وأمام هذا الواقع منح الإسلام جملة من الحقوق الأساسية للعبيد، (حقوق العبيد في الإسلام)، فقدم إجراءات وحلولاً عملية أدت لتفريغ تجارة العبيد من مضامينها - كما سنبين لاحقاً- فالعبودية ليست كجريمة الزنا أو شرب الخمر أو الربا أوغيرها من الجرائم التي حرّمها الإسلام صراحة، كونه لايصح القضاء على مصادرها لما سيلحقه ذلك من أضرار بالضعفاء من البشر.

فلم يقم الإسلام بمنع زراعة المواد الداخلة في صناعة الخمر كالعنب أوالشعيرعلى سبيل المثال، إلا أنه حرم صناعة وتجارة الخمر، وكذلك في حالة القروض الربوية، فالإسلام حرم الربا لما له من آثار مدمرة على الأفراد والجماعات، بل إن الفوائد الربوية شكلت مصدراً وسبباً رئيسياً من أسباب عجز وإعسار المدين عن السداد، وبالتالي يسقط في فخ العبودية، وكان هذا واقع الحال قديماً، حيث يصبح المقترض المعسرعبدا للدائن، وهنا بيت القصيد فلم يحرم الإسلام التجارة أوالبيع والشراء بالأجل غيرأنه حرم فعل الربا، فألغى بذلك مصدراً هاماً من مصادر العبودية.

وهكذا فعل الإسلام مع باقي مصادر العبودية كمحاربة الفقر، والقرصنة البشرية وغيرها من المصادر التي أغلق الإسلام أبوابها، وبقي أمر أسرى وسبايا الحروب، وليس بغية استعبادهم وإنما للتفاوض على إطلاق سراحهم، مقابل أسرى المسلمين الواقعين تحت يد الأعداء، وهذا أمرمشروع بل ومنطقي أيضا، غير أن من يتبقى من أسرى الحروب بيد المسلمين والذين لم يتم إفتدائهم، فلايتم قتلهم أوتعذيبهم أوإهانتهم كما يجري في سجون أعداء الإسلام.ولم تكن ثمة مفاهيم قانونية بعد، لوصف أوتكييف الطبيعة القانونية لمن يتبقى من الأسرى في كنف الدولة الإسلامية وخصوصاً لمن يفقد أهله من الأطفال والنساء فكان يطلق عليهم العبيد، وما هم بعبيد حقيقة، ولا يمكن إعتبار التجاوزات التي حدثت بحقهم أصلاً وإنما إستثناء، كما لايعني هذا أن كافة المجتمعات الإسلامية، قد فسّرت حكمة الإسلام ومقاصدها في تحرير العبيد، بل كانت تمارس بعيداً عن مقاصد الشريعة، وقد وقع العديد من التجاوزات في العصور الإسلامية المختلفة، فقهاءاً كانوا أم سلاطين أومواطنين، الأمر الذي إستغله أعداء الإسلام عذراً لتشويه صورته بشكل عام، علماً بأن الإسلام بريء مما يدعوه، ومن كل المظاهر اللاإنسانية بحق من كان يطلق عليهم إسم العبيد، والذي نهى عنه الإسلام.وينبغي التذكير قبل الدخول في عوالم العبودية ، بإن الأوامر الدينية (السماوية تحديداً)، أشد أثراً وأكثر قبولاً لدى المجتمعات من الأوامر الوضعية (القوانين)، فالإسلام نهى عن إرتكاب كافة الأفعال المفضية للضرر، (فلا ضرر ولا ضرار)، وكذلك القوانين الوضعية فعلت ذات الأمر في كافة دول العالم، ومع ذلك نجد أن إرتكاب الجرائم بشكل عام كالسرقة والزنا والربا وغيرها من الأفعال المحرمة، لازالت ترتكب بحدها الإدنى في المجتمعات الإسلامية، وبحدها الأعلى في المجتمعات التي لاتدين للإسلام بدرهم، بل وتطورت فيها وسائل إرتكاب أقصى أنواع الأفعال شذوذا على مر التاريخ، كعقود الزواج المثلية أو عقود توريث تركات البشر للحيوانات.

رأي الفلاسفة في

العبودية

مضت العبودية الموروثة عبرالتاريخ وصوّرها بعض الفلاسفة كسقراط وأرسطوا أمرا مناسباً للمجتمع لأنها المصدرالأساسي للقوى العاملة، بالرغم من مخالفتها لمبادىء وتعاليم الديانات السماوية، ويرى أفلاطون أن العبيد ليسوا كمواطنين، وعليهم لزوم الطاعة العمياء لسادتهم (أحرار أثينا)، ولا ندرى أية مدينة فاضلة تلك التى يكون ثلاثة أرباع سكانها من العبيد.

أما تلميذه أرسطو فيرى بعض الناس (خُلِقُوا فقط ليكونوا عبيدًا لآخرين) [1]، وبعضهم خُلِقُوا ليكونوا سادة، وهم الأحرار ذوي الفكر والإرادة والسلطان فالعبيد خلقوا لخدمة أسيادهم، والأحرار خُلِقُوا ليفكروا ويلقوا الأوامر لينفذها العبيد، ويجب عند أرسطو أن يستمر هذا الاستعباد حتى يتوصل الإنسان إلى صنع آلات تحل محل الرقيق.

كانت العبودية ولازالت موضع جدال من قبل المؤرخين، فقد رأى هوميروس أن العبودية ليست سوى نتيجة حتمية للحروب، (الحرب أباً لجميع البشر وملكاً لكل البشر الذي يحول البعض عبيد ويطلق سراح البعض الأخر) ، وعليه فالسبب الأول للعبودية إقتصادياً بحت ، أما من وجه نظر فلسفية، فقد نشأت فكرة العبودية الطبيعية مع خلق الإنسان، لهذا أورد إسخيلوس [2] في ثلاثيته (الفرس) أن اليونانيون الذين ليس لديهم أباً

١ - أ. ديوف، المسلمو□ المستعبدو□ في إيطاليا الحديثة، ص ٢١٧، دار إلَتيشيم بانو للنشر، إ□طنبول ١٩٩٨م.

٢ - إ□خيلوس (٥٢٥- ٤٥٦ ق.م) كاتب مسرحي يوناني ويعتبر من مؤ□سي اللو□ التراجيدي في الأدب اليوناني، ويعتبر إ□خيلوس واحد من أقدم ثلاث كتاب مسرح يونانيين وهم □وفوكليس و اوريپيدس، ويُعَدّ أ□خيلوس أهمّ كتّاب المأ□اة الإغريقية على الإطلاق ، كتب العديد من المسرحيات المجسدة للتاريخ اليوناني، ومن أعماله (الفُرس 472 ق.م.)، (□بعة ضد طيبة 467 ق.م) ، (پرومثيوس مصفداً 465 ق.م)، (الضارعات 463 ق.م) ، و(حاملات الشراب 458 ق.م.)، وغيرها ،وثمة شبه إجماع بين المؤرخين على أ□ إ□خيلوس هو أبو فن المأ□اة، فقد كا□ له فضل تثبيت أ□س المأ□اة من الناحية الفنية ، إذ كا□ المسرح اليوناني قبله يعتمد على ممثل واحد يقوم بالأدوار المختلفة ولا□يما دورَيْ الإله والبطل وذلك بأ□ يصبغ وجهه بالمساحيق ويحدث بعض التغييرات في ملابسه،

كانوا يدعونهم العبيد أوالتابعين، بخلاف الفرس حيث يعتبر الجميع عبيد بأستثناء شخص واحد ألا وهو الملك، وأنشأ أبو قراط نظرية حول هذا الرأي في نهاية القرن الخمس قبل الميلاد قائلاً أنه نتيجة للمناخ المعتدل لبلاد الأناضول غلبت على الشعب طابع الهدوء والخضوع وهو ما أشار إليه نقلاً ، العلامة ابن خلدون في مقدمته، وقد كرر أفلاطون هذا التفسير وتلاه أرسطو في كتابة (السياسة) الذي طور فيه مفهوم العبودية الطبيعية قائلاً: (الذي يستطيع التفكير بعقلة هو حاكماً بطبيعة الحال وسيداً بطبيعة الحال، أما من يفعل ذلك بجسدة فإنة منقاد وعبد بطبيعة الحال، وعلى عكس الحيوان، ولكنه لا يمكلك الاجزاء المتداولة على الإطلاق)، وبالتوازى مع تلك الأفكار طور فلاسفة اليومان مفهوم أن جميع البشر (يونانيون او غيرهم) ينتمون إلى عرق واحد.

ولذا فإن بعض البشر وعلى الرغم من أرواحهم الحرة فهم عبيد، وتمشياً مع نظريته المعروفة بالعبودية الطبيعية، أعترف أرسطو بإمكانية هذه الفكرة باعتبار أنه لايمكن فرض العبودية إلا إذا كان السيد أفضل من العبد، كما أن العبودية ليست مرتبطة بمكانة الفرد وإنما بروحه،(حتى إن كنت عبداً، كن حراً في التفكير، وقتها لن تكون عبداً مرةً أخرى)[١]، ولذا فلم يتقبل الإغريق فكرة الحياة بلا عبيد، كما كان العبيد متواجدون أيضاً في المدن المثالية التي أطلق عليها أفلاطون (القوانين أو الجمهورية)، حيث أن المدن الفاضلة تقوم على التوزيع العادل للممتلكات والتي تشمل العبيد المنضوين تحت تعريف الممتلكات، وبالتالى مجتمع بلا عبيد هو واقع يصعب تصوره، ولذا فإنه في أيه مجتمع طبيعي، وفق رأي فلاسفة اليونان فإن المواطن الحر في حاجة إلى عبيد، وقد برّر مفكرو الغرب وفي مقدمتهم (مونتسكيو) في كتابه (روح القوانين) الذي يعتبر شريعة الغرب، مبدأ استعباد الزنوج ذوي البشرة السوداء قائلاً: إن شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين،

و□رعا□ ما أدرك أ□خيلوس هذا القصور الفني فأقدم على إضافة ممثل ثا□، وأدخل تعديلاً على دور الجوقة ، مما □اعد على إبراز الصراع الذي تقوم عليه فكرة المسرحية اليونانية، وكذلك إهتمّ بملاءمة الملابس والأزياء لطبيعة القصة، وإعتنى بصقل الأقنعة وإتقا□ □نعها لتعبر تعبيراً متنا□باً مع الانفعالات التي يجسدها البطل.

١ ـ الحمر والبيض والسود ، مصطفى أبو الخير ، □لسلة الألف كتاب ، مصر ١٩٩٨م.

لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب أفريقيا، لكي تستخدمها في استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة، وما شعوب أفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن نرثي لها[1].

غير أن هذا اللون من الفكر لم يكن مقصوراً على فلاسفة أوروبا بذلك العهد ، وإنما امتدّ إلى بعض رجال الدين الذين كانوا يتصدّون لقيادة حركة التوسع ذو الصبغة الإستعمارية باسم الدين، فكانوا يصفون الهنود الحمر المتصدين لسياسات الإستطيان بأنهم من سلالة الشيطان، بل كانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل.

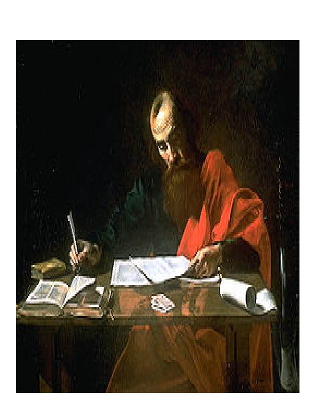
---

١ ـ عايدة العزب مو□ى،العبودية فى أفريقيا،ص ٦٣ ، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ٢٠٠٤م .

العبودية في

ظل الأديان السماوية

أولاً : التوراة والإنجيل :



لا شك أن كل من التوراة والإنجيل ضد العبودية وضد الاستغلال الجنسي للجواري، والقول بأن الكتب السماوية تصرح بمشروعية العبودية هو رأي جافاه الصواب، غير أنه لا يوجد في الإنجيل نهي مباشر عن العبودية ، ومع أن الإنجيل حارب الشر والخطيئة والرياء ، إلا أنه لم يهدف بالدرجة الأولى لمحاربة كافة أوجه النظم الاجتماعية السائدة في تلك الفترة، بقدر ما هدف إلى السمو بالنفس البشرية لدرجة تزول معها الفوارق الاجتماعية تلقائياً.

موقف العهد القديم من الرق :

شاع الرق فى عهد إبراهيم عليه السلام ومن المسلّم به تاريخيًا أن فرعون مصر أهدى السيدة سارة زوجة إبراهيم جارية هى هاجر، وهبتها بدورها لزوجها عليه السلام، وكذلك عاشر يعقوب عليه السلام جاريتين ، أهدتهما إليه زوجتاه ابنتا خاله (لابان ليا، وراحيل) بملك اليمين وأنجب من حلائله الاربع أولاده الإثنا عشر يوسف وإخوته، وامتلك سليمان عليه السلام أعداداً كبيرة من العبيد والجوارى، وكان الرق معروفًا فى عهد يوسف عليه السلام إذ تعرض هو نفسه لمحنة الرق ، بعد أن ألقاه إخوته فى البئر ، وعثرت عليه قافلة ثم باعوه بمصر حيث اشتراه كبير وزرائها فى ذلك العهد ، كما كان استرقاق السارق موجودا فى شريعة ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، واستخدم يوسف حيلة لاظهار أخيه بنيامين كسارق لاستبقائه معه، وذكر القرآن الكريم

قصة يوسف عليه السلام، وكان اليهود دائماً من أكبر المتاجرين بالبشر فى كل العصور ، إنطلاقاً من أنهم شعب الله المختار، وأن شعوب الأرض عبيداً لهم ، وهكذا حسم اليهود أمرهم مبكراً بتحريف التوراة ، بما يمكنهم من استرقاق الآخرين : (لكى تعلموا أن الربَّ يُميِّز بين المصريين وإسرائيل ، فينزل إلىّ جميع عبيدك هؤلاء ويسجدون لى)[١]

وطبقاً لهذه النظرية فإن اليهود كانوا دوماً من أكبر وأشهرالتجار فى أسواق النخاسة فى التاريخ ، والشواهد التاريخية تحفل بقصصهم وخصوصا في مدينة البندقية :(حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرّمها تحريمًا، والويل كل الويل للمدن التى لا تعبد إله إسرائيل!)[٢] ، وجاء بالإصحاح ١٣ سفر التثنية: (فضرباً تضرب بحد السيف وتحرّم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، و تحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعده)، فأي دين هذا !!

أما الإصحاح ٢١ من سفر الخروج ، فإنه يوضح بشكل دقيق سبل تجارة الرقيق حيث ينص على أنه : (إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم ثم إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين و بنات فالمرأة وأولادها يكونون عبيد للسيد! ، ولكن إذا قال العبد أحب سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حرّاً ، يقدمه سيده إلى الله ، ويقربه إلى الباب أو إلى

١ - أنظر الإصحاح /١١ من سفر الخروج في العهد العهد القديم.

٢ - أنظر الإصحاح / ٢٠ من سفر الثنية المحرف في العهد العهد القديم.

القائمة ، ويثقب سيده أذنه بالمثقب ليخدمه إلى الأبد!)، هذا إن كان عبرانياً، أما استرقاق غير العبراني فهو عن طريق الأسر، وشرعوا لهذا الأمر سنداً محرفاً من التوراة فزعم اليهود أن حام بن نوح (أبو كنعان) كان قد أغضب أباه ، لأن نوح سكر يوماً ثم تعرى و هو نائم فى خبائه فأبصره حام كذلك فلما علم نوح بهذا بعد استيقاظه غضب ولعن نسله الذين هم كنعان، وذكرت التوراة فى سفر التكوين إصحاح ٩/ ٢٥ : (ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال: مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم)، وفى الإصحاح ٩/ ٢٧ : (ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم) ، وقد اتخذ ملوك بريطانيا قديمًا من هذا النص الملفق سنداً لتبرر تجارتهم في الرقيق[١]، ثم جاء الدين المسيحى ولم يحرم الرق، حيث لم ينقل عن المسيح ولاعن الحواريين ولا عن الكنائس نصاً يجرم العبودية أو يحرمها، بل إستمر وضع العبودية كما هو باستقناء النصوص الموجبة لحفظ كرامة وحياة الإنسان.

وقد ذكر القديس بولس أن الطبيعة جعلت بعض الناس أرقاء، وأن لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم[٢]، وعليه فإن نواب الدين الرسميين يقرون صحته ويسلمون بمشروعيته وفيه الخلاصة أن الدين المسيحى ارتضى الاسترقاق ، ويتعذر العثورعلى وجود نصوص بالإنجيل تحرم الرق.

وعليه فالمسيحية لم تعترض على العبودية ، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم فى آدابهم من جهة العبودية ، حتى ولا المباحثة فيها ، ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد لطلب الإستقلال ، ولا تحدثت عن مضار العبودية أو قسوتها وبالإجماع لم تغير النسبة الشرعية بين العبد والمولى بشيء بل على العكس أثبتت الرق

١ - د. عبد الرحيم مولا، الرقيق في العصور الوسطى، مرجع سابق ص ٨٦.

٢ - توما الأكويني قديس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، وفيلسوف ولاهوتي ضمن المدرسة الفلسفية التقليدية.

وأيدته إذ أمر العبيد بطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح فقال بولس الرسول فى رسالته: (أيها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد المسيح !)، وأوصى مدعى الرسالة بطرس بمثل هذه الوصية.

وأوصى بها آباء الكنيسة، واعتبر الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوا من غضب السيد الأعظم، ولم يُنص على منع الاسترقاق وفق رسالة بولس ، لذلك أقرته جميع الكنائس على اختلاف أنواعها ولم تر فيه أقل حرج، ولم ير من جاء من باباوات النصارى ولا قديسيهم حرجًا من إقرار الرق حيث جاء فى رسالة بولس إلى أهل افسس :(هذا يدل على أن العبد تجب عليه طاعة مواليه تعظيمًا لله عز وجل)، وأضاف بولس بأنه قضت على بعض الناس بأن يكونوا أرقاء، واستشهد على رأيه بالشريعة الطبيعية والإلهية وذكر أن من حق المحارب المنتصر قتل المقهور فإن استعبده واسترقه فذلك منه ُمِنّة وفضل ورحمة، وأما القدِّيس توما الأكوينى[١] فإنه قد زكَّى الرق مثلما فعل أستاذه أرسطو لأنه يزعم أنه حالة فطرية خُلق عليها فريق من الناس، لأن عقولهم أقل ذكاء من الأحرار، فهم مجرد آلات ناطقة، - ولا ندرى كيف يُسمون توما هذا قديسًا مع هذا الذى يقوله وإذا كان هذا هو القدِّيس عندهم فمن يكون الظالم!- وقد كان كبار الباباوات فى كل العصور فى أوربا وغيرها من كبار تجَّار الرقيق.

وكانت الكنائس نفسها تمتلك آلاف العبيد للخدمة فيها وزراعة المساحات الواسعة من الأراضى والحدائق التى تمتلكها تلك الكنائس وعلى سبيل المثال كان القس (لاس كاساس) أكبر تجار الرقيق فى البرتغال ، وذكر القس إليفيرا فى كتاب بعنوان (فن الحرب فى البحر)، حيث أدان فيه لاس كاساس باعتباره أحد مبتدعى جرائم خطف

١ - أنظر قاموس الكتاب المقدس لبابا الفاتيكان الثاني ، وكذلك النص الكامل لرسالة القديس بولس.

وبيع الأحرار كما تُباع المواشى، وكانت الكنائس الأوروبية على مرالعصور تتقاضى عمولات عن صفقات النخاسة، وتبارك خطف واسترقاق الناس وتعميد العبيد بإسم اليسوع ، كما كان المقوقس كبير نصارى مصر يمتلك عدداً كبيراً من العبيد والجوارى، وقد أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، فأجاب على الرسالة بلباقة ، وبعث إلى النبي جاريتين مارية وسيرين وعبداً هو عمهما، وقد ولدت السيدة مارية القبطية إبراهيم واعتقها ولدها بمجرد الولادة، أما الأخرى فقد استقرت عند حسان بن ثابت رضي الله عنه، ويسجل التاريخ بأن الكنائس ورجالها قد تجاهلوا كل تعاليم الزهد في الحياة الدنيا ، ليتحولوا إلى إقطاعيين يمتلكون الأراضى ومن عليها.

وعليه أصبحت الكنيسة من أكبر ملاك الأراضى وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوروبا ، فقد كانت الأديرة والكنائس المسيحية تاريخياً تمتلك مئات العبيد، وكان الملك هوالذى يعين رؤساء الأساقفة والأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً من النظام الإقطاعى وقد أمعنت الكنائس الغربية فى الظلم الإجرام ومحاربة العلم والتطور، فأباحت خطف واسترقاق المسلمين والأوروبيين ممن لم يعتنقوا المسيحية، وكان آلاف الأسرى الصقالبة أو المسلمين يُوزعون عبيداً على الأديرة، وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضى الكنيسة فى بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد ، فقد كان العبد سلعة وحَرَّم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملاكهم ، وحَرَّم البابا جريجورى الأول على العبيد أن يكونوا قساوسة ، أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر.

وقد عرّف اليهود الرق في العهد القديم[1]،على أنه الرق الناجم عن ارتكاب الخطيئات المحظورة، وكان اليهودي يسترق به يهودياً مثله عسى أن يذل هذا الرق نفسه، ويكره إليه

١ - ١- **شيشرون** (١٠٦ – ٤٣ ق.م) خطيب وكاتب ومحام وسياسي روماني، تلقى العلم على خيرة أساتذة عصره في روما وأثينا ورودس، مارس المحاماة، واشترك في الحياة العامة، وتقلد مختلف مناصب الدولة وعمل قنصلاً ، ناصب شيشرون

المخالفة والعصيان والخطيئة، وعرف اليهود أيضاً نوعاً آخر من الرق بسبب الحرب كانوا به يستعبدون أسراهم، ويبيعونهم ، سواءً أكانوا من عبيد المزارع والحقول، أم من عبيد المنازل والبيوت، وأيضاً كان يسترق أهالي المدينة المغلوبة حتى ولو دون قتال، ففي سفر التثنية: (حين تقترب من مدينة لكي تحاربها فاستدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك، للتسخير ويستعبد لك)- (التثنية ٢٠/ ١٠)، وجاء في سفر الخروج: (إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج مجاناً، إن دخل فوحده يخرج، وإن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه، إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ، وهو يخرج وحده) - (خروج٢١/ ١ ـ ٤)، وكذلك وتفنّن الرومان في تسويغ صور الرق المتعدّدة، وأقروه في مجتمعهم كنظام اجتماعي صارم، يضع العبيد في سلطة أسيادهم، فكان من واجب الروماني أن يبيع الماشية المسنّة، وحيوانات الجر المريضة، والصوف والجلود، والعربات القديمة، والعبيد المسنّين، والعبيد المرضى، وكل شيء آخر لا لزوم له، ومن المباح له تسمين أسماكه بالدم البشري، وإلقاء عبده في حفرة الثعابين، ومعاقبته بالإحراق والتشويه إذا أخطأ، وبقر بطنه إذا كان نهماً، وقطع لسانه إذا كان ثرثاراً، وفق نصيحة (شيشرون)[1] ، إنه من الأفضل لتخفيف حمل سفينة معرّضة للغرق أن يلقى في البحر بعبد مسنّ بدلاً من حصان جيّد!! .

العداء لكل من قيصر وبمومبي وكراكوس، وكان يدعوهم "الطغاة الثلاثة"، وقبل أن يبرح قيصر روما للقيام بحملته المشهورة في بلاد الغال، أوعز إلى التريبون كلوديوس بضرورة إقصاء شيشرون عن روما، فذهب شيشرون إلى المنفى من تلقاء نفسه (مارس ٥٨)، وفي العام التالي، نجح أصدقاء شيشرون في استصدار قانون باستدعائه إلى روما حيث شكل حزب سياسي معارض ، لكن دون جدوى تذكر فانصرف عن السياسة إلى المحاماة وهادن قيصر إلى أن ساءت العلاقة بينه وبين بومباي، فأخذ شيشرون يتقرب تدريجياً إلى بومباي، وفي ٥١، تولى حكم احدى المقاطعات الرومانية ولم يعد إلى روما إلا قبيل نشوب الحرب الأهلية فانضم إلى بومباي، وبعد انتصار قيصر في فارسولس ٤٨، خضع له وانصرف إلى الكتابة والتأليف، وبعد ذلك عارض انطونيوس بشدة وألقى ضده خطباً عنيفة أدت إلى إعدامه في (ديسمبر ٤٣)، اختلفت الآراء في شيشرون وأخذ عليه بعض المؤرخين صفات الغرور وعدم الثبات على المبدأ، لكنه كان محامياً قديراً وخطيباً بليغاً وكاتباً متمكن ، ترك مؤلفات عديدة في البيان والفلسفة وعدد كبير من الخطب المؤثرة والمشهورة.

١ - أنظر الإصحاح /٢٠ من سفر الثنية في العهد العهد القديم.

موقف العهد الجديد من الرق:

إستمر وجود العبيد في العهد الجديد، و لم يتم إلغاء الرق، ولكن المسيح عليه السلام، حد من تلك الظاهرة، من خلال قيم المساواة والعدالة والمحبة، فالبشر: (ليسوا يهودا فقط أو يونانيين، وليسوا عبيدا ولاأحرار، لأنهم جميعا واحد في المسيح يسوع)[1]، وتنص تعاليم المسيحية أن على السادة والعبيد من المسيحيين أن يحيوا بالتقوى، ولكن في المقابل نرى بأن مصطلح العبودية يرد في الإصحاح السادس /٩ باعتباره أمراً محموداً، إلا إن فسرنا النص على أن تعاليم النص المحرف تعتبر المسيح عليه السلام إله : (أيها العبيد أطيعوا سادتكم كعبيد للمسيح وأنتم أيها السادة تاركين التهديد عالمين أن سيدكم أنتم أيضًا في السموات وليس عنده محاباة)[2]، وهذا غير منطقي ويخالف تعاليم الإسلام فلا إله غير الله سبحانه وتعالى، والمسيح عليه السلام بريء من هذا الوصف، وقد كان المسيح مصلحًا داعيًا للخير، وكانت حياته وتعاليمه ضد كل أشكال العبودية، وتختلف آراء ممثلي الدين المسيحي حول العبودية من مكان لآخر ومن زمن لآخر، فقد تم فرض العبودية في أشكال مختلفة من قبل المسيحيين لأكثر من ١٨ قرنا، في السنوات الأولى للمسيحية.

وكان الرق ذوى طبيعة إقتصادية- كما تم الإشارة إليه - حيث أيدت أكثر الشخصيات المسيحية في تلك الفترة المبكرة، مثل أوغسطين، استمرار العبودية في حين عارضته عدة شخصيات مثل القديس باتريك، وبعد عدة قرون، حينما نشطت حركة إلغاء الرق في جميع أنحاء العالم، عملت الجماعات التي تنادي بإلغاء الرق لتسخير التعاليم المسيحية لدعم مواقفهم، باستخدام روح المسيحية ضد العبودية، وبحلول نهاية القرن التاسع عشر كانت القوى الأوروبية قد تمكنت من السيطرة على معظم المناطق الداخلية الأفريقية،

---

١ - د. عبد الرحيم مولا، الرقيق في العصور الوسطى، ص ٨٦، دار ومكتبة الشرق، القاهرة ١٩٨٢م.

٢ - أنظر النص الكامل لسفر التثنية، الأَصحَاحُ الْعِشْرُونَ، ١٠-١٤.

وقد لحقهم بعد ذلك المبشرين المسيحيين فقاموا ببناء المدارس والمستشفيات والكنائس والأديرة، وكان للمؤسسات المسيحية دور بتثقيف وتحسين المستوى التعليمي والطبي للأفارقة.

أن المسيحية السليمة والبروتستانتية تحديداً، ساعدت على إنهاء الرق باعتباره خطئية ضد البشرية ، وفي أواخر القرن ١٧ بدأت الطوائف البروتستانتية بانتقاد الرق، ولعلّ كتاب هيريت ستاو (كوخ العم توم- ١٨٥٢م)، أحدث ثورة فكرية ضد الرق، وقد بُذلت العديد من الجهود نحو تحقيق المساواة العرقية، والمساهمة في حركة الحقوق المدنية، فمنظمة (الأميركيين الأفارقة) تذكر الدور الهام للحركات المسيحية في الكنائس السوداء التي لعبت دور هام وأساسي في حركة الحقوق المدنية، ولعل أبرز المطالبين بالحقوق المدنية (مارتن لوثر كينغ)، وهو قس للكنيسة المعمدانية، وزعيم حركة الحقوق المدنية الإميركية، وعليه تعد قضية العبوية احدى القضايا الجدلية في تاريخ المسيحية فبعض المؤرخين يلقون اللوم على الكنيسة، والبعض الآخر يشير إلى الكنيسة كانت الصوت الوحيد المدافع عن حقوق الشعوب الأصلية.

ثانياً: واقع العبودية في الدين الإسلامي : من المفيد القول بأنه قد ظهر الإسلام بوقت كانت فيه العبودية منتشرة بشبه الجزيرة العربية كما هي في جميع أنحاء العالم وكان الرقيق يقومون بما يقوم به اليوم الخادم والعامل بالأجرة، وبعبارة أخرى شكل العبيد الثروة البشرية للتطورالإقتصادي والإجتماعي للمجتمعات المدنية المستقرة في تلك الحقبة الزمنية، وعلى الرغم من أن الإسلام قد بين أن الإنسان خُلق من نفس واحدة وجعل التقوى مقياساً عاماً للتفاضل بين بني البشر، ودعاهم لمبادئ العدل والمساواة وعدم التكبر والظلم ، ونتيجة لتلك المباديء الإلهية السامية نجد بأن غالبية المبادرين إلى الدخول فيه كانوا من الضعفاء والفقراء والرقيق.

لقد حرم الإسلام الخمر والزنا والربا وقتل النفس بغير وجه حق، إضافة إلى تحريم العديد من المظاهر السلبية المنتشرة في الجزيرة العربية وفي العالم تحريما قاطعا مع ما يعرف من تعلق الناس بها و تحديداً الخمر والزنا، غير أنه لم يحرم العبودية بنص صريح، ومن يجادل بغير ذلك فعليه مراجعة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة بهذا الشأن، بدل إضاعة الوقت بكيل الإتهامات الجزافية ، وقد شكلت الحروب المصدر الأساسي للعبودية عند ظهور الإسلام ، وإن كان ثمة مظاهر أخرى لمصادر العبودية كالغارات وقطع الطرق والإختطاف وإعسارالمدين.

وعليه فإن الإسلام قد رفض فكرة العبودية بشكل عام، إلا أنه لم يحرمها قطعاً، فوضع أسساً عملية وقواعد أخلاقية للتعامل مع العبيد كتحرير الرقاب عبادة لله وتقربا إليه وخصوصاً أسرى الحروب، فإما أن يُطلق سراحهم منة أو يتم شراءهم وإعتاقهم لذات الهدف أوإفتداءاً بمال أو غيره ، فيما تحولت الأسيرات إلى جواري وخادمات للعمل في المنازل، وتلك حقائق تاريخية مثبتة، وليست مجرد إدّعاءات باطلة، وبعد بلوغ حركة الفتوحات الإسلامية اقصى اتساع لها فى العصر الأموي والعباسي، تزايد عدد الأسرى، وظهرت معها سلوكيات فردية لاتعكس حقيقة مباديء الإسلام، فقد استُعبد الأسير وأصبحت الأسيرة جارية وسلعة تباع وتشترى لأغراض مماثلة لما كان عليه الأمر في عصور الجاهلية ، ولاعتبارات متعلقة بمبدأ المعاملة بالمثل، حيث كان أعداء الإسلام يقومون بإهانة أسرى المسلمين ومعاملتهم بأسوأ وسائل التعذيب والإهانة، وخصوصا نساء المسلمين.

لذا فقد تقبّل عموم المجتمع الإسلامي فكرة النظر إلى الأسرى كعبيد ومعاملتهم على هذا الأساس، واستمر الأمر على هذا النهج بالعصر العباسي وحتى نهاية العصر العثماني، ولذا ثبت واقع استرقاق الأسرى والاستغلال الجنسي للجواري والسبايا عبر العصور الإسلامية بأشكاله وصوره المختلفة، متوازياً مع حقيقة الإيمان بأن تحريرالرقاب

والإحسان للعبيد هو من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها المسلم إلى الله، ومما يحزن النفس بأن كافة فقهاء العالم الإسلامي على مر التاريخ، لم يقدموا حكما حاسماً تجاه تحريم الرق والعبودية القسرية حتى ولو تعلق الأمر بأسرى الحرب، وإنما حسمته إتفاقية جنيف لعام ١٩٤٨م، والتي تم وضعها من قبل الأمم المتحدة ، (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان)[1]، فنصت صراحة على تحريم الرق والإتجار بالبشر، وتجريم كافة صور العبودية جملة وتفصيلا، وبصرف النظرعن الجهات التي أقرت تلك النصوص القانونية، ومدى تطبيق دول العالم لبنود تلك الإتفاقية حكومات أومنظمات أوطوائف أوأفراد، إلا أنه يمكننا القول بأن تجارة الرقيق وكافة مظاهرها قد تم تحريمها أخيراً، وتجريم أفعالها ومعاقبة مرتكبيها بنص قانوني وضعي.

ومما يثيرالإستغراب فعلاً، تفسير بعض فقهاء الإسلام المعاصرين لعملية تحريم الغرب للعبودية بأنه عائد لاعتبارات مالية متعلقة بكلفة اطعام الرقيق وكسوتهم ، وليس لدوافع إنسانية، فإن كان الأمر كذلك، فلم صمت فقهاء العالم الإسلامي طيلة أربعة عشرقرناً عن إصدار ولو فتوى شرعية واحدة، تحرّم استرقاق سبايا الحرب لاعتبارات إنسانية على أقل تقدير!، خصوصاً في ظل أموال الجزية الفلكية لدى بيت مال المسلمين حينها ؟ ، وسواء أكان الأمر من باب الإجتهاد أو القياس أو الإستنباط ، فمن الضروري التأكيد على أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يحرّما الرق صراحة، ومن جهة أخرى فأن عزو الجهود الدولية المتمثلة بالإتفاقيات الدولية الملزمة لأعضاءها بإلغاء الإسترقاق، لإعتبارات تتعلق بعدم الحاجة للعبيد كقوًى عاملة وذلك نتيجة التطورات التكنولوجية وازدياد تكاليف العبيد من إسكان ومأكل ومشرب ورعاية صحية، فهو يعد السذاجة بعينها، وهو تفسير غير قابل للهضم، بل ويشكل ظلماً ممعناً في الإجحاف بحق ملايين الأرواح التي أزهقت بنار العبودية الوضعية، وتلك التي فاضت أرواحها أثناء مكافحة

١ - أنظر النص الكامل للإعلان العالمي لحقوق الإنسان والموقع في جنيف عام ١٩٤٨م.

الرقيق ومظاهره العنصرية.وإن كانت التشريعات والقوانين الدولية قد حسمت أمر العبودية، فهذا أمر يسجل لها تاريخياً، ولايمكن إغفال فضلها في فرض العقوبات الجنائية على تجار الرقيق ومافيات البغاء الدولية في العصر الحديث، إلا أن تلك القواعد الدولية لم تأتي من وحي وإبداع الغرب، بل ظهرت للنوربعد دراسات وأبحاث وتقارير مطولة مستمدة أصلا من التعاليم والمباديء السامية للأديان السماوية الثلاث، وعلى رأسها نصوص القرآن الكريم ، بل أن ديباجة ونصوص مواد الأعلان العالمي لحقوق الإنسان والصادرة عن الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨م والبالغة ٣٠ مادة ، تعد ترجمة حرفية لتعاليم ومبادىء الإسلام، وخصوصاً فيما يتعلق بحقوق وواجبات الإنسان، فعلى سبيل المثال نصت المادة ١/٢٦ من الإعلان المذكور أن:(لكل شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأولي إلزامياً وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني، وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة)، وهذا ما نصت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، بل أن أول كلمة في القرآن الكريم أنزلت على النبي محمد عليه الصلاة والسلام هي كلمة (إقرأ)، وأشارت المادة ٢/٢٦ من ذات الإعلان إلى أنه:(يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماءاً كاملاً، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام)[1]، وقد أوجزالنبي عليه الصلاة والسلام كافة تلك المفاهيم بعبارة مكونة بثلاث كلمات: (أفشوا السلام بينكم)، كما وأشارت المادة ٣/٢٦ إلى أن : (للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم) ، أفلا يذكرنا هذا بحديث النبي عليه الصلاة والسلام (كلكم راع وكلم مسؤول عن رعيته.. إلى أخر الحديث الشريف)، كما نصت المادة ١/٢١ من الإعلان

١ - أنظر المادة ٢/٢٦ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام ١٩٤٨م.

على أن : (لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حراً)، ويقابله في تعاليم الإسلام : (وأمركم شورى بينكم)، وكذلك فيما يتعلق بعقود الزواج ذكرت المادة ٣/١٦ على أنه : (لا يبرم عقد الزواج إلا برضى الطرفين الراغبين في الزواج رضى كاملاً لا إكراه فيه)، وهذا تماماً مانصت عليه أحكام الزواج في الإسلام حيث يشترط الإيجاب والقبول لضمان صحة عقد الزواج بالإسلام، وفيما يتعلق بحقوق الزوجة ذكرت المادة ١/٢٥ أن : (للأمومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصّتين، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أو بطريقة غير شرعية)، وما أكثر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تعد أهم مرجعا لقوانين الأحوال الشخصية والخاصة بحقوق الزوجة والأطفال بالإسلام ، علماً بأن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لم يتطرق لحقوق الوالدين والعديد من الحقوق الأخرى ،وليس صدفة إنتشار دور (فنادق) العجزة التجارية !، كيف لا وهو قانون وضعي وليس إلهي، وعليه فإن كافة نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ما هي إلاّ جزءاً يسيرا مستوحى من مبادىء الإسلام.

حقوق السبايا (الجواري والإماء) في الإسلام :

إن سبر أغوار الأحكام الشرعية في الفقه الإسلامي وموقفها من سبايا الحروب، ينطوي على غموض يناقض مقاصد الشريعة في إحترام كرامة الإنسان، ومهما حاول الفقهاء والمفسرين قديما وحديثاً، تلميع صورة أحكامهم الفقهية تجاه (ملك اليمين) فهي جميعها تصب بخانة الرق والعبودية.

ولكي لاأخرج عن حيادي الموضوعي في هذا الأمر، فإنني سأورد رأي شيخ إسلام معاصر له سمعة علمية وتبعية لايستهان بها، وهو الشيخ العثيمين ، حيث يقول في حكم عورة الأمة من السبايا: (الأَمَةُ ولو بالغة وهي المملوكة، فعورتها من السُرّة إلى الرُكبة،

فلو صلّت الأَمَةُ مكشوفة البدن ما عدا ما بين السُرّة والرُكبة، فصلاتها صحيحة، لأنّها سترت ما يجب عليها سَتْرُه في الصّلاة[1]، سبقه بذلك ابن تيمية:(إنّ الإماء في عهد الرسول عليه الصّلاة والسّلام، وإن كُنّ لا يحتجبن كالحرائر، لأن الفتنة بهنّ أقلُّ، فَهُنّ يُشبهنَ القواعدَ مـن النّساء اللاتي لا يرجون نكاحاً، وأما الإماء التركيّات الحِسَان الوجوه، فهذا لا يمكن أبداً أن يَكُنّ كالإماء في عهد الرسول عليه الصّلاة والسّلام، ويجب عليها أن تستر كلّ بدنها عن النّظر، والمقصود من الحجاب هو ستر ما يُخاف منه الفِتنة بخلاف الصّلاة، ولهذا يجب على الإنسان أن يستتر في الصّلاة، ولو كان خالياً في مكان لا يطّلع عليه إلا الله، لكن يجب التّستر حيث ينظر الناس، فالعِلّة في هذا غير العِلّة في ذاك، فالعِلّة بالنّظرهي خوف الفتنة، ولا فرق في هذا بين النّساء الحرائر والنّساء الإماء)[2]، والجارية عند الرازي : (لا تملك مالا لأنها مال، والمهر التي تأخذه من حق سيدها)[3].

وقد حرم الإسلام الاستغلال الجنسي للسبايا غير أنه أجاز نكاحهن بإعطاء أجورهن وبإذن من يملكهن، وذلك تسهيلا لهن في أداء الفدية بما يأخذن مهرا من أزواجهن[4] ، وهذا أمر فيه نظر كونه يُبقى الأسيرة ملكاً لسيدها حتى يطلق سراحها أما منة أو فدية، ومن ذلك أخذ مهرها ثمن مقابل حريتها ، فإن كان الأمر كذلك، فمجاهدي (هذا العصر) سيفرحون بكل تأكيد بهذا الحكم الشرعي ، حيث تسْترقُّ الأسيرة لتصبح جارية، وأما الأسير فيقتل أو يستعبد أويباع أو يتم المقايضة عليه، أو وفق ما تقتضيه مصلحة الفتاوي الشرعية لكل أمير (غزوة) في حينها!.

---

١ - الممتع على زاد المستقنع للشيخ العثيمين، إصدار وزارة الأوقاف السعودية ، ١٩٨٨م.

٢ - الجوهرة النيرة، باب شروط الصلاة، الرازي ط٢، ص ١٢٥، الدار العصرية للنشر ، بيروت ١٩٩٤م.

٣ - أنظر أحكام القرآن للجصاص، وتفسير ابن كثير وأساس الحرب لوهبة الزحيلي، ص ٣٩٣.

٤ - تفسير ابن كثير ، باب نكاح الأمة، م٦ ص ٢٣٥، الدار الأهلية للنشر ، بيروت ط٣ ، ٢٠٠١م.

لقد وضع الإسلام منهج متكامل شمل جميع نواحي الحياة، ومن المنصف القول بأن روح تعاليم الإسلام شكلت قواعد عرفية للتشريعات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان، ومن ضمنها حقوق أسرى الحرب، وكلما تطورت الحقوق المتعلقة بقواعد العدالة الإنسانية نجدها أقرب لمباديء العدالة والمساواة الإسلامية، والتي نصت على حسن معاملة الأسرى وذلك بإطعامهم من ذات طعامهم وإلباسهم مما يلبسون (وتزويجهم إذا لزم الأمر)، ومساعدتهم المالية لينالوا حريتهم، وقد خصّ الإسلام نصيبا من الزكاة تصرف في تحرير الرقاب، وتلك الأمور شرّعها الإسلام قبل ١٤ قرنا من إتفاقيات الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ومن بينها معاهدة تحريم العبودية، والغريب في الأمر أنه لم يُشرأي بند من نصوص تلك الإتفاقيات الدولية العديدة، على أن تحريرالرقبة يعد من صالح الأعمال التي تؤدي إلى الجنة، لأنها بكل بساطة نصت على تحريم العبودية والرق حتى في حالة أسرى الحرب، وهنا بيت القصيد! ، بمعنى أن تشجيع الإسلام على تحرير الرقبة لايعني تحريم الرق بل يُبقي الباب مشرعاً أمام فرسان الفتوي وصهيل الإجتهاد !، ثم تأتي إتفاقية جنيف لتحرّم العبودية بكافة صورها وأشكالها، بل وتعتبرها جريمة يعاقب عليها القانون، ومن يساهم أو يتسترعلى جرائم الإتجار بالرقيق معرض للعقوبة، وحتى أن الدول المنتصرة في حروب العصر الحديث، مطالبة بتسليم الأسرى وفق إتفاقيات دولية وليس فقط بحسن معاملتهم، ناهيك عن إستعبادهم، وفي حين أنه ثمة فتاوي شرعية إسلامية بتحريم التدخين لأنها تضر بصحة الإنسان، فلا نجد فتوى شرعية واحدة بتحريم إسترقاق سبايا الحرب، فهل كان علينا الإنتظار ١٤٠٠ قرنا كي تأتي هيئة الأمم لتفعل ذلك، ومن ثم تساق دولنا الإسلامية للتوقيع على تلك المعاهدات، بل والتعهد على حسن تنفيذها، وتضمينها في تشريعاتها الوطنية.

قد نرى في تفسير إبن كثير والذي إعتبر فيه أنه: (لا حد للجواري اللاتي يتخذن بهدف الغريزة الجنسية على الزوجات الحرائر، لأنها ملك للمالكها وحلال له) [1]، إنتقاصا

١ - تفسير ابن كثير ، باب نكاح الأمة، مرجع سابق، م٦ ص ٢٣٧.

لحقوق العبيد في الإسلام، ونعيد التأكيد بأننا أمام حقوق العبيد في الإسلام ، وابن كثير يفرق بين الحرة والجارية ، لذا فإن(رد الجارية المبتاعة إذا ظهر بها عيب بعد الدخول بها ولو بعد فترة طويلة) [١]، يعد أيضا خرقا لمباديء المساواة، وطبقاً لتفسير النووي فإنه : (للإماء نصف ما للحرة من الحقوق، ويجوز للسيد أن يجبرأمته للزواج لأنها لاتملك التصرف في حقها) [٢]، فتلك فتاوى بعيدة كل البعد عن أبسط حقوق الإنسان، ولانعتقد بأن الإسلام ينادي بها، ويرى الشيخ سيد قطب بأن: (الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه الواقفين بالقوة المادية في طريقة أن يلغي هذا النظام من جانب واحد، فيصبح أسارى المسلمين رقيقا عند أعدائه، بينما هو يحرر أسارى الأعداء فجفف الإسلام كل منابع الرق- عدا أسرى الحرب- إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن ومن مقضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح!، فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسري لمن يملكهن خاصة! إلا أن يتحرّرن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبلا لتحرير الرقيق) [٣]، والفقرة السابقة واضحة حول كيفية إستمتاع السيد بجاريته!، كما أن تعدد الزوجات أو ملك الجواري ليس موضع مدح أو ذم ولا يجوز توجيه اللوم لمن يعدد الزوجات أو يملك الجواري زعما أنه مخالف للشريعة الإسلامية والقوانين المدنية والمبادئ الأخلاقية لأن إتخاذ الجواري حلال بعقد الملك[٤].

---

١ - المحلى لابن حزم الأندلسي، بيع الجارية، م٢، ص ٢١٨، ط١، دار الفرقان ، مصر ١٩٩٤م.

٢ - الجوهرة النيرة لأبي بكرالنووي ، مرجع سابق، باب زواج الأمة، ط٢ ، ص ١٦١.

٣ - في ظلال القرآن لسيد قطب تفسير الآية ٦٠ ، سورة التوبة والآية ٦ من سورة المؤمنون والآية ٣٠ من سورة المعارج.

٤ - العبودية والحرية الإنسانية في عهد النبي ﷺ، مجلة جامعة أتاتورك، عدد ١٦، ص. ٥٩-٧٩.تركيا ٢٠٠١

وتجدر الإشارة إلى أن ما تم التطرق لذكره ليس إلا مجرد نقطة من بحر الفتاوى الشرعية لبعض فقهاء الإسلام ، والتي كان من نتائجها إستعباد أسرى الحروب والجواري فأصبحت السبية سلعة تباع وتشترى في أسواق النخاسة بنهاية الأمر، وفيما يتعلق بكيفية التصرف بسبايا الحرب في الفقه الإسلامي فإنه لا يجوز وطئ جارية ملكها عن طريق تقسيم الغنائم إلا بعد أن يعرف أنها ليست حبلى بالحيض!!، أو بالوضع إذا كانت حبلى، ولا يجتمع النكاح وملك اليمين في شخص واحد، ولا يتزوج الحر بأمته، ويجوز بأمة غيره شرط أن لا يطئ أمة نفسه!، وأنه من حق السيد أن يستمتع من جاريته ومن واجبها أن تقبل ذلك، والرق يمنع الوراثة، ولا يثبت للرقيق حق في الملكية ولا في الوصية[1]، وهناك فتاوي حول منع عقد النكاح إذا أراد السيد أن يطئ أمته بنفسه، وأنه إذا باع السيد جاريته المتزوجة أبطل سيدها الجديد النكاح، لأن انتقال الملكية يوقع التفرقة في الجواري!.

وقد أباح الإسلام الاستمتاع ممن يملكها من الجواري بملك اليمين أي بدون عقد النكاح، وللقائد الإسلامي سلطة مطلقة لتحديد مصير السبايا، فالأسيرة مرتبطة بخدمة سيدها فقط ولا يلزم فيه عقد النكاح، ويجوز للسيد أن يبيع جاريته إذا لم تكن أم ولده، ويجوز للسيد أن يدخل بجاريته، وهذا ليس بحرام، ولا تحرّم الجواري لمن يملكهن، وعند النووي: (يباح للسيد النظر إلى جميع بدن أمته حتى فرجها، فإن زوج أمته حرم عليه الاستمتاع بها!، والنظر منها لما بين السرة والركبة!)[2] ، وعليه فإن نظرنا إلى ظاهرة العبودية التي استمرت من ظهور الإسلام نجد بأنه لايوجد نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً شريفاً يحرم العبودية، من أجل القول بأن الإسلام قد قام بالقضاء الرق، ربما لأن ظروف نزول القرآن كانت تعيق تحقيق هذا وفق العديد من التفسيرات الفقهية، فإذا وقفنا على الآيات

---

١ - الموسوعة الإسلامية الصادرة من رئاسة الشؤون الدينية التركية، مجلد ٢٦، ص ٢٤٠.

٢ - الجوهرة النيرة لأبي بكرالنووي ، مرجع سابق، باب زواج الأمة، ط٢ ، ص ١٦٥.

المتعلقة بالرق والظروف التاريخية للقرآن بمنهج متكامل نرى أن العبودية مؤسسة شرعية في نظر القرآن ولا خلاف في ذلك، وعليه نجد اليوم بأن غالبية فقهاء الإسلام يدفعون بأنه لم يعد ثم حاجة إلى سن الأحكام المتعلقة بالرق لأن العبودية قد تم إلغائها وفقا لأهداف أراد الإسلام تحقيقها ، ولكن يحق التساءل هنا ، كيف تم ذلك دون التطرق لحقيقة مدى النجاح في تحقيق تلك الأهداف فعليا وعملياً، ومتى تم تحقيقها!.

أسرى الحروب في الفقه الإسلامي:

صنّف الفقه الإسلامي أسرى الحروب في الإسلام من خلال مفاهيم وردت بالقرآن والسنة، حول الأسرى في الجاهلية والإسلام، وقد شملت تلك المفاهيم مصطلحات كالرقبة وملك اليمن والأمة والفتاة وغيرها ، وكان يراد بها أسرى الحرب ، والجارية يعني الأسيرة (انفردت بها السنة دون القرآن)، غير أنه كان لابد من التمييز بين مفهوم الرق في الجاهلية وبين الرق الناتج عن أسر الحرب في الإسلام، ولفهم الموضوع جيدا فقد شرع الإسلام الأسر نتيجة حرب مشروعة ولكن أمر ان يطلق سراح الأسرى مقابل فدية أو منة، ومن الواضح أن ليس ثمة ضرر من وجود العبيد في المجتمع الإسلامي، قال تعالى : (**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) النحل، ١٦ **وقوله تعالى: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)**، الروم، ٢٨، نلاحظ من الآيات السابقة أن وجود العبيد والجوارى في المجتمع الإسلامي أمر مقبول، بل ووصف القرآن الكريم طبيعة الوضع الإجتماعي لهم في ضرب الأمثال لمعالجة لبعض القضايا، وطبقاً لتفسير إبن كثير فإن (مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) تعني: (المسترق والأسير والجارية، لأنهم كانوا يتصرفون فيهم حسب إرادة مالكهم، ولم يكن في المجتمع حينها من يعمل مقابل الأجر فكان معظمهم من الموالي، على أنهم مثل الذي

يعمل تحت أمرنا بأدنى الأجرة ولا نريد المساواة معهم بمشاركتهم مع أموالنا)[1]، كما يحق للمالك أن يحيل حقه في فدية الجارية إلى شخص آخر، وهو ولي لها واهلها حيث يستطيع أن يزوجها، وأن يكاتبها على مال معين لتحصل على حريتها، وأن يستخدمها في مجالات مختلفة، بدليل قوله تعالى: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) النور، ٢٤ / ٣٢، حيث يوصي القرآن الكريم بالزواج من الجواري لعتقهن، ومن جهة أخرى يأمر الله تعالى بمساعدة كل من أراد التزوج من الأحرار والحرائر والأيامى، (والأيم هو من لا زوج له ذكرا أو أنثى ، والإماء الجواري)، وقد وردت كلمة عبد معرفة بأل التعريف مشتملة معنى المسترق في سورة البقرة، فكلمة العبد في هذه الاية تفيد ضد الحر، علما أن كلمة عبد وهو ضد الحر ليس دئما بمعنى المسترق، وتأتي أحيانا بمعنى المسترق وأحيانا أخرى بمعنى الأسير، ويمكن أن تكون في الآية المذكورة بمعنى الأسير، وعليه فأن كل مسترق أسير، كما أن نفس الإنسان بنفس أخيه لذا جاء تفسير ذلك في قوله تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، المائدة، ٩ / ٤٥، ولذا ذهب العديد من علماء الإسلام إلى جواز قصاص الحر بالعبد ، وكذلك ورد في القرآن الكريم كلمة الفتيات، وهي جمع فتاة، ويطلق على الشابات والعجائز الفتاة وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم مرتين بصيغة الجمع (فتيات)، الأولى في سورة النور/ ٢٤ ، والثانية في سورة النساء/ ٤ ، وقد وردت بصيغة الجمع بمعنى الجواري (السبايا) في صدد عدم إكراههن على الفحش وكذلك تقديمهن في الزواج في حالة كونهن مسلمات، كما وردت الكلمة في سورة النور، ٢٤ / ٣٣ بمعنى الجواري في موضوع مساعدة المكاتبة من مال الزكاة، وقد نزلت سورة النساء في أسرى هوازن أو

١ - أنظر تفسير إبن كثير، باب النكاح مرجع سابق، ص ٢٤٨ .

خيبر.وفي مرحلة تشريع النظام المتعلق بالأسرى بعد حرب خيبر جاء القرآن بتعبير ثوري وذلك بذكره كلمة (الفتيات) بمعنى الأسيرات أو الجواري ، وأتم النبي صلى الله عليه تلك الثورة على العبودية حيث منع استعمال المفردات التي توحي بالعبودية حيث قال عليه السلام: (لا يقل أحدكم عبدي، أمتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي، لأن العبيد عبيد اللّه والإماء إماءُ اللّه)[1]، توجيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى استعمال تعبير (فتاتي وفتياتي وغلامي) على أنها كلمات تطلق على الأحرار كما تطلق على الأسرى والجواري، وعلى الرغم من هذا الأمر يسجل للإسلام، غير أنه في الحقيقة لم يحرم العبودية بنص صريح، كذلك وردت في القرآن الكريم والأحاديث مفردات مثل العبد الذي يطلق على الرجل وكذلك العاني والخادم والغلام والرقيق، والأمة التي تطلق على الأنثى وكذلك الإماء (جمع أمة) والوليدة والجارية، وتالياً بيانها :

العاني: وتعني الأسير، وقد وردت في إنقاذ وتحرير من وقع أسيرا في يد الكفار من المسلمين، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (فكوا العاني، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض)[2].

الخادم: يطلق على الأسرى كما يطلق على الأحرار، كما جاء في حديث النبي عليه الصلاة والسلام: (سيد القوم خادمهم)[3]، وكان في الجاهلية يطلق على الرقيق.

الغلام: وردت كلمة الغلام في القرآن الكريم بمعنى الصبي منذ طفولته إلى أن يبلغ سن البلوغ، أما في السنة فقد وردت بمعنى الأسير والرقيق.

الرقيق: وهو التعبير الموروث من الجاهلية وهو فئة الخدم .

---

١ - أنظر تفسير إبن كثير، باب النكاح، مرجع سابق ص ٢٥٠ .

٢ - صحيح البخاري، كتاب الجهاد ، رقم الحديث ٤٧٥٩.

٣ - صحيح البخاري، مرجع سابق ، رقم الحديث: ٤٧٥١

الوليدة: هي الجديدة من كل شيء وردت بمعنى الجارية.
الجارية: هي مفرد الجواري (السبايا أو أسيرات الحرب) وكن يعملن خادمات في المنازل.
الإكتتاب: وهو نظام أقره الإسلام للجواري اللاتي يردن الحرية دون أن تمتلك ما تفدي به نفسها فيقوم سيدها بعمل عقد معها كي تدفع له فيما بعد مالا بالقيمة المتفق عليها بعقد حريتها، وقد ورد ذكر الإكتتاب في القرآن الكريم قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ).

وبهذا القدر من الأمثلة نعتقد بكفاية الأدلة القرآنية حول طبيعة حياة العبيد والجواري في الإسلام وجانباً من حقوقهم في الفقه الإسلامي، وعليه يمكن تأكيد القول بعدم ممانعة الإسلام لوجود العبيد في المجتمع الإسلامي.

عتق الرقيق وسيلة للقصاص في الإسلام :

سعى الإسلام إلى اعتاق العبيد تقرباً إلى الله (وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً الا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة) سورة النساء الآية ٩٢ ، (لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحريررقبة) سورة المائدة، الآية ٨٩ ، (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) سورة المجادلة، الآية ٣، غير أنه في نفس الوقت لم يمانع من امتلاك العبيد والاماء ، وقد شكلت الحروب التي خاضها المسلمون لنشر الاسلام منجماً ماسياً لإستخراج العبيد والاماء يفوق بكثير عدد الذين تم إعتاقهم.

ومن معاملة الفقه الإسلامي للعبيد بالنواحي الشرعية لا تساويهم باخوانهم المسلمين الاحرار رغم انه: (لا فرق بين عربي وعجمي الا بالتقوى) ، فنجد اختلافاً في القصاص، ففي الآية ١٧٨ من سورة البقرة نجد: (يايها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى)، فلو قتل حرٌ عبداً لا يُقتل



الحر بالعبد، أما الاماء فلا تساوي الواحدة منهن، وإن كانت مسلمة فنساء المسلمين من الحرائر لهن عورة كاملة ولا يجوز ان تكشف اي جزء من جسمها غير وجهها ويديها، اما الأمة فعورتها من سرتها الى ركبتيها، والأمة او العبد لا يتزوجوا الا بإذن سيدهم، والأمة اذا كانت متزوجة وباعها سيدها، والآية ٢٥ من سورة النساء تصف الاماء: (فاذا أُحصنّ فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب)، وعليه اذا زنت ألأمة لا تُرجم حتى وان كانت متزوجة بل تُجلد خمسين جلدةً، ويُقاس عليهن العبيد[1] ، وأما نكاح الاماء فمباح للسيد متى ما شاء واي عدد من الاماء شاء، ومن لم يستطع من المسلمين نكاح المحصنات المؤمنات لعدم مقدرته مادياً فلينكح أمةً بإذن اهلها، ولكن هذا غير مستحب لان اولاده منها يكونون ملكاً لسيدها.

وبعد عرض هذا الغيض من فيض الأحكام والفتاوي الشرعية الخاصة بوضع الجواري أليس من المستغرب القول بعدم تمييز الفقه الإسلامي بين الحرائر والإماء، أم أن ذلك لايشكل تمييزاً بين البشر، بل إن نتيجة لتلك الفتاوي لا يزال البعض من عموم المسلمين إلى يومنا هذا يعتبرون الجواري محلاً مشروعاً سائغاً (لحمه).

تجارة الرقيق عند العرب المسلمين

العرب عامةً كانوا يعتبرون العبيد اقل منهم شأناً، فقد روى النسائي عن أنس قال: لما جاء نعي النجاشي ملك الحبشة، قال الرسول عليه السلام ، قالوا: يا رسول الله، نصلي على عبدٍ حبشي رغم ان النجاشي آواهم واطعمهم لما كانوا مستضعفين

---

١ - تفسير الجلالين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ص ٨٢، ١٩٧٢م.

بمكة، وهاجروا اليه ليحميهم من قريش ولم يقولوا وقتها انه عبد حبشي، وفي حديث آخر أنه قال: (أطيعوا أولو ألامر فيكم ولو كان عبداً حبشي)[1]، وكلمة (ولو) اصلاً حرف امتناعٍ ، وهذا يعنيانه أمتنع ان يكون ولي الأمر فيكم لكونه عبدٌ حبشيٌ ، والحديث يعني انه حتى لو كان ولي الامر فيكم أقل شخص مكانة بينكم، فاطيعوه.والجزيرة العربية بحكم قرب شواطيها من افريقيا جلب تجارها العبيد من تلك القارة ومن اجزاء اخري من العالم، فكان مثلاً لبني مخزوم الاثرياء جملة جواري يونانيات، كما كان للعباس عم النبي جوار يونانيات وفارسيات، كما كانت توجد جواري روميات، و من اقباط مصر ،وقد كانت هناك بمكة كذلك جالية كبيرة من العبيد عُرفوا بالاحابيش منهم كان الصحابي بلال بن رباح، وبينهم عدد كبير من النصارى استوردوا للخدمة وللقيام بالاعمال اللازمة لاثرياء مكة.

وعند ظهور الاسلام كانت كل الاسر المعروفة في مكة تملك عبيداً ، والرسول نفسه كان له عدة عبيد وإماء، ذُكر منهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمه وكان اسمها بركة، كانت حاضنة رسول الله في صغره، وأيمن بن عبيد بن زيد الحبشي وثوبان بن يُجدد ويُقال له ابو عبد الكريم ومنهم حنين وهو جد ابراهيم بن عبد الله بن حنين، و زيد بن حارثة الكلبي.

وبعد الهجرة الى المدينة وابتداء الغزوات زاد عدد الاماء والعبيد الذين أُسروا في المعارك، وفي أيام الدولة الاموية عندما امتدت اطراف الدولة الاسلامية الى افريقيا والاندلس واوربا، رجعت الجيوش العربية بأعداد هائلة من الجواري والعبيد، وبعد فتح اسبانيا تم إحضار الجواري الإسبانيات كهديةً للخليفة الاموي ولم يختلف الحال لدى العرب قبل الإسلام عن غيرهم من الأمم فى ميدان الرق، فقد كان مألوفًا أن تتخذ القبائل المنتصرة من أطفال ونساء القبائل المهزومة عبيدًا وجوارى .

١ - تفسير الجلالين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ص ١١٤، ١٩٧٢م.

تجارة الرقيق في العصر الأموي:

شكلت الحروب والفتوحات الإسلامية في العصور الأموية المصدر الأكبر للعبيد والجواري من سبايا وغنائم تلك الحروب، وكما سبق الإشارة فقد كان يتم شراء الجواري والعبيد عن طريق تجار الرقيق من جميع أنحاء قارات العالم المختلفة في ذلك الوقت ، سواء عن طريق أفريقيا أو أووبا أو آسيا، إضافة لعمليات القرصنة الساحلية وعمليات الإختطاف، وقد دخل نظام الخصيان في عهد الوليد الثاني حفيد عبد الملك أي في عام ٧٤٣ ميلادية، وكانوا يأتون بالخصيان إلى دمشق من الإمبراطورية البيزنطية، ويبدو أن فرض العزلة على النساء، وإبعادهم عن مجالس الرجال، لم يقع إلا في العهد العباسي، حيث ساد الميل العام إلى اقتباس الأوضاع الشرقية، ومن ثم تطور نظام الخصي في العهد العثماني وخصوصا في قصور حريم السلاطين العثمانيين، وقد استخدم الأموين في الأندلس الخصيان للخدمة في الحريم، ويؤتى بهم من فرنسا كما تم الإشار إليه سابقا، حيث كانت أسواق الخصيان الضخمة التي يصرّف أمورها اليهود، وأشهرها سوق (فردان) جنوب فرنسا .

وقد ظهر مصطلح الموالي ومفردها مولى وتعني في اللغة العربية الرب أو المالك، وتطلق على الناصر والحليف والصاحب والجار والشريك والسيد والعبد المطلق، وبعد الفتوحات الإسلامية صارت كلمة الموالي تعني أسرى الحرب ممن اعتقوا لاحقاً واندمجوا في المجتمع الإسلامي ، ولقد كان الموالي يتولون في الدولة الأموية، الكثير من المصالح لمعرفتهم بالقراءة والكتابة ولخبرتهم في الشؤون الإدارية، ومع كل ذلك كانوا محرومين من المناصب الرفيعة كوظيفة القضاء، وقد إزداد الموالي بازدياد الفتوحات الإسلامية[1]، وساهموا بشكل فاعل في النهضة الزراعية والصناعية والتجارية وتولوا الشؤون الإدارية

١ - عرائس المجالس لأبي اسحق احمد بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٧هـ)، دار الشمالي، بيروت، ص٦٠ ، ١٩٨٢.

والاقتصادية، ومع كل ذلك فقد الموالي العدالة الاجتماعية في ظل الدولة الأموية، فحرموا من ركوب الخيل والزواج من العربيات الحرائر، ولم يحصلوا على نصيب مساو للعرب من الغنائم، فولدت هذه المعاملة نقمة في نفس الموالي عبروا عنا بحركة الشعوبية (وهي نضال فكري واجتماعي) دافع به الموالي عن أنفسهم ضد التعصب العربي، وجعل الموالي ينضمون للثورة العباسية التي قضت على الدولة الأموية.

تجارة الرقيق في العصر العباسي :

شهد العصر العباسي إزدهارا هائلاً في تجارة الرقيق من العبيد والجواري ، وخصوصاً بعد إنتقال عاصمة الخلافة الإسلامية إلى مدينة بغداد، إذ تم جلبهم اليها من مختلف البلدان التي سيطرت عليها الجيوش الإسلامية الفاتحة، وهذه الزيادة المفرطة في اعداد العبيد والجواري ترجع الى اسباب عدة ، منها كثرة الحروب التي خاضها الامويين والعباسيين من بعدهم ، وهذا ادى الى اتساع الدولة وانتشار تجارة الرقيق انتشارا واسعا فضلا عن حالة الترف والرخاء التي عاشها العباسيون حيث تراكمت العوائد المالية لعاصمة الخلافة من جميع انحاء البلاد ، كما إن زيادة الرقيق قد جاءت ايضا نتيجة لتزاوجهم مع بعضهم بعضاً.

وقد لعب تجار الرقيق في العصور العباسية المتأخرة دورا كبيراً في تطور تجارة العبيد وتنامي أعداد الجواري، حيث كان تجار الرقيق (النخاسين) الذين شكلوا طبقة اجتماعية متكاملة ولهم فروع وعيون واتصالات مع وسطاء وتجار بكافة المناطق ذات العلاقة ، وتولوا مهمة الإشراف على أماكن خصصوها لهذا الغرض ، وفي هذا الصدد يذكر ياقوت الحموي ، إنه في القسم الشمالي من الجانب الغربي من بغداد كانت هناك دار للرقيق متصلة بالحريم الطاهري، ولها شارع يسمى شارع الرقيق، وهناك قطيعة للرقيق قال بعض الظرفاء فيها:

إني بليتُ بظبيٍ من الظباء رشيق ... رأيته يتثنى بقربِ دار الرقيق [1]

---

١ - عرائس المجالس لأبي اسحق احمد بن محمد النيسابوري ، مرجع سابق، ص١٧٨ .

ولا بد من الإشارة هنا ، إلى أن الجواري كن على نوعين جوارللخاصة من الخلفاء، يتم وضعهن في منازل خاصة ، وجوار للعامة من اللواتي يتم بيعهن، في الأسواق العامة ، وقد ذكرت كتب الأدب شواهد كثيرة عما يقمن به من مجون تحت إشراف النخاسين استجلاباً للاغنياء والشعراء ، لذلك فقد حرص التجار، في عرض بضاعتهم من الجواري ، والإشراف على تدريبهن على صنوف العلم وحتى في تحديد ملابسهن وعرضها على رجال الدولة، لاسيما بعض الخلفاء ممن إستهوتهم هذه البضاعة وتنافسوا في طلبها[1].

وقد امتلك المتوكل على الله (٢٣٢ـ ٢٤٧هـ) اكبرعدد من الجواري، حيث ضم قصره مئات الجواري[2]، وقد تباين ذوق الخلفاء العباسيين ، في المزايا التي يفضلونها في الجواري اللواتي يحظين عندهم مابين السمراء والبيضاء، والطويلة والنحيفة وغيرها، وكان الجمال ابرزهذه المزايا وفي ذلك كانت محظية الخليفة محمد المهدي (خيزران) أم هارون الرشيد، وكذلك الامر بالنسبة لجارية الخليفة محمدالهادي(١٦٩ـ١٧٠هـ) (غادر)التي حظيتْ عنده كثيراً فضلا عن جاريته (هيلانة) ، وكانت(نظم) من ابرز محظيات الخليفة محمد الأمين، في حين كانت جارية المعتضد باالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) (جيجك) مثلاً في الحسن والجمال وجمعت جارية الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ)، (عريب) الجمال والادب والغناء [3]، ويبدو إن حظوة الجواري لدى الخلفاء، تمتد لتنال مواليهن ومن يلوذ بهم، لذ فقد ابدع تجارالجواري، بإظهار جمالهن وثقافتهن، لنيل الحظوة والمال، وقد ترسخت هذه

---

١ - المستطرف في كل فن مستظرف شهاب الدين محمد المحلي ، دار احياء التراث العربي، ج٢ ، ص٨٥ القاهرة ، ١٩٥٢م.

٢ - تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق قاسم الشماعي ومحمد العثماني دار الارقم ، بيروت ، ص ٢٩٥

٣ - ابن كثير، البداية، مج٦ ، ج١١/ ص٦٠ .

الحظوة التي تمتعت بها الجواري في نفوس ابنائهن الذين يشاهدون امهاتهم ، وبسببهن ينالون رضا الخليفة، لذلك لم يردّ ابني الخيزران موسى الهادي وهارون الرشيد لها طلبا[1]، ويتبين من مما سبق، مدى انقياد الخلفاء، للمحظيات من جواريهم، ولا بد ان تكون للصفات التي تتحلى بها الجواري وقدرتهن التي تمتعن بها في معرفة خبايا شخصيات الخلفاء، هي التي قربتهن منهم ، وجعلتهن في مرتبة قد تكون اعلى من مرتبة زوجاتهم الحرائر، لا يستطيعون الإستغناء عنهن، وهذا الأمر فرض وجوده على الخلفاء ، إذ لا يتمكنون من رد اي طلب لهن ، كما سنذكر لاحقا، سعيا وراء ارضائهن بمختلف الوسائل ، ما أدى في النهاية الى حدوث تفكك وفوضى في البلاد، وقد ظهرت مشاركة الجواري في الشؤون السياسية بصورة واضحة ، في بداية العصر العباسي، وقد كان لنساء الخلفاء وأمهاتهم وجواريهن دور لا يمكن إغفاله فيها ، وشهدت العصور العباسية كثيراً من دسائس الجواري بقصور الخلافة ومدى ضعف الخلفاء، فعلى الرغم من ان الخليفة محمد المهدي كان ثالث خليفة عباسي حكم البلاد الا ان حبهِ للقيان غلب على اخباره ، منها ما ذكره الجاحظ عن ولعهِ بجاريته (جوهر) التي عدها أولى منه ، بالخلافة قائلا :

فلا والله ما المهدي أولى منك بالمنبر ... فإن شئت ففي كفك خلع ابن ابي جعفر[2]

وتبين لنا علاقته بجاريته أم ولده الخيزران حجم الضعف الذي كان عليه بعض الخلفاء العباسيين، أمام النساء ولا سيما الجواري ، فضلا عن ذلك فقد تدخلت بشؤون السياسة كثيرا ، فهي التي دفعت الخليفة محمد المهدي ، على مبايعة ولديها موسى الهادي وهارون الرشيد للخلافة مع إن ابنه الأكبر، كان عبد الله ، من ابنة عمه رابعة بنت ابي العباس وفي هذا الصدد يذكر إبن الاثير هذا الدور المتعاظم لها بقوله انها هي التي

---

١ - هارون الرشيد ، عبد الجبار الجومرد ، المكتبة العمومية ، ج١ ، ص٥٤ ، بيروت ، ١٩٥٦م

٢ - الجاحظ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ط ١، المطبعة التجارية الكبرى، ج٣ / ص٢٠٩ ،القاهرة ، ١٩٢٦م

بايعت وسيرت كتب الخلافة وكانت تعين وتعزل الولاة والقادة ، وما على الخليفة سوى الموافقة على أمرها فكانت المواكب تغدو ذهابا وإيابا الى مجلسها وهذا ما اثار الخليفة موسى الهادي، الذي حجز عليها واجبرها على عدم الخروج [1]، إن رغبة الجواري في السيطرة على الحكم، من خلال أبنائهن ، هو الذي دفعهن إلى خوض هذا الصراع من اجل تنصيب أبنائهن ولاة للعهد ، وهذا ما حدث للخيزران حين ارادت الخلافة لولديها ، كما سعت (قبيحة) جارية الخليفة المتوكل على الله، إلى جعل ولاية العهد لابنها الخليفة المعتز بالله وهو صبي كما تسببت في قتل الخليفة المعزول المستعين بالله خوفا على حياة ابنها، وقد بلغ من عظم نفوذ الجارية (شغب) والدة الخليفة المقتدر بالله انها جعلت من أمتها، رقيبة على الوزراء والكتاب، وجعلت لها سلطة عليهم ، بل عزلت الوزير علي بن عيسى إذ أمرت بالقبض عليه بسبب سوء استقبال حاجبه لقهرمانتها[2] بل ان سلطتها تجاوزت حدود ذلك، فعينت قهرمانتها(ثمل) رئيسة للمظالم فكانت تنظر بمطالب الناس كل جمعة ، وتحضر القضاة والأعيان، وتبرز التواقيع وعليها خطها كما جعلت (زيدان) القهرمانة مسؤولة عن السجن وقد أثار هذا الأمر ابن الأثير فنقد الخليفة المقتدر بالله قائلا انه (غلب على أمر النساء والخدم)[3].

الجواري في العصور العباسية :

تباينت نظرة المجتمع فيما بين المرأة الحُرة والأمة قبل وبعد ظهور الإسلام، فالمرأة الحرة قبل الاسلام محصنة ومحترمة، أما الأمة، فهي اقل قدرا ، وولدها هجين سواء أكانت عربية أم غير عربية، وهذه النظرة تبدو متعلقة بالسبايا ، إذ يفترض الواقع

١ - المسعودي، (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ١ (دار القلم، بيروت، ١٩٨٩) ج٣ / ص٣٠٩.

٢ - ابن الجوزي، (ت ٥٩٧هـ) المنتظم، ط ١ ، دائرة المعار ف العثمانية ، حيدر اباد ، الدكن ، ١٣٥٧هـ ، ج٦ / ص١٤٨ .

٣ - واجدة مجيد الاطرقجي، المرأة في العصر العباسي ، ص٥٢، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١.

اشاعتهن وعدم احصانهن، وقد ظلت مكانة الحرائر تطغى على مكانة الجواري ،إذ كانت هناك في الواقع بعض الامور التي تفرق بين منزلـة الحرائر والإمـاء، اما عند ظهور الإسلام ، فقد حصلت الجواري على العديد من الحقوق الإجتماعية والمالية وتطورت تلك الحقوق، حتى وصلت لأوجها بالعصر العباسي وكان لهن الكلمة النافذة على اغلب الخلفاء وهـذا يعني إن سيطرتهن لم تشمل كل الخلفاء، فقد ظل بعضهم بعيداً عن سلطتهن، كأبي العباس الـسفاح وأبي جعفر المنصور[1].

ولذا فالحديث عن سلطة الجواري ، لا يقللْ من قيمة ومكانة الدولة العباسـية لا سيما وان النضج الحضاري والفكري والاجتماعي والاقتصادي ، بلغ أوجه في عهدها، وكانت بغداد سيدة مدن العالم بحضارتها لكن تدخل الجواري بشؤون الحكم وسيطرتهن على الخلفاء العباسيين، كانت له آثاره الوخيمة على الدولة، وكان احد الاسباب المهمة في ضعفها ثم انهيار نظمهـا الـسياسية والاقتـصادية وبالتالي توجه انظار الطامعين من اتراك ومغول وغيرهم .

كان ثلاثة فقط من الخلفاء امهاتهم عربيات حرائر ، هـم أبـو العبـاس السفاح و أمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد المد ان الحارثي ومحمد المهدي وأمه أم موسى أروى بنت منصور بن عبد الله الحميرية ومحمد الامين وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، في حين كان أربعة وثلاثون منهم امهاتهم جوار[2]، فلنا تصور المساحة التي تحركت عليها الجواري بهذا العصر ، فضلا عن ذلك فقـد امتد تأثيرهن الى الحياة الثقافية والاقتصادية وكان للرأي العام موقفه المناهض من تلك الـسلطة التـي تمتعت بها الجواري .

---

١ - واجدة مجيد الاطرقجي، المرأة في العصر العباسي ، مرجع سابق، ص٥٤.

٢ - المسعودي، (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجـوهر، مرجع سابق ص٣١٦.

وقد حرص تجار الجواري على اختيار الجواري وتزويدهن بالمؤهلات التي يتمكن بها مِن جذب أنظار الخلفاء والأمراء، فيتم تدريبهن علـى المجالـسة والمنادمـة ورواية الشعر وفي بعض الاحيان الغناء ، حتى أصبحت ثقافة الجواري محط أنظـار الخلفـاء والأغنياء، إذ تنقلت مجالسهن من موضوع إلى آخر بحـضور الـشعراء والمثقفـين الـذين يحضرون من مختلف المدن ، مما جعل هذه المجالس منابر للعلم.

وهذا شكل عـاملا مهما من عوامل نشاط الحركة الادبية والعلمية في قصور الخلافة ، وانعكـس بالتأكيـد علـى مجالس العلم والادب في كافة البلاد، وقد تنوعت العلوم التي تثقفت بها الجواري ، مابين الشعر والكتابة والخـط والغنـاء وتميز بعضهن، بعلوم معينة ، فقد برزت الخيزران في رواية الحديث النبوي ، حيـث يذكر ابن الاثير إنها اخذت العلم من الاوزاعي لذلك فقد روت الحديث في مجالسها [1]، وقد حدد ابن كثير سند أحاديثها عن الخليفة المهدي عن ابيه عن جده عن ابن عباس عن النبي كما برزت عريب المأمونية بالفصاحة والبلاغة فضلاً عن قول الشعر لعبد الله المـأمون ومن بعده المعتصم بالله ثم المتوكل على الله وتميزت كل من (محبوبة وفضل) جواري الخليفة المتوكل على الله ، بانهن كن يغنين الشعر الذي ينظمنه كما تفننت الجواري فـي كتابـة الـشعر والرسائل في المجالس ، عن طريق كتابتها على صدورهن او عصائبهن او على ما يلفـت الانظار لهن، وقد أبدعن بإظهار قدرتهن في المجالس والمناظرات وعلى الـرغم من المستوى الثقافي المتميز لأمهات اولاد الخلفاء ـ الجواري ـ إلا إن ابنـائهن فـي الغالب، لم يكونوا بالمستوى الثقافي والفكري ، الذي كن عليه وقد برز هذا الامر واضحاً فـي العصر العباسي الثاني إذ نشأ الخلفاء على حياة الترف والانغماس في الملذات، وكان الغـرض من ذلك إبقاء الخلفاء في وضع الضعيف المنفذ للطلبات .

---

١ - ابن كثير، البداية، مج٦ ، ج١١/ ص٥٦ – دار المعارف بالإسكندرية ١٩٧٨م.

بددت مجالس الترف واللهو التي عقدها الخلفاء العباسيين وولاتهم موارد البلاد ، لا سـيما في البذخ والتبذير على الجواري ورغبتهم بكسب ودهن، مما جعلهـم يمنحـوهن الـضياع والجواهر والأموال، لذلك ظهر التنافس كبيراً بين الجواري لإظهار قدراتهن برواية الحديث وقول الشعر والغناء لإثارة انتباه الخلفاء والأغنياء لهن، وهذا ما جعل ثروات بعض الجواري تفوق ما موجود في بيت المال ، لاسيما في العصر العباسي الثاني ، وخصوصا بمجالس بعض الخفاء العباسيين حيث الجواري والمحظيات وخدمهن، وحيث نثر المال والجواهر كان أمرا مألوفاً، ولنا تصور حجم المبـالغ التي صرفت طيلة تلك الفترات.

إن ضعف اغلب الخلفاء العباسيين امام محظياتهم من الجواري وتدخلهن في السياسة ، كانـت احد عوامل ضعف وانهيار الدولة العباسية ، ففي الوقت الذي كـان فيـه الخلفـاء العباسـيون ينثرون المال على محظياتهم ويعقدون مجالس الشعر والغناء، كانت الـبلاد تعـج بـالثورات ، حيث يندر ان نجد في عهد الخلفاء العباسيين منذُ إبتداء دولتهم حتى نهايتها ، أن يخلـو مـن ثورات اختلفت أهداف قياداتها، ولا بد ان تكون للمجالس التي يقيمها الخلفاء لجواريهم وخدمهن من اثـر سلبي على الرأي العام ، فالخليفة ومحظياته في طرب والناس في ضنك وفقر، فقد بددت مجالس اللهو اموال الدولة لا سيما في العصر العباسي الثاني .ومنذ العصر العباسي الاول (١٣٢-٢٣٢ هـ/ ٧٥٠م - ٨٤٦م) برزت ظاهرة التمازج الحضاري والسكاني بين الجماعات العربية التي استقرت في ربوع النهرين مع السكان العراقيين الاصل من الذين دخلوا الاسلام، فمثلا بالنسبة إلى الخلفاء العباسيين، من بين سبعة وثلاثين خليفة عبّاسي لم يكن من بينهم من هو عربي الام الا ثلاثة: (ابو العباس السفاح)، و(المهدي بن المنصور)، و(محمد الامين ابن هارون الرشيد)، وادى توجه العباسيين للزواج من ابناء البلد ومن الجواري والاماء إلى ترشيح ابنائهن لمنصب الخلافة .

وذلك يخالف ما جرى عليه العرف ايام الامويين إذ كانوا لا يستخلفون ابناء الاماء[1]، ويعود سبب كثرة الجواري في اسواق بغداد في هذا العصر، يعود اولا الى الغنى المادي الفاحش الذي تراكم لدى الطبقة العباسية الحاكمة بسبب مغانم الحروب والعائدات المالية والعينية المجلوبة الى بغداد من جميع انحاء العالم ، فضلاً عن كثرة الحروب التي كان على الدولة العباسية خوضها في اصقاع مختلفة مما أدى إلى اتساع الدولة وانتشار تجارة الرقيق انتشارا واسعا، علما ان هؤلاء الرقيق، من اناث وذكور، لم يكن بمعظمهم من الاسرى، بل ان غالبيتهم العظمى اطفال قد باعهم اهلهم الى النخاسين من اجل انقاذهم من الفقر والجوع، وعلى امل ان يحالفهم الحظ في حياة أفضل، وفعلا ان الكثير من الرقيق قد استثمروا اوضاعهم الجديدة فصعدوا بالسلم الاجتماعي واصبحوا اعضاء بالطبقة الحاكمة نفسها، بل ان بعضهم اصبحوا سلاطين،ومن اشهرهم (كافور الاخشيدي) بمصر، كذلك امهات وزوجات الخلفاء اللواتي كن جواري، ومن اشهرهن (الخيزران) ام(هارون الرشيد).

دور الجواري في سياسة الدولة العباسية :

ان الحديث عن الجواري يقتضي اولا الحديث عن النخاسين أوتجار الرقيق، كان هؤلاء يشكلون فئة اجتماعية متكاملة، من حيث عدد العاملين معهم من عمال وكتاب ووسطاء وشبكات بغاء، ولهم فروع وعيون واتصالات مع وسطاء وسماسرة محليين ودوليّين، وكان للنخاسين دُوراً في بغداد مخصصة لتلك التجارة تقع على شواطئ نهر دجلة قرب أسواق الرقيق.

وقد شكلت تلك الأماكن إستقطاباً لطبقة الأغنياء وطبقة الشعراء ممن يستهويهم ذلك النوع من الحياة اللاهية وسط الجواري، وقد تطور العمل والتخصص لدى هؤلاء النخاسين بحيث انهم جلبوا المعلمين والمثقفين في مختلف الفروع لكي يقوموا بالاشراف

---

١ - ابن كثير، البداية، مرجع سابق مج٦ ، ج١١/ ص٦٣ .

على تربية وتثقيف جواريهم وتعليمهن مختلف معارف ذلك الزمن لكي يتمكن من مجالسة أفراد الطبقات العليا والتأثير فيهم، وقد نجحت جهود النخاسين الكبيرة في هذا المضمار للدرجة التي أصبحت فيها الكثير من هؤلاء الجواري يجادلن ويحاورن في كثير من أبواب العلوم والفنون بالشكل الذي تفوقن فيه على كثير من الحرائر اللواتي لم تتح لهن فرص التثقيف والتعليم.

وقد أدى ارتفاع المستوى الثقافي لدى الجارية لارتفاع سعرها، ثم ان هذا زاد في حظوظهن مع الرجال بالشكل الذي أدى إلى ازدياد تأثيرهن في المجتمع العباسي، فالجواري اثرن بشكل لا يمكن وصفه في الطبقات العليا في العصر العباسي، ولم يقتصرالامر على نشرالمجون، بل كان لهن تأثير ايجابي يتمثل بمساهمتهن في نشر الثقافة والفنون والعديد من التقاليد الواردة من مجتمعاتهم الاصلية، سواء الموسيقى والغناء والازياء والطبخ والادب وسائر حقول المعرفة، إضافة إلى الناحية السياسية فقد اتسع نفوذهن وقوي سلطانهن، كما كان لهؤلاء الجواري تأثير أدبي على الادباء انفسهم يتمثل فيما تثيره الجواري من عواطف في صدور الشعراء، ولهذا السبب انتشر شعر الغزل بصورة كبيرة، وانقسم مابين غزل عفيف وماجن، ومن أشهرالقصص بهذا الصدد (بشار بن برد وعبدة) و(العباس بن الأحنف وفوز) و (أبي العتاهية وعتبة) و(أبي نواس وجنان) [1]، وظهرت مجموعة من الجواري نظمن الشعر وتفوقن بفنونه، يحضر مجالسهن الأدباء ويتبارين مع فحول الشعراء، وثمة جاريتان شغلتا المجتمع العباسي وسيطرتا على تفكير كثير من الخلفاء والشعراء بما تملكانه من موهبة بنظم الشعر ورواية للأخبار والأشعار وهما (عنان) و(عريب) جارية (المأمون)، وفي تلك الحقبة ازدادت مشاركة المرأة السياسية بسبب التطورات الاجتماعية المتسارعة آنذاك فقد اعتمد الخليفة المنصور

---

١ - العامة في العصر العباسي ، د. وجدي حسيب، ط٢ ، ص ٢٣٦، الدار للعلمية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٥م.

على النساء في جمع الاخبار عن اعدائه ومعرفة احوال الناس حتى عرف الموالي من المعارض [1]، كما مارست المرأة القضاء فقد تولت أم الخليفة (المقتدر العباسي) رئاسة محكمة استئناف بغداد، ولما تسلم (المهدي) الخلافة ظهرت المشاركة النسائية بصورة واضحة .

وكان لنساء الخلفاء وامهاتهم أثر لا يمكن اغفاله في الشؤون السياسية إذ عارض (عبد الله بن المقفع) هذا الدور المتعاظم للمرأة وكتب يقول: (امور كثيرة لا يجترئ عليها إلا أهوج، ولايسلم منها إلا قليل، صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار)، وقد تدخلت النساء في عهد (المهدي) بشؤون الدولة فقد كان كثير الجلوس مع النساء، وكانت زوجه الخيزران (ام هارون الرشيد) تجلس في عتبة الرواق المقابل للايوان، وتجلس (زينب بنت سليمان)، وفي الصدر مجلس الخليفة (المهدي)، يقصدهن في كل وقت، وكان من تأثير (الخيزران) ان رشح المهدي إبنيها وهما (الهادي والرشيد) للخلافة، مع ان ابنه الاكبر (عبد الله) من ابنه عمه وهي عربية هاشمية (رابعة بنت ابي العباس)،وفي عصر الرشيد مارست زوجه زبيدة السياسة وكانت الملكة الثانية في بلاط العباسيين بعد (الخيزران)، ففي عصر الرشيد زاد اقبال الناس على الجواري وتعليمهنّ ودفع الاثمان الباهظة في شرائهنّ وقد اثر ذلك على مختلف جوانب الحياة مما ادى إلى زيادة تحرّر المرأة واندفاعها للمشاركة في شؤون الحياة المختلفة، واعتمد المأمون (١٩٨-٢١٨) على العنصر النسائي ليس في أخذ المشورة ولكن لتسيير اعماله، ففي نزاعه مع أخيه الامين كان يرسل بريده مع النساء في نقل البريد، وكان يرسل النساء والرجال متنكرين في زي التجار او الاطباء وكان يفضل استخدام العجائز في هذه المهمات اذ ان العجائز كن يأتينه كل مساء بتقارير مفصلة تتعلق بأخبار الناس[2].

---

١ - العامة في العصر العباسي ، د. وجدي حسيب، مرجع سابق ط٢ ، ص ٢٣٩.

٢ - ابن كثير، البداية، مرجع سابق مج٦ ، ج١١/ ص٨١ .

وقد تعاظم أثر المرأة كثيرا في العصر العباسي الثاني (٢٤٢-٣٣٤، ٨٤٦-٩٠٧م) ويبدو ان الفساد الهائل في بلاط الخلفاء انعكس بصورة سلبية على أثر المرأة خلافاً لدورها الايجابي في العصر العباسي الاول، فقد زاد الاعتماد على النساء حتى وصل ادارة السجون الخاصة بحبس المتنفذين في الدولة، فقد كان معظم الوزراء الخارجين على الخلافة من المتنفذين يسلمون لزيدان قهرمانة المقتدر، واصبح لامهات الخلفاء وازواجهم دور اكثر وضوحا مما كان في السابق، اذ وصل تأثير النساء على الخلفاء صورة لم يألفها المجتمع من قبل وذلك نتيجة الامتيازات التي حصلن عليها وضعف الخلفاء وصغر سنهم، فتمكنّ مع وصيفاتهن ومواليهن من تشكيل طبقة خاصة شكلت عبئاً مالياً كبيراً على خزينة الدولة، ومن علامات الانحطاط انه كان يتوجب على الولاة في الدولة ان يهادوا الخليفة والسيدة والخالة والقهرمانة والحاجب والخادم وكتابهم وكل من يلوذ بهم، وكان هذا التقليد لا يجوز الاخلال به والا تعرض صاحبه للعزل والسجن[1]،اما في العصر الثالث والاخير(٣٣٤-٦٥٦هـ، ٩٤٦-١٢٥٨م)، خضعت السلطة العباسية تماما للقوى العسكرية الناهظة من شرق الخلافة (ايران وتركستان)، وبدأ أثر العراقيين يتراجع بالتدريج، وقد أدت الخلافات الداخلية والثورات وتعاظم التهديدات الخارجية والحروب الصليبية، إلى تراجع دور النساء في المجتمع ويعود السبب إلى ان خلفاء تلك الحقبة لم يكن لديهم نفوذ فعلي في الدولة، ولذا لا تأثير بالضرورة لنسائهم، وقد عاد دور النساء من الجواري للصعود مرة أخرى وكما سنبين لاحقا في عهد السلاجقة (الخلافة العثمانية).

ثورة الزنج في الدولة العباسية : وقعت ثورة الزنج بالقرب من مدينة البصرة جنوب العراق، وقد استمرت فترة أربعة عشر عاماً (٨٦٩-٨٨٣ ميلادي)، لتشمل نصف مليون عبد ، وأدت تلك الثورة لقتل عشرات الآلاف من المسلمين السنة، وقد

١ - ابن كثير، البداية، مرجع سابق مج٦ ، ج١١/ ص٨١ .

كانت تلك الثورة طائفية بامتياز (شيعية)، تم استخدام العبيد فيها كواجهة ، حيث كانت بقيادة علي بن محمد الذي ادعى أنه المهدي المنتظر، وتعتبر هذه الثورة واحدة من أكبر الفتن وأكثرها دموية في تاريخ الخلافة العباسية، كونها أتت من الداخل، وكان لها الدور الكبيرفي ضعف الخلافة العباسية وسقوطها لاحقا، فقد أدى ذلك لقيام المماليك بانتزاع مصر كمملكة مستقلة، مما أفقد الدولة العباسية هيبتها وقوتها، وشجع القوى الأخرى على مهاجمة عاصمة الخلافة الإسلامية في عقر دارهم ببغداد، وذلك بعد قيام الشيعة بطعن الخاصرة الشرقية للدولة العباسية من ناحية الشرق بواسطة المغول[1].

١ ـ د. فاطمة هدى نجا، ضعف الخلافة العباسية وظهورالخلافة العثمانية، ص ٨٩، دار الايمان، طرابلس ١٩٩٣

الرقيق في عهد

الإمبراطورية العثمانية



ورث الأتراك إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف، وكانت تجارة الرقيق أحد تلك المظاهر الموروثة من عصور الخلافة الإسلامية المتوسطة، وقد تم إلغاء العبودية رسميا بإعلان ميثاق الأمم المتحدة سنة ١٩٢٦م، بعد تزايد الرفض الدولي لتجارة الرقيق، وقد قبلت تركيا هذا الميثاق في الخامس من حزيران لنفس السنة، حيث اعتبر القانون العثماني أن : (بيع ما لا يعد مالا بين الناس والشراء به باطل مثلا لو باع جيفة أو آدميا حرا أو اشترى بهما مالا فالبيع والشراء باطلان)[١].

والسلاطين العثمانيون ساروا على ذات نهج الخلفاء العباسيين فى إتخاذ الحريم، حيث عاش حريم السلطان العثمانى داخل أجنحة الحريم التي تحيطها الأسوار العالية والتي يتناوب على حراستها حراس من الخصيان السود يحتفظون بمفاتيح الأبواب ليل نهار!، وأجنحة الحريم العثماني تعد منطقة مغلقة أو منطقة محرمة لا يسمح السلطان العثماني لأحد بالدخول أو مجرد الاقتراب منها أو النظر لسكانها، لا يدخلها إلا سوى السلطان والخصيان القائمين على الخدمة ، باعتبارهم أشباه رجال، وقد تجرأ مترجم أرمني يعمل للسفير الفرنسي في استانبول، وقبضت عليه السلطات العثمانية متلبسا بالنظر لساحة حريم السلطان، فأمر السلطان العثماني بشنقه فورا قبل أن يتدخل السفير الفرنسي[٢]، وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم تحوى غرفة نومه وحماما وقاعة

١ - أنظر المادة ١/٢١٠ من قانون مجلة الأحكام العدلية العثمانية ١٩٢٦م.

٢ - د. أحمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية، مرجع سابق، ص ١٨٤.

استقبال كبيرة كان يؤدى فيها الصلاة ويستقبل فيها قريباته المتزوجات وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه (الكايا) وهى من كبرى الموظفات في الحريم السلطاني ، ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التي يقضيها السلطان مع الحريم بالليل أو النهار!.
وكان يطلق على هذه الزيارات (خلوة همايون) أي الخلوة السلطانية[1]، ولكي يتم الإعلام بوصول السلطان فإنه كان يلبس صندلا كي يحدث صوتا على الأرض المكسوة بالرخام وكان من قواعد البروتوكول العثماني في أجنحة الحريم أن الحريم إذا فوجئت بوجود السلطان فلا ينبغي لإحداهن أن تنظر للسلطان ، بل تغض بصرها وتنظر للأرض خشية وحياء!!.
وكان السلطان يتزوج من الحرائر مثنى وثلاث ورباع ، ولكنه كان لا يزيد على أربع زوجات معا في الجناح السلطاني، وكان منهن مسلمات ومسيحيات من الحرائر البكر، ويتزوجن السلطان بعقود شرعية ، وكان ذلك في عهد السلاطين السبع الأوائل ابتداء من السلطان عثمان الأول وانتهاء بالسلطان محمد الفاتح (١٢٩٩ ـ ١٤٨١) م ، ولكن بعدها نبذ السلاطين العثمانيين الزواج من الحرائر وفضلوا عليهن الجواري الحسان اللائي كان يموج بهن القصر السلطان في أجنحة الحريم[2] .
والسلاطين الأوائل مع التزامهم بالحد الأقصى في عدد الزوجات وفق الشرع، إلا أنهم لم يلتزموا بشرط العدل بين الزوجات ، فالبرتوكول العثماني كان يفضل الزوجة التي تلد ابنا على التي تلد بنتا، وكانت مخصصات الأولى المالية أكثر من الأخرى ، بالإضافة إلى التقدير الزائد التي كانت تحصل عليه والدة ولى العهد، ولكن فيما عدا ذلك تقريبا كانت كل سلطانة تقيم في جناح خاص بها في الحريم السلطاني ، ولكل سلطانة حاشية خاصة

---

١ - الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ، ط٣ ،الجزء الأول، ص ٢٩٠ دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.

٢ - تاريخ المجتمعات باتريك مورجانـ ترجمة سيد المرزوقي،ص ٢١٥، دار النفائس – بيروت ، ١٩٩٣م.

بها تضم وصيفات يقمن على خدمتها وتضم الحاشية عدد معينا من الخصيان ورئيسا لهم يسمى (أغا الطواشية أو أغا الخصيان) ، ويقوم فريق منهم بخدمة السلطانة، فيما يقوم الفريق الآخر بحراسة الجناح والطرق الموصلة إليه ، وكان الأغا يتلقى طلبات السلطانة وينقلها إلى السلطان نفسه إذا كانت السلطانة أم ولى العهد أو أنجبت ولدا، أو ينقلها للصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إذا كانت السلطانة من الدرجة الثانية، وكان الحريم السلطاني يموج بأعداد وفيرة من الجواري الحسان ، **من خلال المصادر التالية :**

١- سبايا الحروب والقرصنة البشرية في أوروبا وآسيا وأفريقيا، والتي تشمل خطف الضحية لبيعها وكان أمين جمرك الآستانة يأخذ حاجة القصر السلطاني من الجواري البكر.

٢- تجارة الرقيق من مصادرها في أسواق النخاسة العالمية، وسماسرتها الأثرياء.

٣- الهدايا، والتي تعد السبب الأهم لنيل رضاء السلطان عن طريق تقديم أجمل الجواري من قبل كبار رجال الإمبراطورية العثمانية وزعماء الدول الأخرى ، بعد تلقيهن لدروس مكثفة بالعلوم والآداب الاجتماعية الراقية بحيث يُؤهّلن للدخول في الحريم السلطانى.

وكان من الطبيعي أن بعض أولئك الجواري كن غيرمسلمات ، لكن بعد التحاقهن بالقصر يدخلن في الإسلام ويتعلمن البروتوكول العثماني، وبأروقة القصر يتلقين دراسات في الثقافة الإسلامية

والثقافة العامة والسلوك الاجتماعي واللغة التركية، وأثناء هذه الدراسة تظهر موهبة الفتاة ومدى استعدادها للدراسات الإضافية كاللغات الفارسية والعربية والفرنسية والإنجليزية ، والتاريخ الإسلامي والجغرافية ، هذا إذا كانت مستعدة للدراسة النظرية ، وإذا كان لديها استعداد للدراسة العملية فتتلقى تعليما بالتطريز والحياكة والموسيقى والغناء والرقص، وكانت الجواري ينتظمن في مجموعات مكونة من عشر جوار ، وتشرف رئيسة على كل مجموعة، وبمرور الوقت تزداد الجارية علما وثقافة ولباقة وسعة

أفق ، وعند الوصول لسن معينة لا تتجاوز الخامسة والعشرين يعتقها السلطان ويأذن لها كسيدة حرة في الزواج من أحد رجال الدولة، والسلطان هوالذي يختار لها الزوج وتغادر القصر، وقد تجذب الجارية انتباه السلطان فيختارها لنفسه وقد تنجب منه ولدا أو بنتا، ويعلو مركزها إلى درج تقارب السلطانة الحرة ، وحينئذ يطلق عليها لقب (قادين) وهى كلمة تركية معناها سيدة ، وتحصل على حريتها بعد وفاة السلطان ولأن من حق السلطان أن يتمتع بمن يشاء من الجواري عدل السلاطين العثمانيين عن الزواج بالحرائر وفضلوا عليهن الجواري ، لكنهم وكنوع من الإتباع للسلاطين السابقين كانوا يعينون من الجواري أربعا ممن أنجبن ويجعلونهن من القادينات ، وكانت كل قادين بمثابة سلطانة تعيش بمعزل عن زميلاتها الثلاث ولا تقابلهن إلا في الحفلات ، ولها حاشية تقوم على خدمتها ولها إعتمادات مالية ولا يعلوهن في المرتبة إلا والدة السلطان [1] .

وتدخل البروتوكول العثماني بتحديد أوضاع القادينات، وتحديد أهمية القادين يتوقف على المولود ، فإن كان ذكرا أصبحت (باسن قادين) أي كبيرة القادينات أو (خاصكى) لتقترب من درجة السلطانة وتصبح السيدة الأولى بعد وفاة أم السلطان ويكون ابنها كالعادة ولى العهد طالما هو أكبر الأبناء ويتولى العرش إذا لم تصادفه مؤامرة تسلبه الحياة .

حقيقة جواري الحرملك في القصور العثمانية

الحرملك هو ذلك العالم الأسطوري المخفي خلف جدران القصور العالية، وهو تاريخ مظلم لأمبراطورية حكمت عالماً متناقضاً جمع بين الدِين والقوة ، والظلم والعدل والمتعة، والجنس والفنون والمؤامرات والاحقاد فهو عالم من الصراع لاجل النفوذ.

وفي ظل هذا التناقض الصارخ لتاريخ إمبراطورية متقاطعة الاحداث، فقد حرص العثمانيون أشد الحرص على بقاء أسرار الحرملك طي الكتمان قدر الإمكان، على الرغم من جمع أكبر عدد من الجواري بقصورهم ، فالمحظيات لدى السلطان يرقّين للفراش وأما

---

١ - تاريخ المجتمعات باتريك مورجان، مرجع سابق ص ٢١٨.

الباقيات فيتشرفن بخدمة السلطان وتربية أشباله، وقد بقي الحرملك وجواريه حاضراً ولم يجري الغاءه الا بعد قيام الجمهورية التركية بزعامة كمال اتاتورك، الذي اعلن عام ١٩٢٣ انهاء السلطنة العثمانية وعزل آخر خلفائها(فهد الدين) ، واعلان الجمهورية وتم تحرير حريم القصر السلطاني وخدمه وكان عددهم حينذاك [1] ، وفي غمرة العبودية الحقيقة وعصر الحريم الذي ارتبط مع تاريخ الدولة العثمانية وسلاطينها المترفين، فالام وحدها المقدسة بين سواها من النساء، فالسلطان يملك جواريه ويختار من يشاء منهم لتشاركه ليلته، أما أمه فهي الوحيدة التي لها قدراً كبيراً من الإحترام، وأمهات السلاطين هن جواري بالاصل، ولا شك بأن العديد من مما كتب عن عصر الحريم العثماني قد كان اقرب الى الاساطير الا ان الحقائق التاريخية اثبتت ما لا يصدقه العقل فالقصص التي قد تبدو خيالية هي واقعية، والتعتيم التام على أسرار (بيت جواري السلطان) لم يتح للعديد تفهم حقيقة ما كان يجري فيه، وتبقى معظم الاحداث التاريخية والمذكرات الشخصية والروايات والقصص تحمل العديد من الشواهد عن عالم الحرملك، ، وتعد القصور السلطانية التي تحولت اليوم الى متاحف، تؤكد حقيقة الحرملك، وإن كان السلاطين الأوائل قد حافظوا على بعض تعاليم الإسلام، فقد اختلف الوضع منذ عصر القسطنطينية (اسطنبول الحالية) وهي مرحلة السلطان محمد الثاني (الفاتح) حيث وضعت تعاليم الحرملك وبات السلاطين لايتزوجون ماداموا يملكون الجواري، ويختارون من منهن ستكون لإشباغ الرغبة الجنسية ، ومن منهن لإنجاب مزيداً من السلاطين.

وحين تدخل الجارية بيت أو(سجن) الحرملك تنتهي حياتها الإرادية، وتبدأ مشوار العبودية الطويل جداً، فمالكها هو من يقربها فقط، ولايؤمن عليها من الخدم العبيد، لذلك استخدمت قصور السلاطين (الخصيان) وهم عبيد فاقدي للرجولة من خلال

---

١ - لويس برنارد،استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية،ترجمة سيد رضوان علي ، ط٢،ص ١٠٥، الدار السعودية للنشر والتوزيع،١٩٨٢

الاخصاء القسري وهي ممارسة بالغة الوحشية كانت شائعة بذلك الوقت، ولما كان الخدام المخصيين غير قادرين على الممارسة الجنسية، فكانوا هم الوحيدون المسموح تواجدهم بين جواري القصر، اما الرجل الوحيد فهو السلطان وجواري القصر كلهن ملك له، وينفرد بأختيار اي منهن لتساكنه ليلته وما ان تطيب له حتى يرتفع شأنها الى (جارية مفضلة) والمفضلات يعشن في طابق خاص بالحرملك فهن لا يقمن بأعمال التنظيف والخدمة التي يقوم بها سواهن من الجواري، وان انجبت احداهن من السلطان فستفضّل على الاخريات كونها أماً لآمير يحظى بأفضلية الدم السلطاني ، ولسنوات كانت الجارية ام الامراء التي قد يصبح ابنها سلطاناً في يوم من الايام تسمى بالجارية، ولا يتعدى دورها اكثر من ادارة شؤون الحرملك بكونها اعلى الجواري شأناً فأبنها ولي للعهد او سلطان.

وقد استمر هذا الوضع حتى عهد السلطان (سليم الاول) حيث سميت زوجته (حفصة) بمصطلح جديد هو (السلطانة الام) وهذه اول مرة توصف به الجارية بالسلطانة وهي اشارة بأنها نالت مكانتها بكونها ام للسلطان سليمان، وليست بكونها زوجة للسلطان سليم، وتحوز السلطانة الام في التراث الفكري العثماني الميزة الاكبر وفلسفة القصة بسيطة فالملكية المطلقة للسلطان على جواريه تجعلهن جميعاً متساويات امامه، يطلب منهم من يشاء لفراشه وليس لواحدة حق الرفض لطلبه والسبب ليس الطاعة العمياء بل الخوف الأعمى فبكلمة واحدة من السلطان بل ربما بأشارة قد تقتل الجارية ، وبالتالي فميزة السلطانة الام عن ما سواها من الجواري بأنها ام مالكها ولا يستطيع دينياً ان يساكنها فراشه، بالتالي فهي اقدس لديه من سواها، وبذلك فلقب (السلطانة الام) هو مطمع كافة الجواري اللواتي يسعين لأنجاب صبي للسلطان على أمل أن يصبح ابنها يوماً سلطاناً فتحضى هي بالميزة الاكبر (لقب السلطانة الام)، وقد شكل ذلك نواة الصراعات التاريخية والمؤامرات الدموية داخل الحرملك بين الجواري، فاشتهرت الجواري بقتل السلاطين والامراء والوزراء والزوجات للسماح لآبنائهن حتى الاطفال منهم للوصول

الى سدة الحكم ليتسنى لهن النفوذ عند التحول من جواري الى سلطنات امهات يحكمن ويتحكمن بالبلاد.

صراع الجواري:


الانكشارية في أثناء الاستعراض

تزامن صراع الجواري مع عصور من الضعف والتراجع للامبراطورية ساهم بأن يتحول حكم السلطنة لحوالي قرن ونصف بأيادي السلطانات وهي بالفترة التي تسمى تاريخياً بفترة (حكم النساء) بين (م١٥٤١ – ١٦٨٧م) حيث يقتل ويعزل ويسقط ويعيّن الاطفال كسلاطين والحكم (لأم السلطان)، بالتعاون مع قادة الانكشارية[١] او الوزير الاول، وكل ما تفعله الأم هو الابقاء الصوري لإبنها سلطاناً لأطول فترة ممكنة، وعلى مدار تاريخ السلطنة الطويل ومن بين الاف الجواري برزت ثلاث سلطانات كن الاشهر وصاحبات الاثر التاريخي على سلطنة الحكم، وكان لهن دور كبير في العلاقات السياسية الدولية والانقلابات والقرارات الحكومية الحاسمة، وان كن يحكمن من خلف الكواليس، إلا أنهن اصبحن اساطير حقيقية، ثلاث سلطانات كن الاشهر في تاريخ الحرملك، وهن (حوريم) زوجة السلطان (سليمان القانوني)، و (قوسيم) المرأة التي تربعت على قمة الحرملك لنصف قرن كحاكمة فعلية ، والثالثة هي (نخشديل) التي حكمت السلطنة خلف الاستار وكانت خلف الاصلاحات السياسية الشهيرة في القرن التاسع عشر[٢].

---

١ - الانكشارية: تعني: الجيش الجديد، وهي طائفة عسكرية من المشاة العثمانيين شكلوا تنظيماً خاصاً لهم ثكناتهم العسكرية وشاراتهم ورتبهم وامتيازاتهم، وكانوا أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذاً، وقد تم تطيعم هذا الجيش بجنود مشاة من جنسيات مختلفة.

٢ - لويس برنارد،استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية،مرجع سابق ،ص ١٠٩

أولا : السلطانة حوريم (روكسلينا) :

حوريم اسطورة حقيقية في تاريخ عالم الحرملك الغامض، لقد دخلت التاريخ كأول جارية تؤسس لحكم النساء للسلطنة، وكحال اغلب جواري الحرملك يشوب ماضي حوريم الغموض وكل ما يعرف عنها بأنها من اصول اوكرانية بيعت من القراصنة الى سوق الحريم، واشتراها (ابراهيم) اشد مقربي السلطان سليمان وصديقه الذي تدرج بالسلطة من عبد يعمل مربياً للصقور بقصر (منيسا) لمسؤل بالجناح الملكي قبل ان يتزوج السلطانة (حتايس) اخت السلطان سليمان وليصبح لاحقاً الوزير الاول وصاحب اكبر نفوذ بالسلطنة، ابراهيم الطامح لنيل رضا السلطان (سليمان) اشترى له جارية حسناء كهدية ولم يعلم بأنها ستنهي حياته وتتسيّد القصر.

الحسناء الاوكرانية الشابة (روكسلينا) دخلت قلب السلطان سريعاً بجمالها الاخاذ وذكائها المتقد وغوايتها المنمقة وفتنتها ، فاصبحت سريعاً من محظياته، واشتهرت بتبادلها الغزل معه شعراً، وضحكتها المتغنجة وهذا ما يفسر اطلاق السلطان سليمان عليها اسم (حوريم) وتعني بالتركية (صاحبة الضحكة المثيرة)، وسرعان ما تطور وضع حوريم بالقصر مع انجابها للسلطان ذكورا، وان كانت حوريم مثيرة في تغنجها، فكانت اثارتها الحقيقية في السيطرة على عقل السلطان الشاب والتحكم بحبه لها، لتضمن مكانة لها في عالم الحرملك المليء بمراكز القوى الاكثر نفوذا كسلطانة أم، وقد برزت حوريم كعقلية سياسية استراتيجية خططت ودبرت للايقاع بالجميع كما لينتهي المطاف بسلطتها المطلقة بالحرملك.

ولعل اهم ما قامت به حوريم هو استغلالها لمضايقات غريمتها التقليدية السلطانة (مهد فران) ، والتي انتهت بشجارات ومكائد بينهما استغلتها حوريم لتعبر عن انزعاجها واعتزالها بجناحها الخاص مجبرة السلطان العاشق ان ينفذ مطلبها لأرضائها وكان طلبها اعتاقها من جارية الى امرأة حرة ليتزوجها كزوجة شرعية، وبذا تكون حوريم نجحت

بجعل اول سلطان عثماني يتزوج ويتنازل عن جواريه اللاتي اهدى العديد منهن الى وزرائه وباشاواته ارضاء لغيرة زوجته حوريم، فمؤامرات الحرملك كانت تتصاعد طردياً مع الزمن فنفوذ حوريم يزداد واعدائها يزدادون لدرجة انهم حاولوا قتلها مراراً وشوهوا وجهها بالحرق عبر تأمرات دنيا الجواري والخصيان التي تحاك من قبل الجواري السلطانات، ومع بلوغ الامير مصطفى سن الشباب تنامت مشكلة ولي العهد الذي ينتظر العرش ومن خلاله يمكن ان تصبح امه (مهد فران) عدوة حوريم اللدودة سلطنة ام، وحينها ستنفى حوريم وكذلك سيكون لمصطفى حق اعدام اخوته الذكور ابناء حوريم، وهنا برزت ذهنية حوريم السياسية التي رتبت من خلالها عملية نفي مصطفى وامه الى مانيسا[1] من خلال دعوى محكمة حول محاولة انقلابية ، وتستمر المكائد والمؤامرات السياسية فيقتل الوزير الاول ابراهيم باشا خنقاً بالقصر، وهكذا تقضي على اعدائها من الجواري والساسة واحداً بعد الاخر وبتخطيط بالغ الدقة، وتختار حوريم ابنها (الامير سليم) لولاية العهد لهدوئه وتأثيرها وسطوتها عليه، خاصة وما عرف عنه بسكره الدائم حتى اشتهر لاحقاً بالتاريخ بلقب (السلطان السكير)، تسيدت حوريم القصر واخضع الجميع لنفوذها، وبقيت زوجة السلطان

حتى وفاتها عام ١٥٥٨ دون ان يتحقق حلمها بأن تعيش منصب السلطانة الام فقد توفيت قبل رحيل سليمان بعامين ودفنا في مقبرة واحدة وهما رمز للعشق بالتراث العثماني، وان كان المثل يقول بأن الولد على سر ابيه فمع حوريم اصبح المثل يقول بأن الابنة على سر امها، فحتى بعد رحيلها كان الحرملك بأسره ولسنوات طوية يدار بل البلاد بأسرها تحكم من خلال ابنة حوريم الاميرة (مريم) التي كان لها سيطرة مطلقة على اخوتها السلاطين وعلى رجال الدولة ، وقد كرس وجودها لحكم النساء للسلطنة.

---

١ - مدينة مانيسا هي عاصمة محافظة مانيسا تقع في غرب تركيا ويبلغ تعداد سكانها حوالي ٢١٤,٣٤٥ نسمة. منيسا حديثًا هي مركز من ناحيتي الاقتصاد والخدمات لقربها من إزمير التي تبعد ٤٠ ميلًا جنوب غرب منيسا

ثانياً: **قوسيم (السلطانة الام)**: كانت قوانين الارث تقضي بأن تؤول السلطنة الى الذكر الاكبر في العائلة (السلالة العثمانية) بدلاً من ان تنتقل من الاب الى الابن، لكن السلطان محمد الفاتح الضليع بمكائد البلاط اصاغ النواظم التي تحكمت بسياسات السلطنة لقرون، فقد اجاز للسلطان بأن يقتل كافة اقاربه الذكور ليضمن العرش لنسله الامر الذي ادى لفضائع من قتل عشرات الاخوان وابنائهم حتى الاطفال منهم ولعل ابشع تلك الحوادث على كثرتها هي قتل السلطان (محمد الثالث) كل اشقائه الذكور وعددهم تسعة عشر أغلبهم اطفال بتحريض من أمه، وفي العام ١٥٦٦ اصدر السلطان (سليم الثاني) مرسوما بتخفيف الفرمان السابق بالقتل إلى حبس الإخوة الأمراء فى ما بات يعرف (القفص الذهبى)، وبطبيعة الحال فهذا القرار لم يعني ايقاف قتل الاخوة وان كان قلل منه، اما (القفص الذهبي) فهو عبارة عن مجموعة مقصورات متصلة بالحرملك ولا يربطها به سوى باب مغلق دوماً وبهذه العزلة الكاملة يعيش الامراء المعزولين مع بعض الجوارى العواقر ، لضمان عدم انجاب امير يحمل الدم السلطاني، وكان الامراء المعزولين بالقفص الذهبي مع جواريهم كثيراً ما يُقتلون بالمؤامرات او قد يخرج بهم لصعود العرش بعد التأمر ، ووسط تلك البيئة الرهيبة عاشت (السلطانة قوسيم) وتعاملت مع سلسلة من المؤامرات بالغة الدموية لحكم السلطنة لآطول فترة لجارية بتاريخ الامبراطورية وهو ما يقارب نصف قرن.

ترتبط حياة (قوسيم) الجارية الإغريقية الحسناء بمرحلة صعود (السلطان احمد الاول) العرش، كان السلطان (محمد الثالث) قاسياً لدرجة الاجرام فقد قتل اخوته التسعة عشر جميعاً كما سلف ولدى إعتلائه العرش القى بولديه الامراء (احمد ومصطفى) بالقفص الذهبي كي لا يفكرا بالانقلاب على ابيهما والجلوس محله، عاش الاميران احمد ومصطفى معا في القفص الذهبي، وحين مات ابوهما واصبح (احمد) سلطاناً (وهو بسن ١٥ سنة فقط) لم يقسى قلبه ويقتل اخاه بل ابقى مصطفى في القفص مع بضع الجواري

العواقر ، وبنى جداراً سد به مدخل القفص الذهبي، تاركا كوة صغيره يمرر من خلالها الطعام والكحول والافيون إلى مصطفى، وللغرابة انه وبعد اربعة عشر عاماً، تم تقويض هذا الجدار وأعلان الامير مصطفى الذي اصبح مجنوناً تماما سلطاناً، وقد ولدت سني العزلة في القفص الذهبي داخل (السلطان احمد) فراغاً كان عليه ان يملاءه دائما باللهو والتسليه، لذا كان يأخذ امرأة جديده الى الفراش كل ليله، لكنه كان يحابي الفاتنه الاغريقية (قوسيم) التي جاد عليها بالمجوهرات والاشعار الغزلية، كانت قوسيم في الرابعه عشر حين اصبحت المحظية المفضلة لدى احمد الاول.

حكم السلطان احمد من عام ١٦٠٣ الى ١٦١٧، ورحل تاركا قوسيم ارملة في عز الشباب اماً لثلاثة امراء، ومع موت السلطان احمد اطلق سراح الامير (المجنون) مصطفى من القفص ليصبح سلطاناً وحل محله هناك (في القفص) أبناء قوسيم (مراد وبيازيد وابراهيم) ، بعد بضعه اشهر أنزلت مؤامرة ادارتها قوسيم ونفذها الخدم (خصيان القصر) مصطفى الذي لم يرق لهم عن العرش وأعادوه الى القفص واضعين بدلاً عنه ابنه الصغير عثمان، الذي سرعان ما امسى ضحيه انتفاضة انكشارية مسنودة بسلاح الفرسان، فقد زحفت القوات الى السراي وجرت السلطان الى السجن وقتل هناك، وقطعت أذنه وقدمت لامه اهانه لها، وعلى الرغم من ان قتل الاخوه كان شائعا في الامبراطورية العثمانية، الا ان هذه كانت أول حادثة يقتل بها سلطان جالس على العرش، ومرة ثانية سحب المجنون مصطفى من القفص عام ١٦٢٢ لينصب على العرش مجدداً، لكنه هذه المرة أمر بأعدام قوسيم وابنائها كي لا تتكرر المؤامرة عليه، وللمرة الثانية، تدخل خصيان القصر المدعومين من قوسيم وعزلوا السلطان مصطفى ونصبوا ابن قوسيم الاكبر (الامير مراد) تحت اسم (السلطان مراد الرابع) وهكذا حققت (قوسيم) حلمها بأن تصبح (السلطانة الام)، الا ان مراد أصدر قانونا يحرم الكحول والتدخين في كل الامبراطورية وقام بأعدام مخالفيه شنقاً، ، وكان ابن قوسيم الاصغر

(ابراهيم) مختل العقل، لذلك وضعت كل أمالها على بيازيد الانيق الشجاع، البارع في مثاقفة الفرسان، وذات يوم أطاح بمراد في جولة مثاقفه بعد ذلك بفترة وجيزة وبينما كان يشد حمله على بلاد فارس، قتل بيازيد بناء على أوامر من اخية، وبدوره مات السلطان مراد بسبب الافراط بالشراب ومضاجعة الجواري، وعلى فراش الموت اخبر أمه انه من الافضل ان تنتهي هذه العائلة المالكة ولا تستمر بذرة الملك المجنونة ، وأمر بقتل اخاه أبراهيم ألا ان (قوسيم) تدخلت وطلبت من ابراهيم ان يخرج من القفص الذهبي، كان عهد (السلطان ابراهيم) بين (١٦٤٠- ١٦٤٨)، المدة التي تميزت بها (السلطانة قوسيم) بنفوذها المطلق (كسلطانة ام) وكانت الحاكم الفعلي للسلطنة بأسرها بمساعدة الوزير الاكبر حينذاك (مصطفى باشا)، اما (السلطان ابراهيم) الضعيف، الغارق تماما في ملذات الحرملك والذي استنزفه الشبق وبدد طاقاته، لقد كان مهوساً بالنساء وقد شهد عهده غرائب الحرملك، فقد فتش ذات يوم في الحرملك بحثاً عن اكثر أمراة سمنة فيه، فوجد جارية أرمنيه هام بها حبا وجعلها من محظياته المفضلات قبل ان يجعل منها حاكماً على احدى ولايات السلطنة! وفي عهد (السلطان ابراهيم) كان للمحظيات الحق في أن يأخذن ما يشأن من اجمل العقارات في الامبراطورية واثراها، بل انه ولأول مرة في قواعد الحرملك جعل مكانة جواريه المحظيات اعلى من مكانة اخواته (السلطانات الاخوات) وهن الاميرات ذوات الدم السلطاني، الا ان جنون ابراهيم تصاعد بأحدى الليالي وبتأثير من نوبة الجنون والسكر امر بوضع جميع جواريه في أكياس ومن ثم اغراقهن في البحر، ونفذ الامر ولم تنجو سوى جارية واحدة!انتشار حكايات جنون (السلطان ابراهيم) في ارجاء السلطنة، دفع الانكشاريه في نهايه المطاف الى التمرد، فزحفوا الى بوابات القصر مطالبين برأس السلطان، وانتهى الامر بأرجاعه للقفص الذهبي دون قتله وبعد ذلك قتل السلطان المخلوع بأمر من المفتي، وتربع على العرش ابنه الامير محمد ولم يكن قد تجاوز سن السبعة سنوات وبات يعرف بالسلطان محمد الرابع.

وكانت الحاكمة الفعلية للسلطنة هي (السلطانة الام الجديدة) والدة محمد (السلطانة نورهان)، وهنا بدأت المؤامرات بين قوسيم ونورهان، وقد حاولت قوسيم بالتأمر مع الانكشارية تسميم السلطان الطفل، وقتل امه لتأتي بأحد اخوته الايتام الصغار (السهل التلاعب بهم) وتعود للواجهة كسلطانة ام، ونفذت قوسيم المؤامرة بأن رتبت لدخول الانكشارية للقصر لقتل السلطان الصغير الا ان السلطانة نورهان كشفت المؤامرة وتأمرت بدورها مع الوزير الاكبر وخدم القصر (الخصيان) الذين قرروا الامساك بقوسيم وقتلها، وهنا شعرت قوسيم بالخطر فجمعت اثمن مجوهراتها وفرت عبر ممرات وشبكات الحرملك المعقده التي تعرفها اكثر من أي امرأة اخرى بالحرملك، واختبأت بأحد الغرف الصغيرة متأملة وصول الانكشارية لآنقاذها، الا ان الخصيان عثروا عليها وسحلوها ومزقوا ثيابها وقتلها احدهم خنقاً، ولما وصل الانكشارية لإنقاذها، سحب جسدها العاري المدمي للخارج وعرض أمام الانكشارية ليتأكدوا بأنها ماتت ويتوقف التمرد، وقوسيم تمتعت بأطول فترة حكم كسلطانة ام في تاريخ الحرملك دامت نصف قرن تقريبا لكنها كانت فترة مليئة بالمؤامرات والدم، وانتهت نهاية بشعة بموتها المهين رغم كبر سنها حينذاك، وبموت قوسيم اصبحت السلطانة نورهان الحاكمة الفعلية للامبراطورية وبقيت هكذا حتى وفاتها، وبوفاتها وصل عهد حكم النساء للسلطنة نهايته.

ثالثاً: **نخشديل (السلطانة المحدثة):** عندما تزور اليوم قصر الباب العالي (توبي كابي) وتغادره نحو قصر (دولمة باشا) الذي بني في ما بعد في قبطاش على مشارف البسفور، ستكتشف مدى الفرق العمراني وخاصة بالاثاث والمحتويات، ستجد الطراز الفرنسي جلي في دولمة باشا من خلال الثريات الزجاجية وصالات الموسيقى والصاجيات الخشبية والطاولات الكبيرة والارائك الواسعة، تشعروانك بقصر باريسي، وبالحقيقة فباريس حاضرة في ظل التحديثات الفرنسية التي ادخلتها (السلطانة نخشديل) تلك الفتاة الفرنسية

الاصل،التي كانت خلف تحديث الحياة السلطانية العثمانية وادخال الفرنسية كلغة وسلوك وثقافة لقصور ال عثمان، بل وتعدت ذلك من خلف ستار الحرملك لتغيير بنفوذها على السلاطين نحو التعديلات الادارية بالسلطنة على الطراز الفرنسي بل اكثر من ذلك ساهمت بتقريب تاريخي بين السلطنة العثمانية وفرنسا على مستويات العلاقات الدولية والعسكرية.

لقد كانت هي الحاكم الفعلي للسلطنة، وما من سلطانة أكثر أثارة للجدل لدى الباحثين والمهتمين بتاريخ السلطنة العثمانية من السلطانه (نخشديل)، فحياتها يكتنفها الغموض حول قدرتها التي اوصلتها لحكم السلطنة بالكامل وبحياكة مؤامرات الحرملك بالغة الدموية والتي مكنتها من فرضت نفوذها كسلطانة ام وبعمر مبكر جداً، فالسلطانة نخشديل الفاتنه الزرقاء العينين القادمة من المارتينيك، هي (ايمي دي ريفيري) المولودة عام ١٧٦٣م لاسرة فرنسية نبيله ، وهي ابنة عم(جوزفين تاشيه دولاباجيري) زوجة الامبراطور (نابليون بونابرت) ، وقد روت جوزفين يوماً بعد زواجها من نابليون واعلانها امبراطورة، بأنها ذهبت يوماً برفقة ابنة عمها ايمي (السلطانة نخشديل) الى احد قراء الكف في (اليوان رويال)، وقد تنبأ لهن بأنهن سيصبحن ملكات، واحده تحكم الشرق والاخرى تحكم الغرب، وفي العام ١٧٨٤م، ولدى عودة (ايمي) الى المارتينيك، من مدرسة الراهبات في نانتس، اختطفها قراصنة خير الدين برباروس[١] .

وبيعت وهي في الحادية والعشرين من عمرها الى (داي الجزائر) كجارية، وقدمها (الداي) إلى السلطان العثماني (عبد الحميد الاول) هدية لكسب وده، كانت (ايمي) الشقراء فضلاً عن سحر جمالها تتميز بالرزانة والذكاء والثقافة، وبطبيعة الحال فقد اكتسبت هذه الصفات من خلفية اسرتها النبيلة بفرنسا، وعلى الرغم من عنادها الا انها رضخت لإرادة

١ - هو خضر بن يعقوب لقبه السلطان سليم الأول بخير الدين باشا و عرف لدى الأوروبيين (بارباروسا ذو اللحية الحمراء) هو أحد أكبر قادة الأساطيل العثمانية وأحد رموز الجهاد البحري.

السلطان اخيراً ودخلت فراشه كجارية، الا انها لم تغادره الا كسلطانة، لقد هام بها السلطان العجوز واطلق عليها اسم (نخشديل) وتعني (المطرزة القلب) وجعل منها محضيته المفضلة، وبعد ان انجبت له ابناً ارتفعت الى مكانة الزوجه الرابعه (اي احدى اربع نساء انجبن للسلطان صبياناً) لتجد نفسها في داخل تقاطع نيران الحرملك السياسية بين الزوجة الاولى (نوخيت سيزا) والثانية (ميحريما)، اللتان كانتا بصراع فكل منهما تحاول وضع ابنها على العرش بعد موت السلطان العجوز لتنال الام اللقب الحلم (السلطانة الام)، أما نخشديل فقد راقبتهما وتعلمت فن مؤامرات الحرملك وعلى اصوله، الا ان حب السلطان لنخشديل ادخلها حلبة الصراع مرغمة، حين استيقظت صباح احد الايام لتجد ابنها الرضيع مشنوقاً في فراشه الصغير، فالزوجات الاخريات لم يرغبن للمفظلة الحسناء بطفل قد ينافس ابنائهم الامراء مستقبلاً فأمرن خدمهن بشنقه وهو نائم! نخشديل التي خسرت ولدها الصغير قدم لها السلطان عبد الحميد طفلاً صغيراً لتربيه وهو الامير (محمود) وهذا الامير ذو الستة سنوات حينها هو ابن السلطان من زوجته الثالثة وقد قتلت امه بأحدى مؤامرات الحرملك فأرسله ابوه السلطان الى احدى القصور البعيدة كي لا يقتل كما جرى مع امه، وحين فقدت نخشديل ابنها منحها الامير محمود لتكن له اماً بالتبني وسرها سراً بأنه يفضلها ويفضل هذا الابن على من سواهما وسيحميهما من مؤامرات الحرملك.

الا ان الحياة لم تطول بالسلطان الذي توفي عام ١٧٨٩م ، وبعد تصفيات دموية داخل القصر بين امهات الامراء الصغار وابنائهن قفز للعرش الاخ الشاب للسلطان (سليم) الذي اصبح يعرف بالسلطان (سليم الثالث)، وهنا اغوت نخشديل السلطان الشاب ليقع بحبها وينالها محظية وهو مخالفة بالعرف السلطاني فهي تعتبر من جواري اخيه الراحل، الا ان السلطان الشاب سحر بالفرنسية الحسناء خاصة وان فرنسا بعد ثورتها الكبرى عام ١٧٨٩م كانت محط اعجاب جميع مثقفي ذلك الزمان، وبالتالي نجح هذا العشق من ابقاء

نخشديل وابنها (محمود) بحرملك القصر، وهنا مارست الشابة نخشديل اول تأثيراتها السياسية مقنعة السلطان الشاب بأن يرسل وللمرة الاولى سفيراً دائماً للسلطنة بباريس، واطلق (السلطان سليم) صحيفة باللغه الفرنسية، وسمح لنخشديل بتأثيث وزخرفة القصر السلطاني بطراز الروكوكو الفرنسي، وسرعان ما اطلق السلطان (سليم الثالث) حملة اصلاحات فرانكوية الطابع لسلطنته بدفع من نخشديل الا ان هذه الاصلاحات كلفته حياته وقتل سليم عام ١٨٠٧م على ايدي متشددين دينين مهتاجين رفضوا ليبراليته، وتأمروا مع احدى الزوجات الباقيات للسلطان عبد الحميد مقابل ان يمنح ابنها العرش بعد قتل سليم والامير الصغير محمود ونخشديل، وفعلاً نجحت المؤامرة بداية بقتل السلطان، وقد حاول القتله ايضا أن يغتالوا الامير (محمود) لكن (نخشديل) أنقذت ابنها بأن خبأته داخل احد الافران، وقتلت الزوجة المنافسة وابنها الامير الموعود بالعرش، فلما لم يتبقى اي امير يحمل الدم العثماني سوى محمود ابنها، اخرجته للقتلة فأنحنوا امامه معلنيه السلطان (محمود الثاني) ومنذ تلك اللحظة اصبحت نخشديل السلطانة الام الكاملة النفوذ وبقيت على سلطانها حتى وفاتها، وعملت لجعل ابنها السلطان يحقق اصلاحات لها دلالتها بالامبراطورية، وكانت اهم اصلاحاته التي ضمنت ابقاءه بالعرش وبدفع من امه نخشديل قضاءه على (الانكشارية) بمذبحة كبيرة، وهم اشهر فصيل مسلح بتاريخ الامبراطورية اشتهروا بحروبهم وتمرداتهم ومؤامراتهم وبتلاعبهم بالسلاطين، ليحل محلهم نظام العسكرة الحديثة كما الجيوش الاوربية، وبالرغم من أن (نخشديل) قبلت الاسلام كجزء من اداب الحرملك، الا انها بقيت على الدوام محتفظة بمسيحيتها بأعماقها، وعند اقتراب وفاتها بكى قربها السلطان محمود وسئلها عن رغبتها الاخيرة فأرادت أن يصلي عليها احد القساوسه، فلم ينكر عليها ابنها (السلطان) رغبتها هذه، ولأول مرة في تاريخ السلطنة عبر قس كاثوليكي بوابات النعيم ومنها نحو الحرملك وصلى على جسد السلطانة نخشديل قبل ان تفارق الحياة، وبموتها رحلت اخر اشهر

السلطانات اللاتي حكمن وتحكمن بالامبراطورية من خلف حجاب الحرملك[1]، وفي ظل عالم الجواري المملوكات جسداً وروحاً، توهب حياتهن فقط لإشباع رغبات السلطان، أفلا يعتبر سلاطين الدولة العثمانية من أكبر أسياد العبودية في التاريخ .

---

١ - لويس برنارد،استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية،مرجع سابق ،ص ١٢٥

الفصل الثاني

العبودية في عصور الحداثة

الرقيق في عصر الحداثة:

كنا قد بيّنا فى القرون الوسطى كيف كان العبيد فى فرنسا وإيطاليا والجزر البريطانية وأسبانيا القديمة يكلفون بالأعمال الزراعية من حرث وزرع وحصد، لأن الأعمال اليدوية فى نظرهم كانت محتقرة لا يقوم بها الأحرار ، وكان الأرّقاء فى ألمانيا يقدمون إلى سادتهم مقادير معينة من القمح أو الماشية أو الملابس، وكان لكل عبد مأوى يقيم فيه ، ويدبر أحواله كيف يريد، وكان الفرنج من الألمان الذين يقيمون على جانبى نهر الراين الأسفل ، يعاملون الأرّقاء أقسى معاملة ، فإذا تزوج حرّ رقيقة صار رقيقًا مثلها، وإذا تزوجت حرّة رقيقًا أصبحت رقيقة، وفقدت الحرية التى كانت تتمتع بها، وفى لمبارديا كانت الحرة إذا تزوّجت رقيقًا حكم عليهما بالإعدام .



ولدى الأنجلوسكسون من الأمم الجرمانية ، كان الأرقاء قسم للخدمة المنزلية ، لزراعة الأرض وكانت نظرة الأوروبيين إلى العبيد حتى القرن التاسع عشر أنهم دون إرادة فإذا اعتدى زنجى على حر ، أو سرق أى شىء كان القتل جزاءا له، وإذا هرب عوقب بقطع أذنه فى المرة الأولى، وكوى بالحديد المحميِّ فى المرة الثانية ، وقتل فى الثالثة دون أي مسائلة، ولا يجوز لغير البيض كسب العلم والمعرفة، وكان القوط يحكمون على الحرّة التى تتزوج من عبد بالحرق معه، وأولادهم جميعًا يسترقون إن حدث إنجاب قبل قتلهم،

وكان وجود الرقيق أمرًا سببه نشوء النظام الإقطاعى الذى تبلور فى صورته المعروفة بأوروبا فى القرن التاسع بعد الميلاد ، وبلغ ذروته إبان القرون الوسطى، وتحديدًا فى القرن الثالث عشر، وكان الرقيق يمثلون الأغلبية الساحقة من سكان أوروبا باستثناء الملوك والنبلاء ورجال الدين، وقد بدأ نظام الإقطاع بمنح الملوك والأمراء مساحات من الأراضى لمن يدينون لهم بالولاء ، مدى حياتهم ثم أصبح ذلك أمرًا وراثيًا، فأمير الإقطاعية هو الحاكم المطلق فى إقطاعيته، فضلا عن خضوع المقيمين في ظل ملكيته الخاصة بشكل مطلق لنفوذه، ومن آثار ذلك الضرائب النقدية ونسبة من محصوله وماشيته، والعمل سخرة في معظم أيام السنة، والقتال إلى جانبه في الحرب[1]، ويفتدى سيده إذا أُسر ، وكذلك ضريبة على كل سلعة يبيعها فى السوق، وغرامة إذا أرسل ابنه ليتعلم ، وضريبة مع إذن المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من خارج الضيعة، وحق الليلة الأولى وهى أن يقضى السيد مع عروس رقيقه الليلة الأولى.

وكان يسمح له أحيانًا أن يفتديها بأجر، وقد بقى هذا فى بافاريا إلى القرن الثامن عشر، والمالك هو الذى يرث كل ممتلكات الرقيق إذا مات، وضريبة سنوية باهظة يدفعها الرقيق للكنيسة ، وأخرى يدفعها للقائد الذى يتولى الدفاع عن المقاطعة، ومنذ العبور العظيم لكولومبوس للمحيط عام ١٤٩٢ كان الأوروبيون يستوطنون في ما أسموه العالم الجديد على حساب السكان الأصليين، بدأ البرتغاليون هذا من خلال إقامة مزارع للسكر في البرازيل وتشغيلها من قبل العبيد الذين تم إحضارهم من إفريقيا، وقد تبنت كل القوى الاستعمارية الأوروبية هذه السياسة حيث نقلوا معاً في غضون مائتي عام ملايين العبيد عبرالمحيط الأطلسي، وقد بدأت تجارة العبيد الهولندية عام ١٦٢١ بتأسيس شركة الهند الغربية الهولندية (WIC)، فأُرسلت سفن الشركة لشنّ الحرب على الأسطول الإسباني-البرتغالي، وعام ١٦٢٨ استولى الأدميرال بيت هين على الأسطول الفضي الإسباني

١ - د. عبد الرحيم مولا، الرقيق في العصور الوسطى، ص ٧٦، دار الجامعة اللبنانية للطباعة والتوزيع ٢٠٠٣م.

وعام ١٦٣٨ خسر البرتغاليون حصن سانت جورج ديل مينا ، بغانا الحالية لصالح شركة الهند الغربية الهولندية، بالإضافة إلى إحتلال أجزاء من البرازيل عام ١٦٢٤م، وفي عام ١٦٦٥م تمّ الاعتراف بحقوق هولندا على (الوايلد كوست) والتي تشمل سورينام وبيربايس وايسكويبو، وديمراري وجزرالأنتيل بأوروبا وبونير وكوراكاو ، وسانت مارتين، وسانت اوستاتيوس وسابا، وأصبح الهولنديون قوة إستعمارية في المنطقة الأطلسية وذات يد طولى في تجارة العبيد، فاحتكرت شركة الهند الغربية الهولندية تجارة العبيد حتى عام ١٧٣٠م، حيث توسعت شركة كوميرشال ميدلبورغ في نفس الفترة لتصبح أكبر شركة هولندية لتجارة العبيد في مزادات روتردام وأمستردام، وقد وصلت تجارة العبيد الهولندية ذروتها حوالي عام ١٧٧٠ ناقلة حوالي ستة آلاف عبد كل سنة، حيث تزايدت هذه الأعداد بسرعة في السنوات التالية[١].

وعمل العبيد الأفارقة، في مزارع السكر والقهوة و الكاكاو والقطن والتبغ، وعملوا في برك الملح في كيوراسو أو خدموا أسيادهم، ولم يتقبل كل العبيد قدرهم، وخصوصاً في سورينام وفرّ العديد منهم و استقروا في الأدغال و بنوا مجتمعاتهم الخاصة بجانب مجتمعات الهنود، وتمّ وصف هؤلاء العبيد الفارين بعبيد (النيغروز)، إضافة إلى قيام ثورات عبيد متواصلة صغيرة و كبيرة في المزارع والمدن، وقامت ثورة للعبيد عام ١٧٩٥ في كيوراسو بقيادة (تولا) الذي طالب بالحرية مستمداً إلهامه من أهداف الثورة الفرنسية و نجاح ثورة العبيد في سانت دومينك (هايتي)، وقد دفع تولا حياته ثمناً لحريته.

١ - د. عبد الرحيم مولا، الرقيق في العصور الوسطى، مرجع سابق ص ٨٣.

الرقيق في ظل

الإمبراطورية البريطانية

شهد المجتمع البريطاني إسترقاق السود من ذوي الأصل الإفريقي منذ الحكم الروماني الذي استمر خمسة قرون حتى عام ٤٥٠ بعد الميلاد، إلا أنه حضور بقى محدودًا جدًا حتى منتصف القرن السابع عشر، ومع اتساع حركة التجارة بشكل عام عبر المحيط الاطلنطي في عهد الملكة اليزابيث الأولى، نشطت تجارة العبيد بشكل منظم ومكثف، وخصوصاً بعد إنشاء شركة الهند البريطانية، والتي فتحت أبواب جحيم العبودية العالمية على كافة من وقعوا تحت نير الإستعمار البريطاني[١].



حيث تم جلب الأفارقة السود إلى شواطئ هذه البلاد، بعضهم جاء كخدم لملاك المزارع في الهند الغربية، ممن قرروا أن يستقروا مرة أخرى في البلاد مستمتعين بالثروة التي جمعوها، أو خدمًا لمسئولي البعثات الرسمية وقادة البحارة الذين عادوا من مهام أعمالهم خارج البلاد، أما بقية السود فحضروا في الجزر البريطانية كعبيد يتم إعادة شحنهم إلى الأمريكتين ليعملوا في مزارع السكر والقطن والتبغ من دون مقابل، وبمنتصف القرن الثامن عشر كانت هناك نسبة قليلة من السود الأحرار وهم الذين عملوا في بعض المهن اليدوية، التي كان ينظر إليها باحتقار، إذ ارتبط اللون الأسود بمستوى أقل من البشرية يقارب مستوى الحيوانات، وهي الفلسفة، التي اعتنقها حتى من كان متدينًا مسيحيًا، من

---

١ - الشركة التي غيرت العالم، كيف بنت شركة الهند الشرقية المؤسسات عابر القارات، تأليف: نك روبينز، ترجمة كمال المصري، ص ٥٩، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة: ٢٠٠٩م.

ربان سفن وتجار، سواء في أمريكا أو أوربا، وقد انطلقت هذه النظرة العنصرية من الغرب عندما نظر إلى ذوي البشرة السوداء إلى أنهم يفتقدون الذكاء والقدرة على التفكير والتحليل، بل إن بعض المفكرين في القرن التاسع عشر، اعتبر أن السود خلقوا ليكونوا عبيدًا، ومن هؤلاء، للغرابة، الفيلسوف (إيمانويل كانت)، صاحب مشروع التنوير العقلاني، والفيلسوف الألماني جورج فريدريك هيجل في مقدمة كتابه (فلسفة التاريخ)، كذلك الأمر بالنسبة إلى المفكر الفرنسي فولتير والفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم اللذين اعتبرا أن السود غير تامين خلقياً!

يحفل التاريخ بسجلات وشواهد عديدة عن مدى ضلوع بريطانيا في تجارة الرقيق، وعن العائلات البريطانية التي أثرت بحصولها على تعويضات تقدر بمليارات الدولارات بأسعار اليوم من تلك التجارة بعد إلغائها في القرن التاسع عشر، وتتضمن تلك السجلات التي لم يسبق الاطلاع عليها من قبل، أسماء الذين حصلوا على تعويضات من الحكومة البريطانية آنذاك عقب إلغاء تلك التجارة، الأمر الذي من شأنه أن يسبب إحراجاً لأسلافهم، وقد جمع خُمس الأثرياء البريطانيين في عصر الملكة فيكتوريا التي حكمت بريطانيا بين عامي ١٨٣٧ و١٩٠١، معظم ثرواتهم من تجارة الرقيق، وثمة عائلات ثرية في كل أنحاء بريطانيا ما فتئت حتى اليوم تستمتع من عائدات تلك التجارة التي آلت إليهم، وقضى أكاديميون من جامعة كولدج لندن ، ثلاث سنوات في دراسة ٤٦ ألف وثيقة بالتعويضات التي دُفعت لُملاك العبيد من البريطانيين وإنزالها في قاعدة بيانات على الإنترنت لنشرها للجمهور.ومن بين الشخصيات التي أُميط اللثام عن استفادتها من تجارة الرقيق، رئيس وزراء البريطاني ديفد كاميرون ووزير الزراعة دوغلاس هوغ والروائي جورج أورويل والشاعرة إليزابيث براونينغ ، وكذلك أحفاد آل بارينغ وهي أقدم العائلات المصرفية في بريطانيا، وهنري لاسيليز أحد نبلاء منطقة هاروود بإنجلترا[1].

١ - الشركة التي غيرت العالم، مرجع سابق ص ٦٢.

وقد دفعت الحكومة البريطانية تعويضات مالية ضخمة لنحو ثلاثة آلاف عائلة كانت تمتلك عبيداً تعويضا لها على فقدانها تلك الأملاك بعد إلغاء الرق في المستعمرات البريطانية عام ١٨٣٣م ، حيث قامت بعض العائلات باستثمار أموال التعويضات في مشاريع سكك الحديد ومجالات أخرى إبان الثورة الصناعية التي تميز بها العصر الفيكتوري، وطبقا للوثائق التي كُشف النقاب عنها، فإن عائلة ديفد كاميرون من جهة والده كانت تملك هي الأخرى عبيداً، وتشير سجلات التعويضات أن السير جيمس داف -الذي كان جنرالا بالجيش أواخر القرن الثامن عشر- هو ابن عم لجد كاميرون الأكبر، فقد حصل هذا الرجل على ٤١٠١ جنيه إسترليني، وهو مبلغ يعادل اليوم نحو ٢,٨ مليون جنيه (٤,٢ ملايين دولار)، تعويضا على فقدانه ٢٠٢ من العبيد كان يملكهم في مزرعة للسكر بجمايكا، وتجدر الإشارة إلى أن تجارة الرقيق كانت مصدرا رئيسيا للثروة في الإمبراطورية البريطانية، حيث كان العبيد يُسخَّرون للعمل في تجارة السكر بجزر الهند الغربية وزراعة القطن في شمال أفريقيا، ونقلت السفن البريطانية بين ١٨٠٠ و١٨١٠ نحو ثلاثة ملايين عبد عاشوا بعدها حياة السُخرة.

الرقيق في

الولايات المتحدة الأمريكية

نالت شعوب أمريكا الأصلية (الهنود الحمر) النصيب الأوفرمن سعيرالإبادة والاستعباد فقدكان اكتشاف الأمريكتين بالتزامن مع الثورة الصناعية كارثة كبرى حلت بعشرات الملايين من سكان أمريكا الأصليين، فقد وجدت طلائع المستكشفين البيض التى وصلت أمريكا مساحات هائلة من أخصب أراضى العالم بحاجة إلى عشرات الملايين من الأيدى العاملة التى تعذَّر عليهم توفيرها من أوروبا ، ولذلك حاول الغزاة السيطرة على سكان أمريكا الأصليين ،لكنهم فشلوا فى استعبادهم، فلم يتورعوا عن القضاء عليهم!!



وهكذا وقعت واحدة من أبشع جرائم الإبادة الجماعية فى التاريخ، ويقدر أعداد السكان الأصليين الذين أبادهم الغزاة الأوروبيون ملايين الهنود الحمر، ولم يتورع السادة البيض الذين أسسوا الولايات المتحدة الأمريكية عن استخدام أحط الوسائل وأخس السُبل للقضاء على الهنود الحمر ، ومنها تسميم آبار المياه التي يشرب منها السكان الأصليون ، ويحاول المؤرخون الأمريكيون التقليل من أعداد الضحايا زاعمين أنهم حوالى مليونين فقط ، وفى إحصاء عام ١٩٠٠م قللوا الرقم إلى مليون!! وكأن إبادة مليون روح أمرهَيِّن! وتجدر الإشارة إلى القانون الأمريكى والذى بقي سارى المفعول حتى عام ١٨٦٥م ، كان ينص على حق الأمريكى الأبيض فى الحصول على مكافأة مالية مجزية إذا قدم لأى مخفر شرطة بالولايات المتحدة (فروة رأس هندى أحمر)!! ، هذه هى الكيفية التى تأسست بها الولايات المتحدة الأمريكية التى تتباهى اليوم بالحريات

وحقوق الإنسان في حين أن ٨٠ بالمائة من هنود ولاية كاليفورنيا الأمريكية أبيدوا خلال عشرين عاماً فقط ، وهلك الباقون بسبب العمل الشاق حتى الموت بالسُخْرة فى سبيل رفاهية السادة البيض، وكان اكتشاف مناجم الذهب والمزارع الشاسعة فى كولورادو وغيرها من ولايات الذهب وبالاً على الهنود المساكين ، إذ دفعت رغبة البيض فى الحصول على أيدى عاملة رخيصة إلى تنشيط أخس وأقذر تجارة فى التاريخ بأمريكا، وهى خطف الأطفال والشباب لاستعبادهم !.



وهكذا نشطت تجارة خطف أطفال الهنود من مختلف مناطق أمريكا، وكانت صحف تلك الفترة تمتلىء بصور الشاحنات المكتظة بأطفال الهنود الحمر المتجهة عبر الطرقات الريفية إلى أسواق العبيد فى سكرامانتو و (سان فرانسيسكو) ليتم بيعهم إلى أصحاب المناجم والمزارع ، ومع نهاية القتال فى سنوات الاحتلال الأولى ، زاد الإقبال على خطف الفتيات بصفة خاصة فَهُن يقدمن خدمة مضاعفة للسادة البيض العمل الشاق نهاراً ، والمتعة الجنسية ليلاً، وأما الآباء الهنود المساكين فإن الغضب والأسى ، الناجم عن خطف واغتصاب واستعباد أبناءهم ، كان معناه أنهم فى نظر الأسياد البيض عناصر شغب تستحق الإعدام فوراً وبلا محاكمة(١)،وبذلك تحول الخاطفون إلى (أبطال وطنيين أمريكيين) يساهمون فى التخلص من(الهمج الهنود) الذين يشكلون خطراً داهماً على أمن الدولة الأمريكية الناشئة[1].

١ - مايكل براون، الذاكرة الأمريكية ، ص ١٣٦ ،(غير مترجم) ثيودور ودوغلاس ، ناشرون وموزعون، تورنتو- كندا ١٩٩٨م، الترقيم الدولي (٢٠٠٢-٩٢٩٧ PMC ١٣٧٧٦٥٦- ISBN)

وهذه القرصنة وجدت من يضفى عليها الشرعية القانونية التامة عبر قانون أصدره برلمان ولاية كاليفورنيا فى أول جلسة تشريعية له فى عام ١٨٥٠م ، وأصبح خطف الهنود الحمر واستعبادهم بموجب ذلك التشريع عملاً قانونياً يستحق فاعله الثناء والتكريم، وبموجب تعديلات أضيفت عام ١٨٦٠م تم إجبار عشرة ملايين هندى أحمر على قيام بأعمال السخرة حتى الموت١.

ولم تمض سنوات على هذا التشريع الإجرامى حتى أباد السادة البيض ملايين الهنود الحمر ، وأُبيدت معهم شعوب المايا والأزتيك ، ومن أكثر المشاهد اثارة للسخرية في الولايات المتحدة الأمريكية هو تمثال الحرية بميناء نيويورك خارج جزيرة مانهاتن والذي أقيم على جثث شعوب أمريكا الأصليين، كان هذا التمثال لعقود من الزمن أول مايراه عبيد أفريقيا المستوردين قسراً للعمل الشاق حتى الموت في مزارع وحقول الحلم الأمريكى، وإنها لمفارقة كبرى أن يُقام تمثال الحرية على جثث وجماجم عشرات الملايين من البشر الذين تمت إبادتهم جماعياً بشكل لم يحدث مثله لحيوانات الغابات، والتي تدافع عنها الآن جمعيات الرفق بالحيوان ، أما إبادة مائة مليون هندى أحمر فهو أمر مؤسف فقط – على حد زعمهم– ولكنه كان (ضروريًا) لأمن البلاد بل كان (جورج واشنطن) نفسه يملك مئات العبيد والجواريفى مزرعته الخاصة[٢] ، ولم يحرر منهم واحداً قط.

طرق إصطياد وإبادة الهنود الحمر:

كان الغزاة البيض يشعلون النار حول أكواخ الهنود الحمر ، فإذا خرج الهنود فارين بحياتهم من خطر الإحتراق ، يكون رصاص البنادق فى انتظار الرجال منهم ، بينما الأطفال والنساء يستحيلون عبيداً ، ويحفل التاريخ بقصص جرائم الإبادة بحق الهنود الحمر والتي شملت الأطفال قبل الكبار ومشاهد ذبحهم كالحيوانات ، والقليل جداً من

١ - مايكل براون، الذاكرة الأمريكية ، مرجع سابق، ص ١٤٢.

٢ - إسطورة العبودية، كاثرين بوستمان، ص ٨٢، مطبعة جامعة بنسيلفانيا، ١٩٩٩م، الترقيم الدولي (ISBN ٩٧٨-٠-٢٦٤١-٧).

الهنود كان يمكنه الهرب ، ولكن بعد أن يفقد يداً أو قدماً أو إصابة بالغة ، أو مضروباً بآله حادة أو مشوهاً بشكل دائم .

لقد تم نقل أعداد هائلة من العبيد الهنود إلى جزر الهند الغربية للعمل بالمزارع الشاسعة هناك أو لبيعهم لتجار آخرين، كما شُحن مئات الألوف منهم شمالاً إلى مدينة نيويورك حيث مقر الأمم المتحدة الآن ، وكان المؤرخ (لاس كاساس) الذى فضح جرائم الأسبان فى أمريكا الجنوبية بكتابه الشهير (تدمير الهنود الحمر) قد أثار القضية أمام المحاكم الأسبانية، فلجأت الحكومة هناك إلى تهدئة الرأى العام الثائر بإصدار قانون يمنع استعباد الهنود بشكل شخصى[1]، لكن ذلك القانون لم يشق طريق إلى التطبيق الواقعى أبداً فى الأمريكتين، وانتشر فى كل أمريكا الجنوبية نظام يسيطر المالك الأبيض بموجبه على قطعة أرض بما فيها الهنود المقيمين عليها.

تجارة العبيد في أمريكا :

مابين اعوام ١٥٠٠ -١٨٧٠ وصل الى امريكا حوالي ١٢ مليون عبد افريقي، عندما وصلت تجارة العبيد الى حدها الاقصى في القرن ١٧ كان يجري تصدير اكثر من ٧٠ الف عبد سنويا عبر الاطلسي، المستورد الاكبر كانت البرازيل والتي استوردت اربعة ملايين٢، للمستعمرات الاسبانية من فلوريدا وكاليفورنيا الى شمال الارجنتين ،والمستعمرات الفرنسية استوردت ١،٦ مليون عبد والمستعمرات البريطانية مليونين في حيتن استوردت المستعمرات الهولندية نصف مليون عبد، وبالعديد من جزر الكاريبي شكل العبيد ٩٠ بالمائة من عدد سكان الجزيرة[1]، وكانت المراكب التي نقل العبيد تقسم الى فئتين، الفئة التي تحمل عدد تسمح للعبيد بحرية الحركة، والفئة التي تحمل اعداد لاتسمح لهم بالحركة على الاطلاق ، النوع الاول انطلاقا من الاعتقاد ان اعطاء العبيد مساحة من الحركة يسمح بتفادي نشوء الامراض وتقلل الموت.

---

١ - مايكل براون، الذاكرة الأمريكية ، مرجع سابق، ص ١٤٨.

٢ - البوابة الأفريقية،هنري ماكين، ص٦١، مطبعة جامعة شيكاجو، ٢٠٠٢م، ترقيم (٥٢٩-٠-١٦٤٨١-٩ISBN)

في حين ان الثانية تنطلق من انه لافائدة من اعطاءهم الحركة لان قسم منهم سيموت على كل حال والافضل تحميل اكبر عدد ممكن لضمان وصول كمية كافية من العبيد، والسفن كانت تبحر بأكبر قدر ممكن من العبيد، مكدسين كالبضائع فوق بعضهم البض ، الأمر الذي كان يساهم في إنتشار الأمراض بينهم بسرعة رهيبة، ناهيك عن معاناتهم اليومية طوال مسافة الرحلة، وعلى مثل هذه المراكب يكون العبيد ، عادة، مربوطين بالسلاسل من رقابهم ومن اقدامهم، وفي مراكب اخرى كان يجرى زيادة العدد من خلال وضع عبد بين اقدام عبد اخر، بهذه الطريقة تتمكن سفينة من نمط السفينة اعلاه من نقل ضعف عدد العبيد.

تحريم تجارة الرقيق :

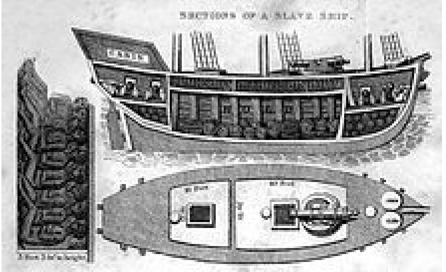
عام ١٨٠٨ قامت بريطانيا بتحريم تجارة العبيد، ومن اجل تفعيل هذا التحريم كانت البواخر البريطانية والامريكية تقوم بالدوريات على طول الساحل الافريقي الغربي، جميع البواخر التي يُعثر عليها تنقل العبيد كان يجري ايقافها وتصادر حمولتها، وعلى الرغم ذلك استمرت تجارة العبيد المربحة لفترة اخرى، وقد تم تصدير مليونين عبد عام ١٨١٠، في حين ان ٢٠٠ الف فقط جرى انقاذهم ، وأعادتهم لبلادهم.

كان بصحبة إحدى الدوريات البريطانية القس الايرلندي (Robert Walsh)[1] ، صاحب كتاب (مشاهد من البرازيل ١٨٢٩م) حيث كشف العديد من الحقائق عن تجارة العبيد، حيث يذكر بأنه : (في يوم ٢٢ ماي من عام ١٨٢٩ لاحظ احد مراكب الدورية البريطانية مركبا مشتبه به خارج السواحل الافريقية، بفضل الرياح المواتية تمكنت المركبة البريطانية من اللحاق به في اليوم التالي واطلقت طلقتين في اتجاهه، فتوقفت المركبة، ثم

1 - Notices of Brazil in 1828 (London 1830; Boston: Richardson, Lord & Holbrook 1831

قام الجنود البريطانيين وضباطهم الى جانب الكاهن الايرلندي بالصود لظهر الباخرة، وعندما صعدنا على ظهر المركب اكتشفنا ان الباخرة ممتلئة بالعبيد، الباخرة اسمها فيلوز Feloz، وكانت الباخرة متوجهة الى باهيا في البرازيل، الباخرة تملك سطحا عريضا وسارية رئيسية، خلف السارية الامامية كان يوجد مدفع ضخم للغاية وقابل للاستدارة، سمح للباخرة ان تتحول باخرة قرصنة، على ظهر الباخرة كان يوجد ٣٣٦ رجل و٢٢٦ امرأة، اي المجموع ٥٦٢ عبد، جرى جلبهم من الساحل الافريقي واصبح لهم على ظهر الباخرة ١٧ يوما، جميع العبيد كانوا مسجونين بزنزانات مسيجة بالحديد جيدا، كانت الزنزانات مزدحمة الى درجة انهم كانوا مضطرين للجلوس في احضان بعضهم، ولم يكن هناك مكان للاستلقاء او لتغيير الجلسة، ولكون العبيد يعودون الى ملاكين مختلفين جرى وشمهم بالنار مثل الغنم، بعلامات مختلفة، على كتفهم او تحت الثدي، وكما وضح لنا قبطان السفينة، جرى وشمهم بالحديد الحامي، وعلى ظهر الباخرة يقف شخص بوجه متجهم وفي يده سوطا من الجلد، وعندما يسمع اي صوت صادرعن العبيد في الاسفل يلسعهم بالسوط على الفور، مستمتعا بالنتائج، كنت سعيدا ان انزع من يده السوط الذي لازلت احتفظ به ذكرى على هذه الاحداث الوحشية التي لاتنتسى ثم يكمل: إن اكثر ماآثار حزني ان ارى هذه الكمية من الناس والتي تم حشرها بغرف لايزيد ارتفاعها عن متر، والقسم الاكبر منه لايرى النور او الهواء النظيف، في نفس الوقت يشير ميزان الحرارة الى ٣١,٦ درجة مئوية في الظل، ومكان العبيد كان منقسم الى قسمين الاول مساحته ٤,٩ *٥,٥ متر مربع والثاني ١٢,٢*٦,٤ متر مربع، في الاول كان النساء والفتيات محشورات فيه في حين ان الثاني للرجال والغلمان، وجدنا ايضا سلاسل للايدي والاقدام ولكن يبدو انهم فكوا اقفالهم قبل صعودنا على سطح السفينة، الروائح الكريهة المتصاعدة من المكان جعلت ليس بالامكان النزول لتفقد المكان، حتى لو كان هناك مساحة تسمح لنا بالنزول، نحن قمنا بقياس مساحة الامكنة بعد ان غادر العبيد

المكان، الضباط اصروا على ان يجري السماح للمساكين بالخروج الى ظهر السفينة بحيث يتمكنوا من استنشاق الهواء وشرب الماء.



غير ان معاوني تجار الرقيق عارضوا ذلك بقوة وقالوا انهم لايستحقوق غير الموت، وتم تمكين الافارقة من الخروج الى السطح، ٥٦٢ من كلا الجنسين والصغار والكبار وجميعهم عرايا تماما اصبحوا يملؤون سطح السفينة، كان من المستحيل فهم كيف امكن لكل هذه الجموع ان تجد لها مكانا في معتقلها السابق، وعندما قمنا بتفحص القاعات التي كانوا فيها عثرنا على اطفال في نهاية القاعات، على حافة فقدان الوعي او فاقديه وغالبيتهم لم يعد لديهم اهتمام فيما إذا كانوا على قيد الحياة ام لا، وعند نقلهم للاعلى، الكثير منهم لم يكن في استطاعتهم الوقوف على الاقدام، وبعد تمتعهم بالهواء النظيف جرى عرض الماء عليهم، عند ذلك ظهر لنا الوضع المأساوي الذي يعانون منه، الافارقة انقضوا على الماء بجنون ولم تستطع توسلاتنا ان توقفهم، بدؤا في العراك والصراخ في الصراع من اجل قطرة ماء واصبحوا كالمجانين، ولم يكن امرا مثيرا للاستغراب ان نعلم بوجود الامراض وحالات الموت، السفينة غادرت افريقيا بتاريخ ٧ مايس وقضت من رحلتها ١٧ يوما، خلال هذه الايام القوا في البحر ٥٥ جثة لاشخاص ماتوا بالديسنتريا وامراض اخرى، عند مغادرة افريقيا كان الجميع اصحاء، والكثير ممن كان على السطح استلقوا في انتظار الموت[١].
وللعدالة يمكن القول انه حتى البحارة اصيبوا بالامراض وتسعة منهم ماتوا ، وعندما عبرت عن استيائي من هذا الواقع اشار اصدقائي، الذين شاركوا فترة طويلة في الدوريات على طول الساحل الافريقي، الى ان الوضع في هذه السفينة هو من افضل الاوضاع، وفي إحدى الدوريات تم إيقاف سفينة بنهر بوني Bonny، (شرق افريقيا) ،

١ - روبيرت والتش ،(تاريخ المدن)، صحيفة التايمز الإيرلندية ص٦ ، ٣ / نوفمبر/ ١٩٣٤م.

في تلك الباخرة كان العبيد مربوطين في السلاسل صفوفا وموضوعين في مساحة ضيقة، كان ينطلق عنهم اصوات مريعة ولا احد كان يفهم الاسباب وراء هذه الاصوات الغريبة، بعد ذلك جرى رفع الغطاء من فتحة السقف ليظهر انهم كانوا مربوطين بالسلاسل في مجموعات كل مجموعة من ثلاثة اشخاص، الكثير منهم كانوا على وشك الاختناق وبعضهم كان الزبد يحيط بفمه ، ومن الثلاثة كان واحد منهم ميت والثاني يعاني سكرات الموت، الاصوات كانت من الشخص الذي يجد صعوبة بالتنفس وعلى شفا الاختناق، وكان العديدون يستغلون اول فرصة سانحة ليقفزوا الى البحر وينهوا عذابهم[١].

سبب إزدهار تجارة الرقيق في الولايات المتحدة الأمريكية:

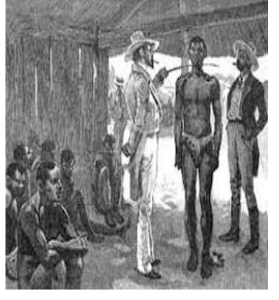
بعد قيام المستوطنين الأمريكيين الأوائل بإبادة معظم الهنود الحمر ، ظهرت لديهم معضلة الأيدي العاملة الرخيصة أمام تلك الأراضي الشاسعة والقابلة للزراعة فى القارة الجديدة، وكان الحل بجلب شعوب غرب جنوب أفريقيا ،فتوجهت لذلك آلاف السفن الأوروبية المحملة بالجنود المسلحين نحو الساحل الغربى للقارة السوداء حاملة الموت والاستعباد والإذلال مدى الحياة ، شاركت في تلك المجاز التاريخية جيوش كل من إنجلترا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا وفرنسا وهولندا وأسبانيا [٢]، ذات التسليح المتفوق على السيوف والحراب الأفريقية ، ولم تجد تلك الجيوش الغازية أية صعوبات تذكر، للسيطرة على الساحل الغربى لأفريقيا المطل على المحيط الأطلنطى، وخلال خمسين عاماً فقط تم خطف وترحيل ما بين ١٥ إلى ٤٠ مليوناً من الأفارقة حيث تم بيعهم كعبيد فى أسواق أمريكا وأوروبا، وتجدر الإشارة إلى أنه كان من بين كل عشرة أفارقة كان يتم أسر واحد فقط واستعباده ،بينما يلقى التسعة الآخرون مصرعهم إما رمياً بالرصاص، وإما جوعاً

---

١ - روبيرت والتش ،(تاريخ المدن)، مرجع سابق ص ٦.

٢ - البوابة الأفريقية،هنري ماكين، مرجع سابق ص٦٨.

وعطشاً أومرضاً أو إنتحارًا، وكثيراً ما كان البحارة يقتلون المئات من الضحايا ويلقون بجثثهم فى البحر.



وعلى ذلك فإن ما لا يقل عن مائة مليون أفريقى قد لقوا حتفهم فى ٥٠ عاماً فقط خلال عمليات اصطيادهم من القارة المنكوبة، فأي حضارة تلك التي أنشأها الغرب والولايات المتحدة على أجساد المعذبين في الأرض، والواقع المعاصر اليوم يثبت دور تلك الدول بتفتيت العالم وفساده، ويكفى أن نذكر بأن عدد القتلى فى دولة واحدة هى الكونجو بلغ عشرة ملايين إفريقى فى عهد الطاغية الملك (ليوبولد) الذى دمر شعباً بأكمله، وعرقل مسيرة تطور الكونجو لمئات السنين لجشعه وإجرامه، يذكر آدم هوتشيلد بكتابه (شبح الملك ليوبولد)١، أن هذا الطاغية قتل كل هؤلاء خلال ٢٣ عاماً فقط حكم خلالها الكونجو التى كان يدعيها ملكاً شخصياً له بكل ما عليها من بشر وثروات، وقد كان البلجيكيين مثل (ليوبولد) بالكونجو، والفرنسيون فى مناطق أخرى ، والبرتغاليون فى أنجولا ، والألمان في الكاميرون وناميبا ، وإنجلترا التي لاتغيب عنها الشمس، سنوا نظام السخرة لنهب كنوز أفريقيا ، كما نهبوا حضاراتها وأبادوا شعوبها ، وعطلوا مسيرة تقدمها لمئات السنين، ولم يتركوا فيها سوى الموت والدمار والفقر والجهل والبؤس، الذي تتجلى صوره حتى يومنا الحالي.

السماء لا تمطر حظاً ولكن الأرض تلد الأقوياء :

كي تكون محظوظاً يجب أن تكون قوياً، فقد يحالف الحظ الضعيف مرة ولكنه غالباً مايحالف القوي أكثر، ويبدوا أن مأساة العبيد تاريخياً في أفريقيا وغيرها، ليس لقلة الحظ دور في حدوثها، ولكن كان للضعف حتماً الدور الرئيسي فيها، وفي الفظائع التى ارتكبها

١ - البوابة الأفريقية،هنري ماكين، مرجع سابق ص٧٤.

أسياد العبودية بحقهم، فقد كان الشنق وتعليق الجثث على الأشجار، وقطع الأيدى والأقدام والأذن والعضو الذكرى أمراً شائعاً مارسه أسياد العبودية على اختلاف دولهم وهوياتهم، وكان من المألوف أيضاً الإجبار على العمل المتواصل تحت الشمس الحارقة بلا ماء أو طعام كاف، والربط بالسلاسل الحديدية ، وحرق قرى بأكملها عقاباً على أية بادرة للتحرر، وكان هناك نوع من الكرابيج يصنعه الجلادون خصيصاً من جلد الخرتيت بعد أن يتم تجفيفه وتقطيعه بطريقة تترك أطرافه حادة وقاطعة[١] .

حيث تكون عشرين جلدة بهذه الكرابيج كانت كافية ليفقد العبد الوعى تماماً ، فإذا ارتفع عدد الضربات إلى مائة جلدة بتلك الكرابيج الشيطانية فإن المجلود يلقى حتفه فوراً، وإذا كان أعوان ليوبولد يستخدمونها ضد التعساء بالكونجو، فقد كان الفرنسيون يستخدمونها بضراوة أشد فى (برازافيل)، ولم تكن ألمانيا بعيدة عن ذلك ، فقد أباد الألمان شعباً بأكمله هو قبائل (الهيريرو) فيما يعرف الآن بـناميبيا.

وتكفى قراءة فقرة واحدة من تعليمات الجنود الألمان عام ١٩٠٤م لإدراك هول ما حدث ووحشية المحتلين: (كل هيريرو – أفريقى- يوجد يجب أن يُقتل سواء كان يحمل سلاحاً أم لا وسواء كانت لديه ماشية أم لا، ولا يجوز إعتقال أى رجل ، يجب فقط أن يُقتل)[٢] ، وقد كانت البرتغال كذلك من أشد دول أوروبا تورطاً بالرق .

---

١ - تعتمد الدراسات التقليدية على الوثائق الرسمية الفرنسية وكذلك وثائق دائرة المعارف البريطانية عن كيفية وصول العديد من الأفارقة إلى العالم الجديد، وهي لم تشمل الوفيات نتيجة الإهمال على ظهر السفن والغارات، والوفيات الناجمة عن الأمراض الأوروبية، كما أهملت تعدادات القادمين حجم الأفارقة الذين وصلوا عن طريق القراصنة.

٢ - تجارة الرقيق عبر الأنطلنطي، هربرت كلاين، ص١٠٣، مطبعة جامعة كامبردج ١٩٩٩م .

وينقل عن القسيس البرتغالى فرناندو دى أليفيرا في كتابه (فن الحرب فى البحر) تتبع فيه كيف كان تُجار الرقيق من البرتغاليين بقيادة صديقه القس (لاس كاساس) أكبر النَخّاسين فى عصره ،يقومون بترحيل مئات الألوف من العبيد الأفارقة عبر المحيط الأطلنطى بعد خطفهم وانتزاعهم من أسرهم وتقييدهم بالسلاسل، حيث كان يصاحب كل سـفينة قسيس يقوم بتنصير العبيد مقابل مبلغ مالى يتقاضاه عن كل رأس، وحققت الكنائس الأوروبية ثروات هائلة من تلك الرسوم التى تتقاضاها من النَخَّاسين ، وشاركت هولندا أيضاً فى تجارة العبيد ، حيث طافت مئات من السفن الهولندية موانئ أفريقيا الغربية منذ القرن السادس عشر لنقل ملايين من العبيد إلى أوروبا وأمريكا، بل كانت جزيرة (جورى) التى يجمعون فيها العبيد تمهيداً لنقلهم عبر الأطلنطى تحت سيطرة الهولنديين الى أن باعوها للإنجليز عام ١٨٧٢م ، وكانت بعثات التنصير الهولندية متورطة فى تجارة الرقيق ، ويبدو أنهم اكتشفوا أن خطف واصطياد الأفارقة المساكين واستعبادهم يدر من الأرباح أضعاف العمل على تغيير عقائدهم باسم ربهم المزعوم.



كسر حاجز الصمت !! (تجارة الرقيق عبر الأطلسي) : يأتي المشروع التعليمي المعنون (كسر حاجز الصمت- تجارة الرقيق عبر الأطلسي) ليربط بين الجهات المعنية بتجارة الرقيق عبر الأطلسي (افريقيا، والأمريكتان وأوروبا)، ويهدف هذا المشروع إلى زيادة التوعية بأسباب وعواقب تجارة الرقيق عبر الأطلسي، بما في ذلك الأشكال الجديدة للرق والعنصرية، وذلك من خلال المبادلات التعليمية، وتشاطر أفضل الممارسات وتصميم ونشر المواد التعليمية، كان من شأن هذا المشروع، الذي مولته النرويج في البداية، تيسير

المبادلات بين المعلمين، والطلاب وأصحاب القرار[1]، ابتداءً من عقد الدورات التدريبية الإقليمية والمقابلات إلى تنظيم أول ندوة على الإطلاق عن تجارة الرقيق عبرالأطلسي على مستوى المدارس الثانوية، وقد تم تنظيم ٢٥ اجتماعاً، جرى معظمها في الأماكن الرمزية للذكرى، وطبقاً للجمعية العامة للأمم المتحدة، فقد أفضت الاجتماعات الوطنية لتوافر كميات كبيرة من المواد التعليمية لكل بلد!!، والطريف بالأمر أن المشاركون في هذا المشروع من الدول الأفريقية هي : أنغولا، بنين، السنغال، غامبيا، غانا، موزامبيق، نيجيريا، ومن أمريكا اللاتينية:البرازيل، بربادوس، ترينيداد وتوباغو، جامايكا، الجمهورية الدومينيكية، كوبا، هايتي، ومن أوروبا وأمريكا الشمالية :اسبانيا، البرتغال، الدنمرك، فرنسا، المملكة المتحدة، النرويج، هولندا، الولايات المتحدة الأمريكية)!!، إضافة إلى ذلك، قامت مجموعة من بلدان المحيط الهندي بتكييف مشروع تجارة الرقيق عبر الأطلسي مع الخصائص الثقافية والتاريخية لأقاليمها، فهنيئاً لجميع تلك الدول بهذه الشراكة بين العبيد وأسيادهم السابقين وربما الحاليين.

---

١ - وحدة التنسيق الدولية الخاصة باليونسكو للمدارس المنتسبة **u.storost(at)unesco.org**

الرقيق في الوطن العربي

حتى أواخر القرن التاسع عشر

حينما تتحدث عن سوء معاملة الجواري في دول الخلافة الإسلامية قد يتهمك البعض إما بمحاولة تشويه صورة العرب أو الإساءة إلى الإسلام، ولكنها تهمة باطلة، لسبب بسيط وهوأنها الحقيقة، إلاّ أن الإسلام بريء من تلك الجرائم،خصوصاً بعد عرض صور فوتوغرافية تعود لعام ١٩١٢م في المغرب، والتي تبين أحد شيوخ المغرب وجاريته الطفلة وهي عارية تماماً، تصب له الماء كي يتوضأ للصلاة!!، وقد أكتفى المؤلف وحفاظاً على الحياء العام، بعرض أقل الصور بشاعة وامتهاناً لكرامة وحقوق الإنسان، كما يظهر في الصورة الجانبية علماً بأن الأدلة والصور الأخرى قد تشمئز منها الأنفس البشرية من بشاعة المعاملة والإهانة التي عانت منها الجواري في بعض الدول العربية كما سنبين لاحقاً.



وعموماً فأن فقهاء الاسلام يُميزون بين الحرة والآمة في العديد من الحقوق الواجبات إبتداءاً من موضوع الستر والحجاب، وإنتهاءا بالقصاص، فالكل مجمع على عدم وجوب الحجاب اللأمة والأغلبية تتفق على أن عورة الآمة هي كعورة الرجل من السرة الى الركبتين! وأن الصدر ليس عورة،هو رأي المذاهب السنية الأربع، فعند المالكية عورة الأمة ما بين السرة والركبة، فيما يرى الحنابلة أن عورة الرجل والآمة من السرة إلى الركبة، وعند الحنفية ينظر من ذوات محارمه وأمة الغير إلى الوجه والرأس والصدر والساقين والعضدين والشعر، وعند الشافعية فالأمر فيه وجهان، أحدهما أن جميع بدنها عورة إلا موضع التقليب وهي الرأس والذراع لأن ذلك تدعو الحاجة إلى كشفه وما سواه لا تدعو الحاجة إلى كشفه، والثاني أن عورتها ما بين السرة والركبة، والحجابُ عند

ابن تيمية مختصٌّ بالحرائر دون الإماء، كما كانت سُنّةُ المؤمنين في زمن النبي وخلفائه، أن الحُرّةَ تحتَجِبُ، والأَمَة تبرُز(وفق ابن تيمية) ، وكن إماء عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخدمن كاشفات عن شعورهن تضطرب ثديهن، وعليه أجمع علماء الإسلام على أن رأس الأمة ليس بعورة، متزوجة كانت أم غير متزوجة، باستثناء الحسن البصري والذي يعتبر الأمة المتزوجة التي أسكنها الزوج منزله كالحرة[١] ،وهذا يعني أن الأمة العزباء تبقى عبدة، كما أن الأمة المتزوجة تبقى تحت رحمة قرار زوجها فإمها يسكنها منزلة الحرة وإما يبقيها في العبودية ، وقد ثبت في الصحاح وغيره، أن النبي عليه الصلاة والسلام لما اصطفى لنفسه من سبي خيبر صفية بنت حيي قال الصحابة :ما ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ فقالوا: إن يحجبها فهي امرأته وإن لم يحجبها فهي أم ولد فلما أراد أن يركب حجبها حتى قعدت على عجز البعير فعرفوا أنه تزوجها.

وكانت الجارية تتعرض لصنوف التحرش من رعاع الطرق وصبية المسلمين، ولذا أخرج الطبري بتفسير الآية :(ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين)، قال: قد كانت المملوكة إذا مرت تناولوها بالإيذاء، فنهى الله الحرائر أن يتشبهن بالإماء، وما تعرضت له النسوة المملوكات بين المسلمين تاريخياً هو بمثابة إنتهاك غير مبرر لحقوق الإنسان وخصوصاً تفرقة فقهاء الإسلام بين عورة الأمة والحرة لأسباب طبقية فقد أجازوا للأمة كشف أجزاء مثيرة من جسدها على خلاف مقاصد الشريعة.

إن صور الجواري العاريات، كان مشهداً عادياً في العالم العربي، فهي العبدة التي تمّ سبيها في الحرب أو استرقاقها أو شراؤها، أو ملك اليمين، فعند النووي في منهاج الطالبين وعمدة المفتين، و المقدسي في شرح العمدة فإن (عورة الأمة كعورة الرجل)، وتجدر الإشارة إلى أن تونس تعد أوّل بلد عربي وإسلامي يقوم بإلغاء العبودية والرق، فقد أصدر أحمد باي الأول في ٦ سبتمبر ١٨٤١ أمرا يقضي بمنع الإتجار في الرقيق وبيعهم في

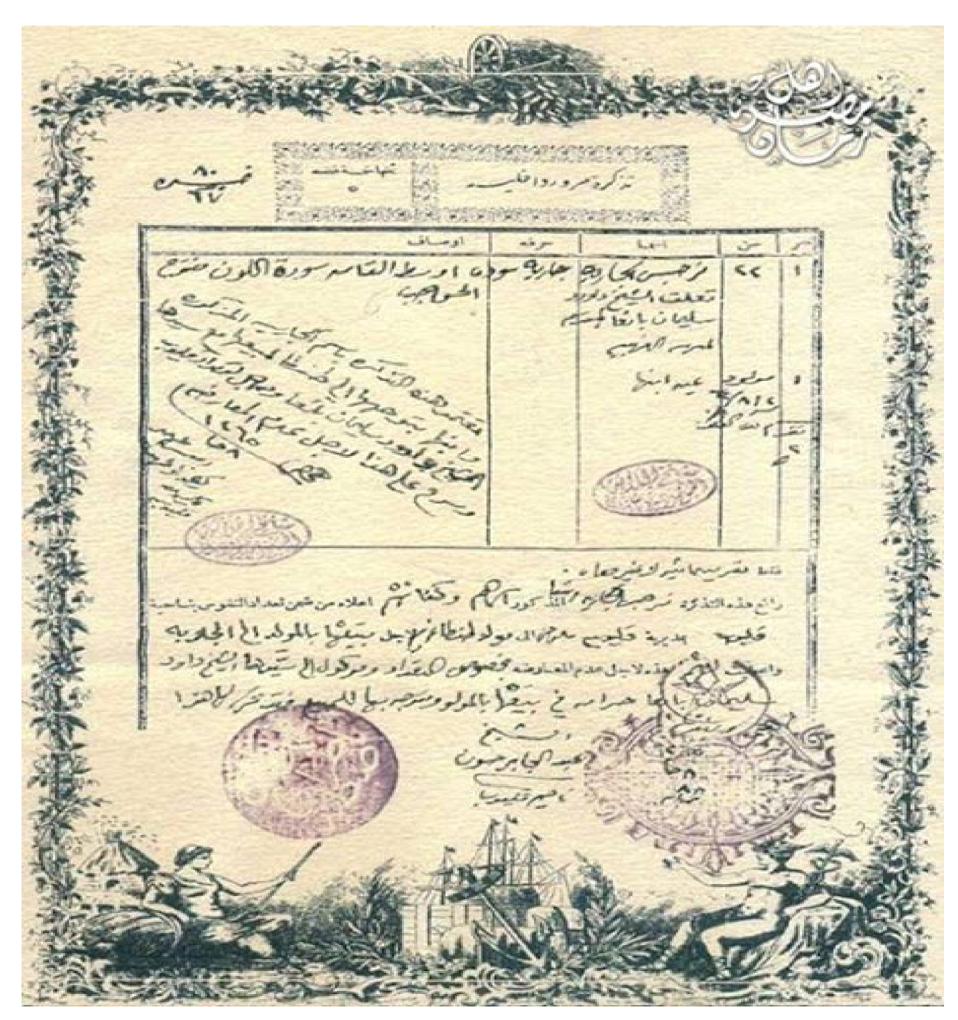
١ - السنن الكبرى للبيهقي ج٢ ص٣٢١، دار المعارف الأهلية ، مصر ، ١٩٨٥م.

أسواق المملكة كما أمر بهدم المحلات المعدة في ذلك الوقت لجلوس العبيد بالبركة (سوق الصاغة حاليا) ثم أصدر أمرا في ديسمبر ١٨٤٢ يعتبر من يولد بالتراب التونسي حرا ولا يباع ولا يشترى، وقد أصدر أمره هذا قبل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة ١٩٤٨م، كما سبق قرار الدولة العثمانية في عام ١٨٥٥م أصدرت الدولة العثمانية مرسوماً بقضي بمنع بيع الرقيق في جميع الأراضي الخاضعة لسيادتها، وطلب كامل باشا والي الحجاز العُثماني المقيم في جدة، من قائم مقامه في مكة، أن يجمع سماسرة الرقيق، ويخبرهم بالاجراءات الجديدة، بمقتضى أوامر الباب العالي١.

وقد رفض الأهالي بمكة قرار منع بيع الرقيق الذي أجازه الشرع،وتنادوا بالجهاد، واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء ومفتي الأحناف، وطلبوا إليه ألا يرضخ لما يخالف الشرع وان ينتقل معهم الى دار القاضي ليمنع صدور ذلك الأمر، ثم مضت جموعهم في الشوارع انضم اليها، الجمهور ونادوا بالثورة واشتبكوا مع الاتراك في قتال عنيف امتد الى المسجد الحرام، فقُتل فيه عدة أشخاص من الفريقين.

---

١ - تاريخ اشراف الحجاز (١٨٤٠-١٨٨٣)، خلاصة الكلام فى بيان امراء البلد الحرام محمد امين ابن زيني توفيق، ط ١ ، ص ٥٦، دار الساقى للطباعة والنشر١٩٩٣م.



(تذكرة مرور جارية وابنها إلى مدينة طنطا)

وتالياً ما ورد بالتذكرة حرفياً : نرجس جارية سوادنية أوسط القامة سودة اللون مفتوح الحواجب، تعتمد هذه المذكرة بإسم الجارية المذكورة وابنها بتوجهها إلى طنطا (لأجل بيعها بالمولود!)، مع سيّدها الشيخ داوود سليمان المحترم ، ت*وقيع : الشيخ عبد الجابر حسون، مبلغ التذكرة (٥٠ مليم).



صورة لجارية افريقية تقيم في بيوت الخصف خارج سور جدة،
ويظهر عمران المدينة في الخلفية (للمصور الفرنسي تشارلز وينكلسين عام ١٩١٨م)

كانت الدولة العثمانية خارجة من حرب القرم مع روسيا وحلفاؤها البريطانيون والفرنسيون، حيث ضغطوا عليها لالغاء تجارة الرقيق على أراضيها ولاتخاذ بعض الاصلاحات فيما يخص حقوق الأقليّات، ولاذت النخبة العثمانية التي كانت تميل الى الاصلاح بتلك التوجّهات الدولية، وخصوصاً محكافحة تجارة الرقيق، وكان النفوذ الاوروبي في الحجاز يشهد تصاعداً منذ توقيع اتفاقية التجارة العثمانية-البريطانية عام ١٨٣٨م، وما صاحبها من تنامي لمشاعر العداء المحلية ضد التجار والرعايا الانجليز القادمين حديثاً ، تزامن ذلك أيضاً مع نفوذ شركة الهند البريطانية على شبه القارة الهنديّة واخضاع عدن للسيطرة البريطانية عام ١٨٣٩م[١]، وما رافقه من بدء ترتيبات منح امتيازات للحجاج الهنود ممن يحملون التبعية البريطانية، ويحظون اثر ذلك بعناية غيرمسبوقة من قبل القنصلية البريطانية في جدة، وهي امتيازات خاصة شملت مجالات الصحة والرسوم الجمركيّة والتنقل، فأثار ذلك مشاعر الوطنيين في مدن الحجاز وبواديه، وقد إزداد توجس المحليين من الأوروبيين.

وقد كان كامل باشا، والي الحجاز، اقرب لأفكار النخبة العثمانية، فأشاع ضده أمير مكة الشريف عبدالمطلب، بأنه موالٍ للنصارى، يريد بذلك الطعن في هيبته والتقليل من

---

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٥٨

شعبيته، وكان عبدالمطلب قبيل اندلاع فتنة منع الرقيق في مكة قد تورط في حادثة مقتل نقيب الطائفة العلوية في مكة السيّد اسحاق بن عقيل ، كون الأخير كان حليفاً لخصوم الشريف في مكة، في الصراع الدائم والمفتوح على السلطة، وأدرك عبدالمطلب، الذي تحصّن في اطراف الطائف، حضن الحجاز العشائري، دنو صدور مرسوم اعفائه من شرافة الحجاز، فوثب الى استغلال موجة العداء الشعبية بُعيد صدور قرار منع بيع الرقيق، ولم يكن عبدالمطلب مدفوعاً بأفكارٍ أيديولوجية في تبنيه لمطالب العامة بالشارع المكّي بقدر ما شكل موقفه استغلالا سياسياً ، وبالمثل، لم تكن عوامل اندلاع الفتنة بريئة تماماً، فقد أجبر عبدالمطلب، بإيعاز من تجّار الرقيق في مكة وتجار جدة، وعلماء مكة الى اصدار فتوى تناهض قرار الغاء تجارة العبيد، ثم قاد مناوشات عسكرية ضد الحامية العسكرية التركيّة، قبل ان يتقهقر ويتحصّن في صفوف المقاومة طيلة سبع أشهر، وانتهت الأزمة لاحقاً بالقاء القبض عليه من قبل السلطات العثمانية ونفيه الى سالونيك باليونان، لكن قرار الغاء الرقيق في ولاية الحجاز كان قد جُمّد الى أجلٍ غير معلوم١ .وكان الحجاز يخضع حينها لفضاء المحيط الهندي الكبير، وهو فضاء ثقافي وحضاري ممتد جغرافياً، تشد أطرافه المتباعدة حركة التجارة البحرية المنطلقة من البحر الأحمر الى تخوم الصين، وقبل صعود أفكار الدولة القومية عالمياً، اشترك الحجاز، مع مصر وسواحل السودان والقرن الافريقي وتنزانيا وكيبتاون، وسواحل تهامة واليمن وحضرموت ومسقط مع غرب القارة الهندية وسنغافورة وأرخبيل ملاوي (أندونسيا وماليزيا) وأجزاء من تايلاند والصين، في وحدة ثقافية وبشرية كان ابرز معالمها الانتماء للمذهب الشافعي، الأشد في التأصيل الفقهي والأكثر تساهلاً مع عادة شراء العبيد، وفي فتاوي ورُخص التسرّي بالجواري، والحجاز، الفقير يومها ومنعدم الموارد الذاتية، والذي كان يريد استئناف دوره واستقراء موقفه من العالم الجديد، في مواجهة تيارات الجذب العكسي المدعوة بالتقليد.

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٦٤

وفي العاشر من يناير ١٨٧٧م، نشرت التايمز اللندنية خبراً من جدة عن رجل أسود عشريني سبح الى البارجة فاون المرابطة على ساحل جدة، طالباً تخليصه من النوخذة الذي يملكه فما كان من قائد البارجة، الكوماندور وارتن، الا تسليمه الى القائم بالأعمال في قنصلية جدة، السيّد أوزوالد، الذي سلّمه بدوره الى الوالي التركي، ممثل السلطات العثمانية المحلية في جدة، مما أثار ضجة إعلامية أبرقت على إثرها جمعية مكافحة العبيد في مقاطعة نيو- بورد ستريت بلندن في تاريخ ٢٧ يناير الى القنصلية البريطانية بجدة ، وقد إستغلت القنصلية البريطانية هذا الحدث سياسياً بامتياز لفرض مزيداً من التدخلات في القرارات السيادية لحكام الحجاز، وقد شكلت تلك الحادثة نقطة تحوّل في طريقة عمل الجهات القنصلية الأجنبية ازاء العبيد اللاجئين لاحقاً.

كانت تجارة العبيد مزدهرة بين شطري البحر الاحمر، في انطلاقها من موانئ تاجورة (جيبوتي) وزيلع (الصومال) وبربرة ومصوّع (ارتريا) الى موانئ البحر الاحمر الآسيوية، وضمت تجارة العبيد الى جزيرة العرب عناصر افريقية عدة من ارتريا والصومال وجيبوتي واثيوبيا يدخلون عبر موانئ جدة والحُديدة والمخا، وقوقاز وجاويين يأتون في مواسم الحج، ونساء هندوس من بومباي ونساء من فارس وزنجبار يأتون عبر قنطرة جُزر كمران (بالبحر الاحمر)، بعضهم للاحتياج المحلي والآخر يجري اعادة تصديره شمالاً الى تركيا ومصر، وبدت تجارة العبيد متجذرة حينها بشكل يتعذر معها مجرد التفكير في اجتثاثها، حد ان نائب القنصل البريطاني في جدة، وايلد، قد كتب في مذكرته التوضيحية الى الخارجية البريطانية في ١٨٧٧م بان (ممارسة الرق في الحجاز غدت مؤسسة معقدة حيث انها تمارَس منذ عهد النبّوة، وان التدخل بين العبيد وملاّكهم هو مسألة شديدة الصعوبة)[١]، وقد بادرت السلطات البريطانية لاتخاذ إجراءات تهدف إلى الحد من نشاط تهريب الرقيق المتفاقم.

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٦٥

ففي الأول من ابريل ١٨٧٧م، تنبهت السلطات البريطانية، الى حِيَل التهريب عند تجار الخليج ومتعهدي النقل البحري فيه، من خلال غياب قوائم المسافرين الهنود للحج وعدم طباعة اسم الراكب على التذكرة مما يساعد في رواج تجارة العبيد بين رعايا الهند والحجاز، وكان عدداً كبيراً من العبيد يجري تهريبهم سنوياً من سواحل الخليج العربي الى الحجاز في مواسم الحج، فشرعت القنصلية البريطانية بالزام وكلاء شركات البواخر والقوارب في جدة، التي تتعامل مع حجاج الهنود وسواحل الخليج، على كتابة اسماء الركاب على التذاكر وتقييدهم في قوائم دخول، وظلّت اكبر مسارات جلب العبيد لجدة تلك التي تأتي بالمخطوفين من اثيوبيا عبر وكلاء عرب مستقرون في موانئ تاجورة وزيلع ومصوّع ومنها عبر البحر الاحمر الى ميناء الحُديدة ومنها الى جدة واسواق مكة في مواسم الحج .

كان العبيد يصلون للميناء ويباعون عبر وكلاء ومن يفيض يجري نقله الى مكة والطائف وينبع والمدينة، وكانت جدة، درّة موانئ اقليم الحجاز، مركزاً رئيسياً لوصول العبيد، فيما كانت مكة، عاصمة الاقليم، مركزاً لاعادة تصديره، اضطراداً مع حركة مواسم الحج!، وكان العبيد ينزلون على موانئ الحديدة وجدة وينبع على التوالي، إضافة إلى مينائيّ الليث والقنفذة ، حيث كان البدو يقتنون عبيدهم من جدة بالشراء، ولم يخلو بيت في مكة والمدينة وجدة من العبيد والجواري، الذين يُستخدمون للعمل كسقائيين للمياه وعمال يدويين وقراريّة (عمال بناء) ومرافقين وباعة بالدكاكين وصيّادين، ناهيك عن القيام بالأعباء المنزلية، والنساء كن جاريات وسريات للمُلاك ممن لا يملكون تكلفة الزواج ، بحسب تعاليم المذهب الشافعي، وهن ايضا سراري للأثرياء والمترفين الباحثين عن التسليّة.وكان كثير من العبيد بسوق مكة يعودون للتبعية البريطانية أو لشركة الهند الشرقية الهولندية، وأغلب ضحايا الرق الهولندي ينتمون لجماعات البورنيو، والسيليبس او من جزر نياز، وكلها في اندونيسيا الحالية، وهم يُرسلون بداية الى مصر، ومنها في مواسم الحج الى الحجاز، وكثير منهم يُسترقُون في قصور أمراء مصر.

وكان من ضمن العبيد الاثيوبيين المجلوبين للحجاز مسيحيون بالولادة، ومن هندوستان، وقد عقدت مصر مع بريطانيا اتفاقية في الرابع من اغسطس ١٨٧٧م لالغاء الاسترقاق والنخاسة في جميع انحاء القطر المصري، ومنحت الاتفاقية البريطانيين حق توقيف السفن المصرية للتفتيش عن العبيد[1]، وتأثرت تجارة الرقيق في ميناء الحديدة مع القوانين الجديدة، وتفاعلت السلطات التركية في البحر الاحمر ببطء، وشرعت الى توفير قارب تجديف صغير في ميناء جدة للمراقبة الا انه لم يكن ذي اي تأثير، وشرعت القنصليات الاجنبية في جدة في تحرير العبيد اللاجئين اليها وترحيلهم الى ديارهم الأصليّة.



وكانت القنصليات تمنحهم شهادات حرية دون الرجوع الى ولاية الحجاز او انتظار اوراقها الرسمية، ويحتوي الارشيف العثماني على العديد من قضايا لجوء العبيد إلى القنصليات الأجنبية في الحجاز، وقد شجعت القنصلية البريطانية في جدة الأهالي صراحة باطلاق سراح عبيدهم في نوفمبر ١٨٩١م، مما أثار حفيظة السلطات العثمانية ازاء ذلك التدخل السافر في شئونها الداخليّة، وتوجست اسطانبول من اهتمام بريطانيا المتزايد بالحجاز، كونه كان يخالف مصالحها اقليمياً، فتم إعادة تنصيب عثمان نوري باشا واليا للحجاز في فترة ثانية في منتصف ١٨٩٢م[1]، لكن عداؤه الشخصي القديم مع الشريف عون لم يلبث الاّ واندلع من جديد، محوره السيطرة على الحكم، وظاهره قضية الرقيق، وأُنتدب احمد راتب باشا من قبل السلطان عبدالحميد للتحقيق حاملاً معه تعليمات تتلخص في التحقيق في تمرد القبائل في الحجاز بسبب اعتراضهم على فرار عبيدهم!، ورشا عون، راتب باشا بستة آلاف جنيه ذهباً، سلمّت له لحظة وصوله في ميناء جدة،

وقام راتب بعدّها جنيهاً جنيهاً[1]، وكتب راتب باشا تقريرا يؤيد فيه الشريف، ويبرئ ساحته ضد الوالي، الذي حمّل اللائمة عليه، واجتمع راتب باشا ببعض شيوخ القبائل بوساطة من الشريف عون بن ناصر الذي انتدبه لأجل ذلك، ولما التئموا احتموا باسم جناب السلطان ورموا بعقلهم واشمغتهم على الأرض حسب العادات العربية مطالبين بالعفو، واعتبروا ان تمردهم كان احتجاجاً على فرار عبيدهم، وتراخي عثمان نوري المنحاز للاجئين والمدفوع الى رفع الرق عنهم.

تجارة العبيد في مكة المكرمة (دكة الرقيق):

ولما استفحل امر الدراويش المهديون واستولوا على الأقطار السودانية في مطلع ١٨٨٥م، أعادوا تجارة الرق ، فتدفق للحجاز عبر عصابات سودانية محليّة، موجات ضخمة من الرقيق السوداني، وبات نشاط تهريب الرقيق من ميناء سواكن يجري في العلن، وعبر مجموعات ضخمة تتجاوز الألفيّ شخص مع كل حمولة بحرية، وكما ازدهرت تجارة الرقيق والجواري في الحجاز، ازدهر معها نشاط شراء الحجاج العبيد لاعتاقهم، (وهذا ما أشرنا إليه تماماً في مقدمة الكتاب)، واعادة حرياتهم اليهم، وغصت مدن الحجاز بالأرقاء العتقاء، بل ان مدينة كاملة في جوار المدينة المنورة، وهي خيبر، قد تألّفت حصراً من الارقاء السابقين.

وبرزت في مكة مؤسسة دكّة الرقيق، وكانت سوقاً للعبيد في اطراف سوق سويقة، على مقربة من باب الدريبة، يقوم عليها شيوخ التجارة، وملحقة بأحواش مفتوحة غير كبيرة يُحبس فيها الرقيق في المساء، وكانت مراسم البيع تجري بحضور شاهديّن، وتُسجّل في اوراق مجلوبة ومُصدقة من المحكمة الشرعية، ويصف المستشرق الهولندي سنوك هوروخرنيه الذي مكث في مكة عام ١٨٨٤م، أجواء ومناخات بيع العبيد والجواري في دكّة الرقيق (ازاء الجدار تقف الفتيات والنساء من الجواري على الدكّة، ويقف أمامهن على الأرضيّة الرقيق الذكور، وفي بهو القاعة يلعب مجموعة من العبيد الصبيّة، ويجلّس

(الدّلالون) على مركازهم ويتبادلون أطراف الحديث سوية او مع بضاعتهم من الرقيق، وكان من طقوس الشراء أنه اهتّم زبون بصبي أسود صغير، يقوم الدلاّل المخصص بمناداته، ويطلب منه الكشف للزبون عن شعره، واقدامه، وبقية أطرافه، ويجبّر الصبي على فتح فمه واستعراض لسانه واسنانه، فيما يقوم الدلّال باستعراض مواهبه للزبون المهتّم، واذا جاء المشتري لابتياع جارية فحصها فحصاً دقيقاً من قمة رأسها الى أخمص قدميها كما تُفحص البهائم، فاذا تحقق من لباقتها ولياقتها سامها من البائع، ويقوم المشترون عادة بعدة اختبارات للرقيق قبل اتمام عملية الشراء، فيسألونهم ان كانوا يتحدثون العربية، ويسألونهم بعض الأسئلة الشخصيّة، ثم يقومون بالكشف عن علامات الاصابة بالجدري، ويبحثون في اجسادهم عن أثر التطعيم ضد الجدرّي[1].

واللقاح كان يُمنح في الحجاز، مشفوعاً بشهادات اعتماد مختومة من مفتي الشافعيّة في مكة، ولكن قلّما كانت تمنح هذه الشهادات للعبيد، واذا ظلّ في نفس الزبون قليل من الشك، فانه يصطحب العبد الذي ينوي شراؤه لفحصه عند طبيب مقابل عائد مادي، او يقوم بصلاة الاستخارة!، اما اذا كان يعمل بالرمل والندر، فهو يذهب لشيخ الرمل ليقرأ طالعه قبل اتمام صفقة الشراء، وقد ذكر الضابط الروسي (دولتشين) عام ١٨٩٨م في مذكراته أسواق دكّة الرقيق قائلاً : (وعندما زرت هذا السوق، كان هناك زهاء ٨٠ شخصاً معظمهم شابات حبشيّات مع اثنتين او ثلاث منهم اطفال رضع، وجميعهن مزيّنات ومصفوفات فرقاً على دواوين طويلة، وكان هناك مقعدان يجلس عليهما راشدون من الزنوج، ويشرف على البيع تاجر عربي نشيط راح يمدح بصوت مدو مزايا بضاعته، وقد خلص دولتشين الى ان ما رأه قد ترك في نفسه انطباعاً كئيباً ومُزياً جداً) ، ويضيف دولتشين انه لا يمكن ان يشتري احد في اسواق مكة اي عبد ذكر دون ارادته، بخلاف الرقيق من الاناث والجواري فلا رأي لهن، وان الرقيق اذا استشعر سوء المعاملة

---

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٧٥

فانه يصرّ على بيعه حتى يرضخ مالكه، فيعيد تسليمه الى دكّة الرقيق، واذا اخطأ العبد فان عقوبة الضرب على أسفل قدميه، ويصف دولتشين ذلك المشهد كما كان يشاهده في حارات جدة حيث يضجع العبد على ظهره، ويرفع قدميه للسماء، فيما ينزل المالك او احد رجاله بعصا (الفلَكَة) على اسفل قدميّه، فيما يصرخ العبد معلناً التوبة، وطالباً العفو بإسم الرسول، لكن يذكر دولتشين بأن تلك العقوبة هي نفسها التي يستخدمها أهالي الحجاز ازاء ابنائهم المشاغبين بشكل عام.

ويخلص دولتشين، إلى أن عبيد مكة هم في حقيقة الأمر موازون للخدم في اوروبا المتحضّرة مع أفضلية يحظى بها عبيد مكة!، ويرى بأن العبودية في شبه الجزيرة العربية مؤسسة متجذرة اجتماعياً، ولها أصولها القرآنية التي يصعب الغاءها بأمر من الغرب، لكنه اعتبر ان أسوء الممارسات البغيضة التي تترافق مع تجارة العبيد، والتي لا يمكن التسامح ازاءها اطلاقاً، هي ظاهرة الخصي للعبيد الذين يحق لهم الدخول في مجالس النساء ممن يعملون في فِراشة الحرم المكّي الشريف، كما ذكر دولتشين ممارسات اختطاف الأطفال في افريقيا وبيعهم في اسواق الجزيرة العربية، لكنه اعتبر ان السؤال الجوهري يتعلق بنوعية الخطاب المعقول الذي يجدر بالغربيين استخدامه بما يساعد على القضاء على الظاهرة من جذورها، لا مفاقمتها من خلال اعلان العداء لها اعلاميا وسياسيا والترصد لممارسيها، وهو يضرب مثالاً بالسياسات الأوروبية المتخذة في القرن الافريقي لمكافحة تهريب الرقيق، حيث أجبرت تلك السياسات تجار الرقيق على اتخاد مسارات أبعد وأكثر وعورة، وهو ما يعزز من فرص الوفيات بين العبيد وخصوصاً الأطفال والفتيات، وعليه فسياسة محاربة الرقيق الأوروبية - بحسب دولتشين- لم تقلّص اعداد المهربّين، لكنها فاقمت من اعداد الوفيّات[1]، وخلص الى أن تجارة العبيد ستنتفي بالتنميّة البشريّة الحقيقية للمجتمعات الافريقية الفقيرة والمعوزة، لأنها ستعلي وقتها من قيمة الحياة للأفراد، وهو ما كان يراه مفقوداً في أبجديات الخطاب الاوروبي ذو الطابع السيادي.

الدستور العثماني الحديث والحرية المقنّعة:

بعد اعادة صدور الدستور العثماني في عام ١٩٠٨م، وصعود الاتحاديين للحكم في الاستانة (اسطانبول)، تشددت السلطات ازاء تجارة العبيد في ولاية الحجاز، امتثالا لبنود الدستور، وصدرمرسوم، نُشرفي صحيفة تقويم الوقائع (Taqvim-i Veqayi) في الثلاثين من اكتوبر ١٩٠٩م بالتأكيد على منع تجارة العبيد والتأكيد على حريتهم اياً كان لونهم او جنسهم بحسب الدستور ، وان اي مخالفة لذلك يُعد بمثابة جريمة يُعاقب عليها القانون، لكن مع عام ١٩١٠م كانت تجارة العبيد في الحجاز لا تزال رائجة ، وطبقاً لتقرير الوراد في الصحيفة المذكورة ، فقد تم ذكر بعض أسماء التجار الذين يعملون في تجارة العبيد في ميناء جدة، وكان أبرزهم سعيد قاسم الصعيدي، ووكلائه: باسودان الحضرمي، والصافي الحضرمي.

العبودية في عهد الهاشميين:

عادت تجارة العبيد للازدهار من جديد مع قيام الثورة العربية الكبرى التي انطلقت من مكة في ١٩١٦م ضد الاتحاديين، لكن الشريف حسين (رحمه الله) ملك الحجاز وقائد الثورة، قام في عام ١٩١٩م باغلاق سوق العبيد الشهير في مكة الذي يحمل اسم (دكة الرقيق)،وتضييق الخناق على نشاط التهريب[١]، وبزغت ازاء الترتيبات المحلية واغلاق اسواق ودكك الرقيق بدائل مبتكرة لبيع وتسويق العبيد في مدن الحجاز، كان العبيد بعد هبوطهم لأرض الميناء يوزَعون على منازل الدلالين في جدة الذين يقومون بدورهم ببيعهم سراً، لا في سوق او مزاد علني، وانما بالدلالة المباشرة، وارتفع سعر العبد الذكر عام ١٩٢١م في جدة الى ستين جنيهاً استرلينياً، اما العبدة المؤهلة بالقيام بأعباء المنزل فوصل سعرها الى مائة جنيه استرليني، ومع ديسمبر ١٩٢١م عادت تجارة العبيد لسابق

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٧٩

عهدها مع تراجع، قدرة الحكومة الحجازية الهاشمية على السيطرة على تجارة العبيد، أومُلاحقة المهربين، وذلك لانشغالها بمواجهة المؤامرات التي تحاك ضدها من قبل آل سعود في نجران، وقد وصل الأمر لدرجة قيام بعض رجال الجُمرك الفاسدين بين فينة وأخرى على تلقي رسوم جمركيّة رسمية على شحنات العبيد وخصوصا الجواري الحبشيات المهربات عن طريق اليمن، فكان من وجهاء الجاليات الافارقية المستقرّة في مكة من يتوسط ويعمل دلالاً في بيع العبيد المجلوبين من افريقية[١] .

وكثيراً ما كانوا يتخذون اساليب المراوغة والحيلة، وفي رسالة من نائب القنصل في جدة للقيادة في بورتسودان بتاريخ ١٠ يناير ١٩٢٢م، تفيد بوصول اعداد كبيرة من الاطفال الاثيوبيين المخطوفين للحجاز، وبشكل يومي، وصلوا جميعا من ميناء تاجورة في الصومال الفرنسية (جيبوتي)، حيث تم شحنهم الى ميناء ميدي في اليمن ، عبر وسطاء تجار عبيد الدنقلة بين سواحل ارتريا وتجار الحجاز، وفي جدة كان يستقبل الاطفال المهربين بعد ان ترسو سنابيكهم(قواربهم) في الرويس او جنوب جدة حيث مقبرة النصارى خارج السور، وكان تهريب العبيد ممنوع رسميا لكن يجري غض البصر عنه مقابل رشوة مقدارها ٣ جنيهات ونصف عن العبد، وفي الحالات القليلة التي يجري اخطار السلطات بالعمليات وتقوم بمداهمتها، يجري اعتقال المتورطين عبر شرطة جدة المحلية.

وكان شيوخ تجارة العبيد في ميناء تاجورة (وهي احد مقاطعات جيبوتي الست): علي احمد، حسن محمد، داود خنبشي وجرّات العبلي، وقد ذكر الصحفي اللبناني أمين الريحاني ابان زيارته للحجاز وعسير في انحاء عام ١٩٢٢م ، تفشي ظاهرة العبودية، في كتابه الممنوع من التوزيع في الدول العربية (ملوك العرب)، والى جانب دكّة الرقيق في سويقة، كان هناك دكك للرقيق في كل من المدينة والطائف، وسوق للرقيق في جدة بقرب القنصلية البريطانية، فيما كان سوق عرد في تهامة احد اعظم اسواق الرقيق، وكان سوق

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٧٩

ميدي مركزاً لتصدير العبيد الى عقبة اليمن والعسير وجدة، يقول امين الريحاني: (واذا اراد أحد السادة شراء جارية حسناء يجئ الى ميدي فلا تضل خطاه ومناه) وكتب الريحاني، (ان في الحجاز من يحللون ويحبذون النخاسة)، وقد تم مهاجمة الريحاني بعد كتابه بقائمة طويلة من التهم كالعمالة لأمريكا وغيرها من التهم كونه كشف تلك الحقائق.

وفي التاسع من مايو ١٩٢٢م اخبر السير اوليفانت من الخارجية البريطانية الشريف حسين ان حكومة الملكة لن تدخل في اتفاقية ثنائية مع دولته ما لم تشدد القبضة ضد تجارة العبيد، وفي رسالة من قائد البارجة كورنفلاور للشريف الحسين في ٢٢ يونيو ١٩٢٢م، دعاه فيها للتعاون في الغاء العبيد من جديد، ويبدوا أن الحسين ابدى امتعاضه من النظام الحالي للرق ولكنه كان يبرر بأنه كزعيم اسلامي يصعب عليه الغاء ما تجذر في الثقافة الاجتماعية للحجاز من شيوخ البادية وأعيان الحضر، فكان يكتفي بألا يُنكر ولا يؤيد، يقول المايجور مارشال، قنصل بريطانيا : (انسجاماً مع تبريرات الحسين، بأنه يجب ان تكتفي حكومة بريطانيا بانتزاع ادانة أخلاقية من الحسين للرق)١ ، واعتبر المايجور مارشال في رسالة الى الخارجية البريطانية في ٢٩ مايو ١٩٢٢م، انه ليس من الموضوعية الحكم الأخلاقي ضد الشريف ازاء ثقافة تجذرت في التربة الحجازية والعربية لقرون، وكان من الاوروبيين في جدة من تورط في تلك الممارسة أصلاً، فالقنصل الايطالي في جدة اشترى جارية حبشية في نوفمبر ١٩٢١م مقابل سبعين جنيهاً ذهبياً ، وتعاونت السلطات المحلية في الحجاز مع الطلبات البريطانية لتحرير رعاياها، ويعود ذلك لنشاط وزير خارجية الحجاز، الشيخ فؤاد الخطيب، وكان القنصل البريطاني يرسل بأسماء من يعتقد انهم تجار للعبيد، للخارجية الحجازية التي كانت ترد على الاستفسارات بشكل فوري، وكان الشريف حسين، يشعر بابتزاز البريطانيين له في تسييسهم لموضوع الرقيق

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٨٢

على اراضيه، واضطر الحسين لمواجهة ما لمس بأنه استغلال سياسي لموضوع الرقيق من قبل البريطانيين، بتسييس مُضاد، فأمر باعتاق عبد سوداني كان بائعه المتورط سوداني آخر يحمل الجنسية البريطانية، يريد بذلك خلق انطباع للبريطانيين بأن ممن يمارس تجارة العبيد أيضا ينضوون تحت رعويتهم، وان ذلك لا يقف على رعايا الحجاز.

ولربما نجح الشريف في خلق ذلك الانطباع، حد ان القنصل بولارد في رسالة منه الى رمزي ماكدونالد، وزير الخارجية البريطاني (ورئيس الوزراء البريطاني فيما بعد) في الحادي عشر من يونيو ١٩٢٤، أقرّ بأن الرعايا البريطانيون يمارسون بيع وشراء العبيد بمكة وجدة مثل الرعايا الحجازيين تماماً، وهو يستأذن منه استدعائهم جميعا من مكة فرداً فرداً للتبيّن ما ان كان من يعمل في دورهم عبيد ارقاء حقاً ام مجرد عمال أحرار يعملون بالأجرة، بولارد اقترح بدوره ان تمنح التابعيات الحجازية، للمطالبين بها من المهاجرين الهنود القدامى في مكة، كونهم قد استعرقوا في الحجاز حتى انهم باتوا يمارسون العادات الاجتماعية ذاتها، وبدأ الحسين، مع معاندة البريطانيين له في مطالبه بتسويات عادلة في سورية وفلسطين، بالتشدد ازاء قبول القنصليات الأجنبية لأي لاجئين من العبيد.

كان الحسين في أواخر عهده حاسماً في منع قبول القنصليّات الأجنبية في جدة لأي حالة لجوء من الرقيق، مع وعود صارمة منه بملاحقة المهربّين، وازدياد حساسيته ازاء القضايا السيادية، يقول القنصل البريطاني بولارد والذي عاصر آخر ستة عشر شهراً للشريف حسين وهو في العرش، كمعتمد قنصلي في جدة: (طيلة ستة عشر شهراً قبل تنحي الشريف حسين، فقط امرأة واحدة لجأت للقنصلية بطفلها وهي مؤمنة السودانية، البقية كانوا يرتعبون من الحسين ومن قبضته الحديدية) ، واخذت قضية اختطاف فتاتين جاويّتين مسيحيتين وتهريبهما لمكة أبعاداً دولية، الفتاتان كانتا في طريقهما الروتيني لأحد جزر ارخبيل الملايو، لكن سمساراً حضرمياً اعترض طريقهما واختطفهما الى سنغافورة ومنها الى مكة، حيث بيعتا بمقابل ٥٠٠ جنيه استرليني للفتاة، لندرة الجاريات الجاوّيات

آنذاك وشدة الطلب عليهن، وصلت الفتاتان، الى عائلة من آل شبلي، والتي تعد من اقدم عائلات مكة وأكثرها وجاهة بعد عائلة الشريف، وحينما وصل الأمر للسفارة الهولندية اخطرت بدورها فؤاد الخطيب، وزير الخارجية الحجازي[1]، والذي اصيب بصدمة جرّاء ذلك الخبر، كونه يأتي في وقت حرج على الدبلوماسية الحجازية التي كانت تواجه خطراً حدودياً عسكرياً محدقاً يشي بزوال دولتها، ومرر الخطيب الخبر بطريقته للشريف حسين، وكان الخطيب يريد تخفيض الخسائر الدولية، فاستشاط الشريف غضباً واعتذر بحرارة للهولنديين وامر باطلاق الفتاتين وبتوبيخ المتورط من آل الشيبي بشكل معلن وصارم، لرغبته في اظهار ان عدالته تنسحب على الجميع.

وبعد تنازل الشريف حسين، ورحيله الى المنفى، تقاطر العبيد الى مبنى القنصلية البريطانية في جدة طلباً للعتق والترحيل الى بلادهم الأصلية، يؤكد بولارد في وثيقته التي حررها من ١٦ صفحة الى وزير الخارجية البريطاني: (لحظة رحيل الحسين الى منفاه بميناء العقبة تقاطر العبيد على القنصلية البريطانية، مع أقلية ارترية لجأت للقنصلية الايطالية،وفي الثامن عشر من ديسمبر ١٩٢٤م حررت القنصلية البريطانية فردين لجئا اليها، بعثتهما الى ارتريا عبر جيبوتي، وكانا: بشير (واسمه الحقيقي ارصوره) عمره ١٢ سنة، ومالكه السابق (الشريف عبدالله مهنّا)، وفرج (واسمه الحقيقي عنبر عبدالله) من اهل الفاشر في الطرف البريطاني-المصري ومالكه السابق (احمد الصبحي) من عربان قبيلة حرب.

وقد وصل الى سواكن في ٢٥ ديسمبر ١٩٢٤م، بعد عشرين عاما قضاها في إسار العبودية، واذا كان الشريف حسين، في آخر سنواته، قد تعامل مع دعاوي اطلاق العبيد ولجوءهم للقنصليات الأجنبية بجدة بحساسية شديدة، فكان يلاحظ في المقابل نبرة اعتذارية من افراد طاقمه الوزاري والاداري إضافة لمحاولات جادة من فؤاد باشا الخطيب وزير خارجية الحجاز، وعبدالملك الخطيب سفير (مُعتمد) الحجاز بمصر، وناجي الأصيل،

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٨٥

سفير (مندوب) الحجاز في لندن، وأبناء الحسين، علي وفيصل وعبدالله، لطي ملف الرق في الحجاز، لكن جهودهم بعثرتها أولويات أخرى منها القضية الحدودية مع ابن سعود وشبح الحرب الذي كان يخيّم على الأجواء، وتضعضع الاوضاع الأمنية في نواحي القبائل الحجازية الساخطة على سلطة الهاشميين خارج المدن المركزية، وتأجيل توقيع الاتفاقيات بين البريطانيين والحكومة العربية الهاشمية في الحجاز نتيجة تشدد الحسين حول بعض البنود التي كان يراها تحد من سيادته على الاراضي العربية وتخل بوعوده لأهالي فلسطين وسورية.

سقطت مكة بيد آل سعود عام ١٩٢٤م، وانتقلت الحكومة الهاشمية الى جدة، وبانتقال العرش من الحسين الى إبنه علي، بدأت مساعي بولارد لملاحقة ملاّك العبيد في الحجاز تأخذُ أبعاداً دولية، ومع بدايات حصار جدة ارسل بولارد رسالة الى الحاكم المدني لولاية البحر الاحمر هاويل اسك، في ٢٠ يناير ١٩٢٥م، يخبره انه لن يقوم باستقبال اي من العبيد اللاجئين الى دار القنصلية على الفور كونه لايريد ان تمتلأ القنصلية بالعبيد الفارين في وقت حرب مما سيعقد المساعي الدبلوماسية، لكنه في المقابل سيتقيد بما نصت عليه اتفاقية بروكسل الأخيرة في الغاء الرق، باعتاقهم واطلاقهم احراراً في جدة، لكنه اعترف بعدم جدوى ذلك كون العبيد يعودون الى ملاكهم السابقين تحينا لأفضل فرصة لترك الحجاز الـى بلادنهم الأصليّة.

واعلن بولارد بأن اول مسألة سيفاتح فيها ابن سعود عند سقوط جدة هي حثّه على الغاء العبودية، لكن بولارد اعترف بضعف موقفه التفاوضي، كون التقارير الصادرة مؤخرا من جنوب افريقيا تفيد بمهازل يقيمها ابناء جلدته البيض ضد السود، لكنه قرر انه سيركّز علـى قضية الغاء الرق في الحجاز من منطلقات انسانية صرفة لا مُسيّسة، وكان بولارد يتنبأ بسقوط جدة الحتمي في يد جيش الاخوان، وهو لم يكن يخفي بغضه للعائلة الهاشمية في الحجاز، واعترف بولارد بأن الملك الجديد علي بن الحسين، كان نظرياً اكثر

تحررا وانفتاحا من والده، وبانه ضد تجارة العبيد، وكان علي، قد استهل ولايته الدستورية على ما تبقى من اراضي الحجاز، باعطاء وعود للقنصلية البريطانية تقضي بتحرير كل الرق الموجودين في الحجاز، وإبطال تجارة العبيد ومعاقبة ممارسيها، حال انتهاء الأزمة القائمة واسترداد سلطاته لعافيتها، ثم اصدر قراراً نافذاً من حكومة الحجاز الدستورية يمنح العبيد حق الجوء للقنصلية البريطانية من جديد، خلاف التصلّب الذي ابداه والده[١].

ومع مارس ١٩٢٥م واشتداد أزمة حصار جدة، لجأت بعض عوائل الحجاز الميسورة الى مصر طلباً للسلامة واعلاناً للحياد، وارسل بولارد القنصل البريطاني في جدة الى المعتمد السامي البريطاني بالقاهرة في العاشر من ابريل يناشده بايقاف كل من يصطحب عبيده معه وبأن يرغمه بقوة القانون على اطلاق سراحهم، وكان الفارون من الحجاز يذهبون الى موانئ مصر والسودان كمجموعات عائلية تضم عشرين فرداً في المعدّل يرافقها خدم شخصيّون يدخلون مصر بجوازات (خدم) لكن بولارد كان يصّر على ان هؤلاء رقيق تم شراؤهم، واخبر القنصل الهولندي في جدة، بولارد، بأن المطوّف الحجازي المعروف، السيّد (محمد نور جوخدار) يصطحب معه جارية جاوية اسمها (موار) اعيد تسميتها بنعيمة وانها تعمل عنده كجارية، وأن نور جوخدار في طريقه للسويس ، فطالب بولارد من حاكم السويس تعقبّه ومعاقبته.

وفي رد من حاكم السويس في الثاني والعشرين من ابريل ١٩٢٥م الى قنصلية جدة، أفاد بانه جرى تعقب الشيخ محمد نور جوخدار وتحديد مقر اقامته بفندق الحميدية بالسويس حيث كان يقطن مؤقتاً كلاجئ سياسي مع عائلته وخدمه ومن ضمنهم نعيمة، منذ الخامس من مارس ١٩٢٥م قادمين علـى متن الباخرة الايطالية إلتريسو، لكنهم وجدوا بعد التحقيقات رضا نعيمة التام بأوضاعها، وأقرّ الشيخ الجوخدار بأنه اشترى نعيمة قبل

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٨٦

عامين، من تاجر حبوب بجدة، واقرّت نعيمة، وهي شابة في الخامسة والعشرين، بأنها خطفت من جزر الهند الهولندية وبيعت في مكة، حيث مكثت اثني عشر عاما للخدمة في المنازل حيث بيعت أكثر من مرة لعائلات حجازية، آخرها لمحمد نور جوخدار، وان ابن مالكها السابق (تاجر الحبوب) كان يتسرى بها، أما محمد نور جوخدار فكان يعاملها بشكل إنساني (وفق إعترافها) وأكدّت بانها ترغب في الاستمرار كعاملة في بيت جوخدار.

وأرسل بولارد الى مُفوّض الشرطة في بومباي في ٢٩ يونيو ١٩٢٥م يطالبه بتعقب أسرة الحاج عبدالله علي رضا، قائمقام جدة، ووكيل شركتيّ البواخر(ترنر مورسون) وخطوط ناسا للملاحة البحرية في جدة والتي رحلت بحراً لبومباي، يرافقها سودانيتان وامرأة يمنية اسمها صفرار، وحبشيّان هما: ريحان وتحسين ، يعتقد بولارد بأنهم رقيق، كما طالب بولارد في ذات الرسالة بتشديد الرقابة على عوائل التجار الحجازيين القادمين الى كراتشي وبومباي هرباً من الحرب العامة، وضرورة التأكد من ان مرافقيهم الافارقة مجرد خدم يعملون مقابل أجرة متفق عليها لا رقيق، وفي رد من شرطة بومباي في ٢٦ اغسطس ١٩٢٥م أفادت بتحرّيها الواقعة، لكنها برأت ساحة عائلة علي رضا كون الجوازات التي حملها الخمسة المذكورون تشير الى ان وظائفهم (عمال منزل) والى اقرارهم الشخصي بذلك[١].

كما أكد مأمور الشرطة الى صعوبة اثبات عكس ذلك في اي محكمة هندية ، كما حاول سكرتير المستعمرات في سنغافورة ملاحقة تاجر الأخشاب الشهير ومتعدد الجنسيات السيّد ابراهيم عمر السقاف على خلفية بلاغات من شرطة بنانغ حول تهريبه لفتيات صينيات صغيرات من سنغافورة الى مكة، كان السيّد (الداتو) ابراهيم، اكبر ابناء السيّد عمر السقاف، يتحدر من عائلة حضرمية الأصل استعرقت بين مكة وسنغافورة، ولها

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٩٣

اعمال تمتد على طول امتداد فضاء المحيط الهندي الكبير، والسقّاف على امتداد ثروته وجاهه كان محسناً كبيراً، ينشط في مجال تبني الفتيات الصينيات الفقيرات لتحسين شروط معيشتهن.

وفي ١٧ مايو ١٩٢٤م، تابع سكرتير المستعمرات بلاغ اختطاف فتاتان صينيتان اسمهما مهجة ووهبة واعمارهن ١٦ و١٧ على التوالي، عبر الشيخ سالم السقاف، حيث إددعى الأخير أنهما إبنتاه بالتبني!، وانهما انتقلتا للعيش في قصر أخيه ابراهيم السقاف في المعابدة في مكة، وعبثاً حاول السكرتير اثبات انهما مسترقتان، الا انه لم يمتلك اي دليل ادانة ضد السيد السقاف، وتعد الصينيات مرغوبات للتسري عند العرب حيث تصل اسعارهن الى مائتي جنيه كما في عمريّ مهجة ووهبة!!، وفي الثاني من يونيو ١٩٢٥م ارسل القنصل بولارد من داخل سور جدة رسالة الى سلطان نجد، عبدالعزيز ال سعود يطلب منه تحرير مجموعة من الحجاج النيجيرين من رعايا بريطانيا الذين كانوا في طريقهم من المدينة الى جدة سيراً على الأقدام عندما أغارت عليهم جماعة من البدو واستعملتهم كعبيد بميناء القضيمة، وتم إحتجازهم بقصر بين رابغ وجدة في الخريبة (بئر مبيريك) ، فابدى الطرف السعودي تعاوناً في ذلك١.

وفي ٢٣ يوليو ١٩٢٥م ،لجأت جارية سودانية تدعى (زهرة)، من منزل آمنة بنت محمد الفضل الى القنصلية البريطانية في جدة وطلبت اللجوء السياسي وارسالها الى وطنها السودان/ فاشر، وقد ارسل المعتمد البريطاني رسالة بذلك في اليوم التالي الى الشيخ فؤاد الخطيب، وتسببت حادثة زهرة في احتجاج بعض الأهالي النافذين ضد تراخي حكومة الملك علي، وفي السادس والعشرين من اغسطس ١٩٢٥م، في أوج حصار جدة، طلب الملك علي من نائب القنصل البريطاني المستر جوردان التوقف عن استقبال اللاجئين، غير انه وعد بابطال العبودية تماماً بعد انتهاء الحرب، بيد انه لا يريد اضعاف موقفه مع

---

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٩٥

التجار والمحليين، وارسل المستر جوردان، وكان اكثر تفهماً من بولارد لوجهة نظر الملك علي، الى القيادة البريطانية في السودان مؤكداً موقف الملك علي المناهض للعبودية، انما المشروط بنظرة واقعية، (الملك علي لاتروقه مظاهر العبودية المنتشرة، لكنه ايضا اقرّ بصعوبة الغاء ذلك بشكل قاطع لتجذّر الممارسة لقرون، فيما المسألة ينبغي مباشرتها برفق وتدريج، وانه نظرا لخصوصية المسألة، فانه يريد تجّنب اصدار اي قرارات قد تضعف من شعبيته اثناء الأزمة السياسية المندلعة، لكنه وعد بالغاء الرقيق فور استقرار الحجاز وانجلاء أزمته)، لكن الخارجية البريطانية التي كانت قد رجّحت موقفها في الحرب لصالح ابن سعود، لم تعطي بالاً لمطالب الملك علي، وفي تلغرام من الخارجية البريطانية، الى نائب القنصل أبدت الخارجية عدم اقتناعها بالمبررات التي ساقها الملك علي، وأفادت بأن القنصلية يجب ان تستمر في استقبال اللاجئين وفي ارسالهم الـى ميناء سواكن بعد تحريرهم.

وقد إستمر مسلسل لجوء العبيد في جدة الى القنصلية البريطانية ، وترحيلهم لاحقاً لسواكن، ولم تجدي الإتهامات الموجهة للعبيد بالسرقة قبل هروبهم ، ومطالبات الخارجية الحجازية عبر فؤاد الخطيب باعادتهم من الباخرة للمثول امام قاضي المحكمة الشرعية، أي نتائج ملموسة، وخصوصاً بأن الرد البريطاني إعتبر بأنه اضحى من عادات ملاك العبيد اتهامهم بالسرقة عند فرارهم والحصول على احكام لصالحهم من المحكمة الشرعية، التي تنحاز دوما للملاّك[1]، كان ذلك الارتباك المتصاعد من طرف القيادات والمؤسسات والأهالي إعلاناً عن أفول عهد الملك على في الحجاز، وفي ٢١ ديسمبر ١٩٢٥م سُلمت مفاتيح جدة الى آل سعود، وأعن عن تأسيس مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، وهو بداية العهد السعودي على كامل أراضي الحجاز.

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ٩٧

العبودية في عهد آل سعود :

تسارع نشاط الاعتاق بين اهالي مكة، وهناك من باع جواريه بنصف اسعارهن، حينما نزحوا الى جدة في جماعات قبيل دخول جيش الاخوان الى مكة، وهبط سعر الجاريات في دكة الرقيق في مكة من سبعين جنيهاً الى ثلاثين، وكان المطوفون يقنعون اغنياء الجاوا باعتاق العبيد المملوكين في مكة كونها مثل الصدقة الجارية، وتكرر هذا النمط قبيل سقوط جدة، ويلاحظ في نوفمبر ١٩٢٥م من اوراق المحكمة الشرعية في جدة تسارع في نشاط اعتاق العبيد، وتحرر كثير من العبيد بعد سفر اهل الحجاز ذعرا الى موانئ مصر والسودان، كما تفيد صكوك المحكمة الشرعية بجدة، والتي كان يمكن اتلاف الصكوك الشرعية فيها اومصادرتها بكل سهولة، وبمقابل مبلغ بسيط من الرشوة كان يمكن اتلاف اي ارشيف في المحكمة الشرعية بجدة[١].ورحب ابن سعود في حوار مع القنصل البريطاني بجدة بالتشدد ازاء منع دخول العبيد الى الاراضي الحجازية ولكنه في المقابل اعتقد ان المنع يجب ان يجري بالتدريج كون اي خطوة استفزاز قد تؤلب ضده قبائل الحجاز التي لا تزال تعتمد على العبيد وأشار القنصل البريطاني للملك برصدهم لوكلاء نجديين ينشطون في تجارة العبيد في عمان والاطراف الشمالية من الخليج العربي وتوريدهم لنجد، وأبدى الملك تفهمه وتعاونه، وفي رسالة من السير اورفالنت من الخارجية البريطانية الى القنصل البريطاني في جدة في ٢٢ ابريل ١٩٢٦م، أملى عليه سياسة بريطانيا الجديدة مع ابن سعود، وطالبه باستصدار قرارات منه بتشديد الحدود لمنع دخول العبيد المهربين للحجاز وعسير، اضافة الى منح القنصلية حق تحرير وتسفير من يلجأ اليها، ثم كخطوة تالية اعلانه لالغاء العبيد مستعيناً بفتوى من علماء مكة، وعلى نهج ما فعلت قبرص في قراراتها لالغاء الخدم المرغمين في ١٨٧٩م، على اثر رسالة اورفالنت قام جوردان نائب القنصل ببعث خطاب الى الملك عبدالعزيز في ١١ مايو

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٠٢

١٩٢٦م، بذلك الامر، وكانت سياسة ابن سعود هي عدم حرق المراحل والحرص على معاملة العبيد معاملة انسانية.

وليس كل من تحررهم القنصلية في جدة وتعيدهم الى ميناء سواكن تنتهي معاناتهم عند ذلك الحد وأُعتق سعيد أمان واطلق سراحه وأُعيد للسودان في السابق لكنه عاد ادراجه الى القنصلية البريطانية في جدة بعد ستة اشهر يطلب اللجوء مجدداً! حين وصل سعيد الى سواكن، بعد تحريره في المرة الأولى، عمِل معاوناً للناخوذة احمد مبارك الجهني على متن السنبوك (خضرا) من املاك محمد البربري من اهل سواكن، وفي رحلة تحمِل شحنة فحم متجهة الى جدة وبدلا من العودة مباشرة الى بورتسودان كما كان مجدولاً، انعطف السنبوك الى رابغ لتحميل بضائع ليجري تصريفها في جدة وبورتسودان على التوالي، ولكنه في الطريق توقف في قرية الرويس على مقربة من جدة فركب منها مصادفة مالك سعيد الذي فرّ منه في السابق، واسمه حامد بن قريب الجدعاني ومعه ثلاث عُربان هم: ضيف الله وحميد وحمدان، وكلهم من الجداعين، وحينما رأى الجدعاني عبده السابق، قام بارشاء النوخذة مقابل تمكينه من مصير سعيد، رغم اعتراض ركاب السنبوك، وقام الجدعاني ببيعه بعيد ذلك في مكة الى مالك جديد اسمه حسن أبو النجا، من اهل مكة،الذي فرّ سعيد منه بدوره من جديد الى دار القنصلية البريطانية التي وضعته للمرة الثانية في غضون ستة أشهر على متن الباخرة المنصورة التابعة للشركة الخديوية في طريق حريته الى بورتسودان.

أفارقة الحجاز: وكما هو الحال في أفارقة الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، فقد توزع أفارقة مكة على جماعات اثنية منغلقة على نفسها منذ القرن الميلادي التاسع عشر، لكل جماعة منها شيوخها وشبكتها الاجتماعية الخاصة، وتمركزت غالبيتها في منطقة البير المالح امام المنشيّة بحارة المسفلة او في حارة جرول، كان لكل جالية افريقية في مكة شيخها (كبيرها) الذي يفصل في خلافاتها بأحكام قضائية موازية، يعاضده نقيب مدجج بعصا،

يقوم مقام السلطة التنفيذية، ونحن نعلم ان من شيوخ البرنو في مكة في العشرينات الميلادية من القرن الماضي الشيخ محمد فونتامي (فولاني) والشيخ محمد جبركاني، فيما كان شيخ الفلاتة(الشيخ سمبو)، وساهم الرقيق من افريقيا الشرقية والسودان واثيوبيا وافريقيا الغربية (التكارنة) في اغناء التنوع الثقافي والإثني لمكة والحجاز١ .

ومنذ عام ١٨٨٥م وصف المستشرق الهولندي (سنوك هوروخرونيه) ملامح الحياة الاجتماعية للجاليات الافريقية/المكيّة، وكشف بعض مظاهر ثقافتهم الفرعية الهجينة، فهم يقومون باحتفالات شعبية اسبوعية تبدأ من ظهيرة يوم الخميس وتمتد الى صباح الجمعة، وكان لهم في مكة ما اسماه هوروخرونيه (الاوركسترا الافارقية)، فيلعب الزنوج في مكة بآلة العود (الطنبورة) المكيّة، فيما يرتدي الراقصون أحزمة مشغولة بحوافر الغنم تُخرِج قرقعة أثناء الرقص والاحتكاك، ثم يرقصون رقصة المزمار البلدي، وبين دورات الجوش يحتسي لاعبو العصا من شراب محلي مُسكر يسمّى البوظة، ثم يعودون ادراجهم للعمل مع ظهيرة يوم الجمعة، وبحسب هوروخرنيه كان (مأكلهم متوفر ولابأس به)، وهم بعد تحريرهم يسعى الفرد منهم للعمل بالأجرة كعمال بناء او سقائي مياه، فيما اغلبهم يفضلون البقاء تحت وصاية الأسر التي خدموا فيها خصوصا اذا قرروا الزواج، ويتصدى الزنوج ذو المواهب الأكثر بروزاً للأعمال المنزلية او يعملون كأمناء متاجر ومحاسبي دكاكين تجارية، وأغلب عبيد المنازل يجري اطلاق سراحهم حال تجاوزهم سن العشرين، نظراً لخوف ملاّكهم من استمرار اختلاطهم كبالغين مع نساء الأسرة وجواريها، ثم ان التحرير يبقي العلاقة مستمرة انما يمنح المّلاك فسحة من الثقة مع الأفراد المُحررين.

---

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٠٥

إزدهار العبودية في عهد آل سعود : لم تفرّق نزعة الاسترقاق بين العبيد وأسيادهم من أسرى مكة وجدة، نتيجة الحرب التي دارت بين آل سعود وموالين الهاشميين، ومن بين تلك القضايا رسالة إستغاثة قام بإرسالها (عيد بن سالم) احد سكان المدينة المنورة الذين تم أسرهم في معارك الاخوان وتم بيعهم، بعثها في الحادي عشر من ابريل ١٩٢٦م الى الوكيل القنصلي البريطاني في مدينة لنجا الساحلية (على سواحل فارس!) يخبره بملابسات اختطافه، فحينما حاصر جيش السلطان بن سعود المدينة كان عيد يخدم في حامية مدائن صالح ومع سقوطها تم تسليمه لجيش ابن سعود فنُفي الى قطر وهناك تملكه محمد بن فضال لمدة شهر ثم اخذه في قارب لثلاث اشهر بين جزر اللؤلؤ، وهناك حاول بيعه في جزيرة الشيخ (وهي جزيرة فارسية) لكنه هرب قبل ان يوقف في ساحل فارس ليعود ويمكث مع مالكه في نخيلو، حتى هروبه الثاني الى لنجا حيث يريد حسم امر حريته واثبات هويته.

وكان عيد بن سالم قد خدم في جيش الشريف حسين النظامي منذ ١٩١٥م ، وأكدّ في رسالته ضرورة إبلاغ كل من عمّه (جمعة بن شليّه واخوه هو عايض بن سالم)، وكذلك الشريف شحات، والشريف ناصر، واسعد بن طاهر سنبل وعبدالمحسن بن طاهر سنبل، وقد أظهرت وثائق الخارجية البريطانية، في مايو ١٩٢٦م، في رسالة للكولونيل بريدو، المعتمد السياسي في الخليج العربي حينها، بأنه تم بالفعل مخاطبة القنصل البريطاني بمكة حول قضية (عيد سالم) وتم إطلاق سراحه من العبودية لاحقاً !!، وتبين بالتحقيق تورط اسماء تجار من نجد والحسا يتاجرون بتهريب العبيد من سواحل الامارات الى نجد، منهم (عجيل النجدي في دبي، ومحمد القفيدي بدبي والشارقة ونوّاف البريمي، وبن عتيق في الشارقة وعجمان، وعبدالله الطويل في الشارقة، ومحمد بن عبدالله النصيبي في عجمان)، وقد وقّعت حكومة الحجاز، تحت الادارة السعودية الجديدة، اتفاقية الغاء الرق في جنيف في سبتمبر ١٩٢٦م، لكن دون تفعيل.

وفي عام ١٩٢٦م استخدمت حكومة التاج البريطاني اسطولها الرابض في مالطا لمراقبة تجارة العبيد في البحر الاحمر، وكانت بريطانيا لا تزال تُحكم السيطرة على البحر الاحمر، الشريان الإستعماري الاكثر اهمية لها، وتحركت البوارج البريطانية (كورنفلاور-العنبر) القادمة من مالطا بين كل من عدن وجدة وبورتسودان، وكذلك البارجة داهيلا (زهرة الأضاليا) توجهت من مالطا للبحر الاحمر في ١٩٢٧م، إضافة إلى البارجة كليماتس (الياسمينة) توجهت من ميناء بورتسودان الى مالطا عبر جزر كمران اليمانية، وكل ذلك لفرض سيطرتها الإستعمارية في تلك المناطق بحجة مراقبة سفن نقل العبيد١.

وكان متعهدو نقل العبيد بين ضفتي البحر الاحمر متى ما صادفوا بارجة حربية بريطانية، فانهم يوعزون في فورهم للعبيد بسرعة الاختباء، بعد ايهامهم بأن هؤلاء الرجال (البيض) انما هم من فصيل (أكلة لحوم بشر)، ومن سخرية الأقدار ان البارجة (كورنفلاور) التي كانت تُستخدم للتفتيش عن العبيد المهرّبين في سنابيك البحر الاحمر، كانت هي من تولى نقل الشريف علي بن الحسين، آخر ملوك الحجاز الهاشميين الى منفاه الأخير في ٢٥ ديسمبر ١٩٢٥م، وفي مايو ١٩٢٧م اعترفت بريطانيا رسمياً بالحكم السعودي لمملكة الحجاز ونجد، وأصبح السير اندرو رايان، ممثلها في قنصلية جدة، أول مسؤل دبلوماسي رفيع بعد التحولات السياسية الأخيرة وصعود ابن سعود على عرش الحجاز، وتم توقيع الاتفاقية البريطانية-السعودية، فيما يعرف باتفاقية جدة، وجاء في مادتها السابعة ان (يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بأن يتعاون بكل مالديه من الوسائل مع صاحب الجلالة البريطانية في القضاء على الاتجار بالرقيق) ، لكن في السابع من يوليو ١٩٢٧م قامت السفينة الشراعي (سلك الهوا)، التي يملكها حاجي محمد، ويقوده الناخوذة محمد صالح الدنقلي، بنقل ٧٥ عبد اثيوبي من أملاك التاجر احمد عمر، الذي جلبهم من جيبوتي، بالقرب من تاجورة، مورّداً اياهم الى موانئ زيلع

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١١٥

(الصومال)، وأوبخ (جيبوتي) ومنها الى المخا (اليمن) ومن الأخيرة الى الحجاز بالتهريب، وقدرت الوثائق البريطانية انه في عام ١٩٢٧م وحده تم تهريب ما بين ثلاثمائة الى اربعمائة عبد بين اثيوبيا وحدها الى موانئ الجزيرة العربية، وكانت آلية تهريب العبيد الاثيوبيين تجري بأن يُخطَف العبيد الاثيوبيون وخاصة البنات من انحاء أديس أبابا الغربية من جماعات كافا وولغا وبني شنقول وهؤلاء مقرّهم غرب اثيوبيا وهي منطقة تتبع شيخ الخوجلي الذي كان يفرض رسوم ضريبية على تجار العبيد فيها وكلهم من اصول عرقية زنجية يُسَمون باللغة الأمهرية بجماعة(الشنقيلة)[1] .

وهم ليسوا أشداء مثل جماعات الجلاس، فالجالاس والأمهريين هم من يخطف العبيد الزنوج ويتاجر بهم، ثم يعبر العبيد المخطوفون في مسارات سريّة الى شمال اديس أبابا حيث اسواق العبيد في باتيس وداوا (مناطق تابعة للعيسى) ومنها يساقون الى تاجورة من خلال التُجار الدانقلة ثم يجري في تاجورة تنظيم العبيد بجبل الغواد .



ميناء المخا في اليمن٢

ويفرض عليهم سلطان راهيتا ضرائب تجبى عبر شيوخ قبيلة العيسى الصومالية، ثم يباع العبيد الى التجار العرب في جيبوتي مقابل ١٦٠ دولار للرأس[(1)]، ثم لا يبعثون من

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١١٧

٢ - المخا هي إحدى مدن محافظة تعز، تقع مدينة المخاء على ساحل البحر الأحمر اشتهرت المخا لميناءها التاريخي حيث كانت السوق الرئيسية لتصدير القهوة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، وقد أخذت قهوة الموكاوالموكاتشينو الاسم من هذا الميناء.

موانئ تاجورة الرئيسية مباشرة توجساً من الرقابة البحرية، فيرحلون بدلا من ذلك الى رأس دمار(اليمن) حيث يفرض سلطانها المحلي ضريبة اضافية عليهم، وحينما تهب الرياح الجنوبية على البحر الأحمر بين شهري نوفمبر ومارس، تنشط السنابيك وترفد سواحل جيبوتي موانئ الجزيرة العربية بأسراب العبيد والجواري صغيرات السن، وكان سلاطين الدناقلة بساحل جيبوتي يتقنون صناعة النعل والسِكافة بشكل ماهر، لكنهم تورطوا الى جانب ذلك في تجارة وتسويق الجواري ، وكانت الحكومة الفرنسية بجيبوتي تقاسم السلطان الدنقلي ارباحه من تجارة العبيد.

وتحمل السنابيك في البحر الأحمر الكثير من الحصى الصغير (الصابورة) التي تستعمل كثقل الموازنة، وكانت تستخدم لتقييد ايدي العبيد، وفي الحجاز تكون اقرب الموانئ لهم (القنفذة والليث وراس الأسود جنوب جدة)، ويرسون بأعداد كبيرة في الاخير، ومنها يجري تهريبهم الى اسواق جدة، وتصل اسعارهم في جدة الى ستمائة دولار، ويباع أعداد منهم للسوق المحلي، وجزء آخر يشتريه حجّاج اسطنبول والقاهرة وينقلونهم معهم الى ديارهم، أما من يبقى يُعاد توزيعه الى ميناء المخا في اليمن، وفي هذه الفترة كانت قبيلة الزرانيق البحرية جنوب الحُديدة من اكثر القبائل استهلاكاً للعبيد في الجزيرة العربية، ومن طرق تهريب العبيد الذين يجري شراؤهم بشكل فردي رشوة القضاة في تاجورة بخمس او عشر دولارات مقابل ان يصك لهم ورق زواج مع الفتيات فيتم تهريبهن بأوراق رسمية، وفي الضفة البحرية المقابلة من الجزيرة العربية كان يُخطف صغار الهنود والبلوش[١]، لاستخدامهم في العمل في قوارب صيد اللؤلؤ بالبحرين والكويت، وفي عام ١٩٢٨م كان عبدالله بن محمد دوار، في دبي، هو أكبر وكيل لبيع العبيد المجلوبين من كراتشي.

---

١ - دول بلوشستان وهي الهند وباكستان وإفغانستان

وكانت السفن الشراعية (السنابيك) في البحر الاحمر تنقل بين موانئ راس المدر وعدن والحديدة والمخا وجدة وعصب وجيبوتي ، كل من السكر والتبغ والكيروسين (الجاز) والقهوة والحبوب والتمور، الى جانب العبيد، وترفرف على صواريها اعلام كل من مملكة الحجاز وايطاليا والحكومة العربية (دولة الإمام في اليمن)، وفي ميناء جزيرة بريم في مدخل باب المندب كان من وكلاء تجارة العبيد شيخ سعيد وهو وكيل السنبوك (متساهل) لمالكه محمد هادي في تاجورة، ينقل الخشب والفحم، وعبيد علوي الذي اقلع لاحقاً عن تهريب العبيد وبات يعمل في صيد الاسماك بالقرب من جزر كمران، وفي جيبوتي الشيخ ابراهيم صالح، وكان يسيطر على ساحل تاجورة، والشيخ محمد قاسم الدنقلي والشيخ عبده داود الدنقلي، ويذكر الأرشيف البريطاني أنه في عام ١٩٢٨م تنقّل وكيل إستخبارات بريطاني سري بين مقاهي جيبوتي المرصوصة على الميناء وقدم تقريراً عن الحياة الاجتماعية لنواخذة السنابيك فيها، وجاء في التقرير أن من كبار النواخذة في حينه(ابوخليل)، وهو مالك وناخوذة سنبوك (صاح الله) في جيبوتي وعليه علم ايطالي، ومثله محمد شحيم، وهو دنقلي، كان ناخوذة لأحد السفن الفرنسية لكنه يملك قارباً (زاحف) ينقل عبيدا فيه، وعلوي حكمي وسنبوكه (الهبوب) ، وأحمد سيموح كان وكيلاً تجارياً في الميناء، يعمل لصالح الشيخ عيسى الثاني والشيخ ابوبكر الثالث وهما رجلان مُسلحان يعملان في تجارة السلاح والعبيد، يحتكران التجارة الذاهبة لميناء الطائف اليمني التاريخي (في حدود الحديدة وهو غير مدينة الطائف الحجازية)، عند رجل محلي (احمد الفتياني) وهو شيخ الطائف، وهناك سنبوك (المايل) للناخوذة عمر سعيد الوحيش ويعمل مع تجار تاجورة وزعماء العفر (الدناقلة)[1].

ومع مرور الوقت تناقص أعداد لجوء العبيد للقنصليات الأجنبية في جدة بشكل كبير، وان لم تنتهي تجارة العبيدً، إلا أنها إنحسرت بشكل ملحوظ، وحملت الثلاثينات للحجاز،

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١١٨

والتي سبقها عقدان دراميّان شهد فيهما الحجاز؛ انقلابين في دار الخلافة وثورة كبرى في مكة وحرباً عالمية وأخرى حدودية وفترتيّ حصار وجوائح وبائية وتمردات قبائلية شتّى ، حملت، عكس كل ذلك، استقراراً مطلقاً، انتعش فيه الميناء، وتماسك فيه موسم الحج، فانفتح الأهليون بشكل هائل على العالم وروح العصر.

وفي الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٣١م سلّم احد العبيد، نفسه لدار السفارة البريطانية في جدة طالباً تحريره وارساله الى بلاده في بورتسودان، مما تسبب في اندلاع فتيل أزمة دبلوماسية بين البلدين، وكان هذا العبد يدعى (بخيت) قد تم تقديمه كهدية (كما جرت العادة العشائرية حينها)، من ابن مساعد (امير حائل) الى الملك، لكنه لم ينخرط حقيقةً في القصر الملكي، وظل في مقابل ذلك يخدم في دار الوزير عبدالله السليمان في مكة، واجاب الشيخ حافظ وهبة، من الطرف السعودي، في التاسع عشر من يناير ١٩٣٢م ان بخيت هو احد عبيد القصر الملكي الذين لا تشملهم اتفاقية جدة، وكان وهبة يشير الى الفقرة (أ) من المادة السابعة من اتفاقية عام ١٩٢٧م، وكان في مفاوضات اتفاقية جدة مع السير جلبرت كلايتون ان أُستثني عبيد القصر الملكي كونهم في حقيقة الأمر اما جنود او خدم خاصين، وكان بخيت قد فرّ مع عبد آخر يدعى هارون، من بيت عبدالله السليمان للسفارة البريطانية مطالبان بتسفيرهما الى السودان، كان هارون قد خطف في موسم الحج وتم بيعه، اما بخيت فقد خطف وهو طفل من جيبوتي وتم بيعه صغيرا في الحجاز، ثم خطف من جماعة من البدو فيما كان يلعب خارج سور جدة في الكندرة، واخذوه الى اليمن حيث بيع من جديد لأحمد بن غصين الذي عاد به الى مكة وبيع مجدداً الى سيّد جديد هو شاكر ابوجمال (من أشراف مكة) ،حيث مكث معه خمس سنوات ثم بعث به مع عائلته للمدينة فيما بقي هو في مكة وحينما سقطت المدينة في يد السعوديين أخذه ابن مساعد في حائل وبعد سنوات من ذلك بعث به الى بن سليمان حيث امضى ١٨ شهرا

قبل ان يهرب من بيت اخيه حمد السليمان الى السفارة البريطانية[1] .وفي ٢٦ ديسمبر طالبت النيابة العامة في الحجاز باعادة السفارة البريطانية في جدة لبخيت وتسليمه الى نائب قائمقام جدة السيد (علي طه رضوان)، وأرسل فؤاد حمزة، من الخارجية السعودية، رسالة في ٢٩ يناير، الى السفير اندرو رايان يخبره بأن المسألة باتت مسألة مبدأ، وان الحكومة السعودية لا ترضخ من منطلق سيادي لرغبة البريطانيين في اي شأن خارج عن اتفاقية جدة ١٩٢٧م، لكن في ذات اليوم كان اندرو رايان قد بعث ببخيت على متن السفينة بينزانس، ومن بعدها، في الثالث من فبراير، اصدرت السلطات السعودية قرارا مشدداً بأنه لا يحق للسفارة البريطانية تسفير اي شخص على اي قارب سوى بموافقة مسبقة من أمير جدة الذي يصدر وحده تأشيرات الخروج، اما ان كان عبداً لاجئاً تم تحريره فيستلزم موافقة خطية من امير جدة قبل ترحيله، كان من العويص شرح كنه العلاقة بين جلالة الملك ووزيره الأول الشيخ السليمان لأيٍ من الغربيين، كما كان يتعذر للغربيين فهم نفسيات عبيد القصور الملكيّة حينها او بشكل ادق غالبيتهم.

وكان بعض اؤلئك العبيد يحظون بامتيازات تفوق تلك الممنوحة لدى الأعيان والأهليين، وكان الملك يقرّب اليه افراداً منهم، وكان مواليد القصور يحظون برعاية كبيرة، بل ان بعضهم يتكبّر على المواطنين ويمارس اضطهاداً ممنهجاً ضدهم مدعوماً بما يتوهمه من نفوذ خاص، حد ان نكتة محلية شاعت في العشرينات في الدوائر القنصليّة بجدة وصلت الى نائب القنصل البريطاني تقول بأنه يجب نقل جميع التكارنة للجزيرة العربية لتتحسن احوالهم المعيشية لكن القنصل، في تقاريره، استهجنها وأنكرها، وان لم ينكر أصلها!٢ .

وتمتع حِلوان، احد عبيد القصر الملكي بحظوة وثقة هائلة وكان قائداً عسكرياً لاحد ألوية جيش جلالة الملك التي شاركت في تأديب عصيان ابن رفادة عام ١٩٣١م، ولوجود أفارقة ملحقون بالحراسة الأميرية الخاصة جذور عشائرية قديمة في الجزيرة العربية، لقد

---

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٢٠

٢ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٢٥

منَح قانون الولايات العثماني أمير مكة حق تشكيل حرسه النظامي الخاص فكوّنه في عام ١٨٧٢م من مجموعتين، البياشة، وهم من اهل وادي بيشة بعسير، والتكارنة، واغلبهم من العبيد المعتقين القاطنين في مكة من اصول نيجيرية وكونغولية، وقد انحصرت مهتهم اول الامر في تأمين سلامة القوافل بين جدة ومكة، وبين مكة والطائف، ثم شكلّوا نواة جيش الشريف النظامي، ومحمد عبدالقادر محمد فلاتة، تم بيعه صغيراً على كذا بيت في مكة ثم امتلكه الأمير سعود ولي العهد الذي اعتقه في يونيو ١٩٣٨م، لكنه آثر البقاء عنده، فتزوج وتسلّك في الحرس الخاص لقصر ولي العهد.

وفي عام ١٩٤٤م اصيب القيّميين على فندق وولدورف استوريا في نيبورك بصدمة كبيرة عندما أحضر الأمير فيصل معه عبده الافريقي مرزوق، اثناء زيارته الرسمية، وقد أصرّ الأمير على أن يأكل مرزوق معه، كما هي عادته، وذلك كان يعني دخول مرزوق لقاعة المآدب الشهيرة (ويدجوود روم) التي لم يكن يسمح لزنجي أبداً ان يدخلها، وبرز في الاربعينات الميلادية نفر قليل من اعيان جدة، كانوا رقيقاً في اصولهم، حتى انه كان من النادر ان تجد اي عائلة تجارية دون ان تجد تميز احد افرادها بلون اسمر، يحمل اسمها ويعمل في ادارة بيتها التجاري، وكان المعتنون بالكعبة واعمال المسجد النبوي عبيداً (أغوات) طائلي الثراء والمتانة الوقفية وواسعي الوجاهة الاجتماعية في الحرمين الشريفين.

وقدرَ السير رايان، قنصل بريطانيا في جدة، عدد عبيد القصر الملكي بحوالي ثلاث آلاف ، القليل منهم بالاقتناء، فيما غالبيتهم بالاهداء او مولدون، حيث كان تجار الرق، انطلاقاً من العادات العشائرية البالية، يهدون الملك العبيد بكثير من الحماسة طمعاً في التعويضات الملكية السخي، ولكن قبضة الوزير عبدالله السليمان الصارمة، وسياسته المتقشفة والحريصة على المال العام وعلى عدم تكبيد الموازنة اية مصاريف اضافية في سنوات التقشف، مما ساهم في ابطال تلك العادة، وكان من اشهر دلاّلي الجواري في جدة

(باسترة أفندي، وأبوالسعود) وفي وكذلك حسن العمودي (حضرمي) وأحمد بن سيف (من بدو الحجاز) وشمعون بن عمر (صومالي/ ايطالي) واحمد الحنبولي (جدّاوي) وأبو زيدان (جّداوي) والليّاتي (جدّاوي)، وبات العبيد يرسون مباشرة في ميناء جدة، عكس السابق حينما كانوا ينزلون في النزلة اليمانية في ظل اقبية معدة خصيصاً لذلك ، حيث الجو خانقاً والروائح لا تكاد تطاق والدكّة كان فيها رجال ونساء مختلطون، وآخر مقر لبيع العبيد بجدة كان في منطقة حوش الهواشم ، داخل سور المدينة القديم، واحد مكافحي تجارة العبيد في ساحل جيبوتي هو السيّد علي العطاس، وهو أخ السيّد حسين العطاس من تجار وأعيان جدة، وكان العطاس قد اخبر نائب القنصل البريطاني في جيبوتي بتحركات تجارة العبيد[١].

مقايضة العبيد بالسلاح :

كان الشيخ محمد بابو احد شيوخ دنقلة ،ومحتكر تجارة العبيد في ساحل جيبوتي في عام ١٩٣٤م، قد فرض على جميع السنابيك المغادرة مينائي تاجورة وأوبخ بحمولات العبيد لميدي او جيزان ان تجلب معها في ايابها حمولات سلاح، فكانت السنابيك تتظاهر بنقل الخشب والفحم لكنها تقايض حقيقةً العبيد بالسلاح، وقدرعام ١٩٣١م، عدد العبيد بالسعودية بأربعين ألفا،: مكة(ثلاث الاف)، جدة(ألف)، رابغ(خمسمائة)، الوجه وينبع والطائف والمدينة وشمال الحجاز(خمسمائة)، القنفذة، ميناء البرك، جيزان وعسير(عشرة آلاف)، بادية الحجاز(خمس آلاف)، الرياض وبادية نجد وتحديداً واحات الاحساء والبريمي (عشرون ألفاً) ، وانحصرت جنسيات العبيد في هذه الفترة بين سودانيين او اثيوبيين حاميين او تكارنة، ويمنيّات، وعند اهالي الحجاز كان يوجد جواري وعبيد جاويين وهنود وماليزيين.

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٢٧

وفي ٢٢ فبراير ١٩٣٤م، أصدرت لجنة الرقيق في عصبة الأمم تقريرا عن تزايد تجارة العبيد بين افريقيا والجزيرة العربية، وعلى إثرها سارعت البوارج الحربية البريطانية في تفتيش السفن الشراعية بالمياة الدولية في البحر الاحمر بحثاً عن السلاح والعبيد، وفي اكتوبر ١٩٣٦م أصدرت السلطات السعودية مرسوماً من ستة عشر مادة، يحظر ادخال الارقاء للسعودية (مالم يبرز جالب الرقيق وثيقة حكومية رسمية تخوّله بذلك)[1] ، كما حظر استرقاق الأحرار، ولم يلغ ممارسة الرقيق، الا انه اعترف بها كظاهرة ونظمها وجعل للعمل فيها وكيلاً او سمساراً برخصة رسمية، اما من يخالف تلك التعليمات تنذره الحكومة بعقوبة حبس لمدة لا تزيد عن سنة، لكن هذه القرارات شكلت رخصة حكومية لإستيراد العبيد!!، وازداد اصرار الملاك على ابقاء عبيدهم للندرة الحاصلة في الأسواق فنتج عن ذلك تقلص مطرد لنشاط العتق، واستمرت الممارسات بشكل مُستتر، وكان جابر احمد من اهل كسلا في السودان في أسر العبودية في الحجاز حتى حرر في عام ١٩٢٧م، وحينما عاد للحج بعد عشر سنوات في ١٩٣٧م رصده مالكه السابق الحسين بن علي الحارثي من أشراف المضيق، واثر مشادة وقعت بينهما أصر الأخير على استعادته فعصى لكنه ألحقه بحاشيته بالقوة، فارسلت القنصلية البريطانية من السفير بولارد للأمير فيصل نائب الملك تطالبه باطلاق سراحه في الثاني عشر من يونيو ١٩٣٨م، فنال حريته ورحل ادراجه على احد سفن شركة جلالتي هنكي الى ميناء سواكن.

ومع عام ١٩٤٣م خفت نشاط شراء الجواري، واصبح التسري يمارس بعيداً عن أعين الزوجات اللاتي بتن مع الانفتاح على العالم يرفضن على أزواجهن ذلك النمط الشاذ من الممارسة الجنسيّة، وكان آخر ثلاثة وكلاء للعبيد في مكة في يدهم كل التجارة، وكان آخر المسيّطرين عليها بحسب وثائق الخارجية البريطانية (ميمش، والقرّعا، وبن ناصر)، والأخيران نجديّان، وصعد افراد من نجد في دلالة العبيد في مكة، كون بوصلة جلب

---

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٣٠

الجواري الى مكة باتت تتجه شرقاً، حيث تجلب الجواري من التجار النجديين عبر واحة البريمي والساحل الغربي للخليج، بلوشيات وفارسيات بدلاً من الأجناس المعتادة الافارقة والاحباش والجاوا.

ومن ابرز التجار النجديين في سواحل الخليج، عبدالله بن سالم بن غراب، ومبارك وعبدالعزيز الدليمي، وعلي بن موفي الودعاني، وسليمان بن موسى، وعبدالله بن خفره، وعبدالله بن غانم العوار ، وهذا الاخير كان اصبعه الاوسط في يده اليمنى مقطوعا وكان يبيع الجاريات في الدوحة، وحينما قُبض عليه في سبتمبر ١٩٥٢م حلف أيمانا مغلظة انه ترك التجارة منذ خمسة عشر عاما وانه يعمل الان في الزراعة وان المشتبه به هو عبدالله بن غانم القطري وهو شخص آخر ولكن تبين لاحقا ان كلاهما يعمل في تلك التجارة، ولايمكن الجزم بان جميعهم كان يتاجر بشكل حصري في العبيد، لكن اسماؤهم وردت في الوثائق البريطانية مرة واحدة على الأقل، وطالب السفير السير تروت في ديسمبر ١٩٤٧م، من يوسف ياسين من الخارجية السعودية، بملاحقة المتورطين في تجارة الرق في البحر الاحمر، وانزال اشد العقوبات عليهم، وكانوا: احمد ابوصالحه في ميناء البرك (عسير)، بن سيف في الرويس، وحسن العمودي في جدة، وفي ١٩٤٨ قبضت السلطات السعودية على احمد علي ابوصالحة وهو يُهرّب العبيد سراً من مصوّع الى ميناء البرك في عسير.

ومن تجار العبيد في الرياض حينها بحسب الوثائق البريطانية (ابن غراب المري، وجابو بن حضفه وبن عبدربه، وهم يحضرون الجواري عبر حمد البوشامس من دبي او مسقط الى كبار المستهلكين في الاحساء والرياض. وكان كبير التجار في سوق الرياض اسمه عبدالله بن مروان، وفي الرياض كانت الجارية الجميلة تباع بسبعة عشر الف ريال، والمتوسطة الجمال تباع بسبع الى ثماني آلاف.ومع عام ١٩٤٨م خفت اهتمام السعوديين باقتناء العبيد الذكور، وفي الخمسينات الميلادية تلاشت تجارة العبيد، وانقشعت مظاهر العبودية

تقريبا عن جدة، فيما بقيت في الرياض ومكة والمدينة، وان حُصرت في الجاريات المجلوبات من حضرموت واليمن والبلوشيات المجلوبات من السواحل المسقطية والسواحل المتصالحة، فلم تعد تأتي الافريقيات، من موانئ جيبوتي والصومال، كما في السابق[١].وفي السادس والعشرين من نوفمبر ١٩٥٢م ارسل يوسف ياسين، من الخارجية السعودية، خطاباً لبيلهام يخبره ان الحكومة السعودية ترغب في اخطارها عن اي رعايا سعوديين يرحلون الى امارات الخليج بحثاً عن عبيدهم الفارين، وان الحكومة السعودية لا تريد التهاون في هذا، وفي نوفمبر ١٩٥٣م ارسل السفير الفرنسي في جدة قائمة بمن يشتبه بهم بنقل العبيد الى ساحل جدة وذكر منهم، أحمدو بوبوي وهو سنغالي مقيم في جدة، والشيخ عبدو بجني من النيجر يقيم في جدة، والشيخ عبدالله البحيري من كبار حارة اليمن في جدة وهو من شيوخ الدلالين، واتبعها بقائمة لدلالين اقسم يقيناً بأنهم يبيعون الجواري مباشرة للقصور والمتنفذين والميسورين، وهم: عمر كِندي / سنغالي في مكة، حاج محمد عمر فتاي / سنغالي في جدة، تيرنو يوروبا / سنغالي في جدة، احمدو تديان ديو في جدة، حاج بلي / سنغالي في مكة، محمد طاهر / من الطوارق يقيم في السودان ويتاجر في جدة، ومحسن، وهو نيجيري موظف في شركة باكر الامريكية في جدة، وقُبض على محمد حسين وهو يتاجر في الكربلاء والنجف وكان يجمع خمسين فتاة صغيرة ليحضرهن للرياض وقد حكم عليه في العراق عام ١٩٥٥م بالسجن عشر اعوام، فضرب الكساد سوق الرياض حيث كان يتعيّن على كل تاجر عبيد ربط سبع الى ثماني من العبيد خلفه والمشي بهم، فيما كانت دكة الرقيق في مكة تحتضر وتعيش آخر أيامها.

ولم يكن عقد الخمسينات ناصعاً على سمعة وصورة السعودية دولياً، ففي عام ١٩٥٣م قامت حملة إعلامية كبرى بفرنسا على قانون الرقيق في السعودية، كما اشتدّت ضرواة

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٣٥

دعوات الخارج والداخل على الحكومة لحسم ملف العبيد للأبد، واستوعبت الحكومة العبيد المعتقين حديثاً في مكة وفرضت عليهم دفع رسوم اقامة سنوية، وقام الأمن العام منذ ٢٥ ابريل ١٩٥٢م بتنظيم المسألة بشكل أكثر مرونة، وصعد مطلب الغاء الرق منذ الخمسينات عند الحركات القومية والوطنية الشعبية الداخلية،وفي ميثاق جبهة التحرير الوطني العربية الصادر عام ١٩٦١م، نلاحظ حضوراً مركزياً لمسألة الغاء نظام الرقيق وتحرير الارقاء كأحد مطالب برنامج الاصلاح، وكان ذلك ذروة حراك وطني سابق امتد لأكثر من عشر سنوات اجتر ذات المطلب.وفي السادس من نوفمبر ١٩٦٢م اصدر الأمير فيصل بن عبدالعزيز، ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء السعودي، برنامجه الاصلاحي المعروف بـ (النقاط العشر) الذي قضت نقطته العاشرة بالغاء الرق مطلقاً، وتحرير جميع الأرقاء وتعويض مُلاكهم، وصار الناس في ارتباك، فالقرار كان يكتنف طرق تطبيقه الكثير من الغموض، والنقاط العشر كانت مُغلفة بلغة عمومية غير حاسمة، وكتب صالح محمد جمال بجريدة الندوة المكيّة في ٢٦ نوفمبر ١٩٦٢م مُنتقداً(كثير من الارقاء ينتظرون ان يُبادر مسترقوهم بتحريرهم واعلان ذلك لهم تنفيذا لقرار الحكومة الا ان احدا لم يحرك ساكنا، ويبدو انهم ينتظرون ان تاتي اليهم الحكومة لتدفع لهم التعويض سلفا، ان تلك الفقرة الموجزة في البيان الوزاري عن الغاء الرق اصبحت في حاجة الى مذكرة ايضاحية مستعجلة يجري اعلانها للطريقة التي يجب ان يتم تنفيذ التحرير)، واستجاب مجلس الوزراء للتساؤلات التي انطوى عليها مقال جمال وغيره، وأصدر قراره رقم (٤٣٠٥) الصادر في التاسع من يناير من عام ١٩٦٣م، مبيناً الطريقة التي سيتم بها التعويض، مفوضاً وزارة الداخلية الى اشعار المواطنين الذين كانوا يمتلكون رقيقاً بالتقدم بطلبات التعويض صحوبة بالوثائق والصكوك الشرعية الى اللجان المختصة، واعتمد مجلس الوزراء السعودي مبلغ خمسة ملايين ريال سعودي، كدفعة أولى لتعويضات الرقيق.

وشُكّلت لجان تعويض المّلاك في ٢٦ مدينة سعودية، من جدة ومكة والقنفذة الى الدمام والحساء، ومن الجوف والقريّات لبيشة وجيزان، مروراً بالرياض والحوطة وبريدة وشقراء، وكان الرقيق قبل البيان الايضاحي ينفرون اجتهاداً الى الديوان الملكي في الرياض يطلبون اوراق تحريرهم ومن ثم يعودون الى ملاّكهم يقدمونها لهم ويخيّرونهم بين اطلاق سراحهم لوجه الله وبين رغبتهم في طلب تعويض من الحكومة، وبادر الشيخ علي طايع، من أثرياء محلة شِعب عامر في مكة، فاعتق وحده مائة رقبة ما بين جارية وعبد، وقام الشيخ مساعد السديري بعتق جميع عبيده البالغ عددهم ١٧ شخصاً بين ذكر وانثى، وسجّل ذلك في محكمة تبوك، وحرر وزير الداخلية فهد بن عبدالعزيز جميع الارقاء التابعين له وقدم لكل منهم صكاً بتحريره!! ، كما قام اللواء علي جميل، وحرمه المصون في مكة، بتحرير كافة الارقاء لديهم،(وتأملوا بأن كل تلك الأحداث كانت في ستينيات القرن الماضي فقط!!)، وعلى العموم انطوت الصفحة رغم ممانعة أعداد من ملاّك العبيد في السعودية، وارسل الرئيس الأمريكي (ج.ف. كيندي) تهنئة الى الامير فيصل ولي العهد ، يشكره على الغاء الرق، ويعلن عن عصر جديد في العلاقات الامريكية والسعودية!!، فرد عليه الأمير فيصل في ١١ يناير ١٩٦٣م قائلاً: (ان القضايا الأصلية لشعوب هذه المنطقة رفع مستوى السكان واستغلال كافة طاقاتهم وزيادة دخلهم القومي وتزويدهم بمؤسسات ديموقراطية للحكم يستطيعون في ظلها التعبيرعن ذاتهم وأمانيهم وآمالهم في حرّية بناءة١.

تنويه : يود الكاتب لفت عناية القراء الكرام، أن هذا البحث يعتمد في مصادره، وبشكل خاص في هذا الفصل، على أرشيف وزارة الخارجية البريطاني ، فهو يمسح بشكل موضوعي وشامل ودقيق جميع المراسلات الرسمية لدار الاعتماد البريطاني (القنصلية) في جدة فيما يخص مسألة العبيد، كما يستعين بوثائق تم جمعها من أرشيفات أخرى

١ - تاريخ اشراف الحجاز ، محمد زيني ، مرجع سابق ط ١ ، ص ١٤٨

كأرشيف وزارة الهند البريطانية، وأرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ووثائق من الأرشيف العثماني ، ومواد أرشيفية صحفية تعود لبعض وكالات الاخبار العالمية والصحف المحلية، ومؤلفَات لمؤرخين محليين مثل أحمد زيني وعبدالله غازي و المستشرق الهولندي سنوك هوروخرنيه والضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين ، وصحافيين عرب كأمين الريحاني، وبعض مذكرات القناصل المتعاقبين على جدة.

العبودية

في دول أفريقيا الإسلامية

للرق تاريخ طويل في أفريقيا يعود لما قبل الحكم التركي(١٨٢١ ـ ١٨٨٩) الا ان التوسع والتحديث في الاقتصاد الزراعي في ذلك العهد واكبه نمو ملحوظ بامتلاك الرقيق الزراعي، كما اصطحب قيام الدولة المركزية نمو متزايد لظاهرة الرقيق العسكري، فامتلاك العبيد في عهد الفونج (العهد الذي سبق الحكم التركي) كان مقصورا



على النبلاء والاقطاعيين، كما اقتصر دور الأرقاء على القيام بالأعمال المنزلية، والمعاونة في الزراعة المحدودة، والتسري (الإماء)، فالرق، اذن، كان مؤسسة بارزة في المجتمع الأفريقي قبل مجيء الأتراك، وكان ذلك المجتمع يشبع حاجته للعبيد باصطياد غير المسلمين من الجزء الشمالي من جنوب السودان (خاصة مناطق النوبة) ، وجنوب النيل الأزرق على حدود إثيوبيا، حتى إثيوبيا نفسها لم تنجح من قناصة الرقيق السودانيين، خاصة لاستجلاب النساء المكاديات (مكادا اسم عربي قديم في اثيوبيا)١.

وما زال أهل الشمال حتى اليوم يحسبون الزبير ود رحمة (أحد تجار الرقيق الشماليين) واحدا من ابطالهم، ويتوسلون المعاذير لولوغه في النخاسة، من تلك المعاذير افلاحه في نشر الاسلام في الجنوب واقامته دولة فيه، وبسالته في حروب الأتراك، وما اقام الزبير الا سلطنة عبودية، هو سيدها الاكبر، ومثل كل البنى االإجتماعية كانت تحكمها تراتبية اجتماعية يهيمن فيها الاكبر على اصغر، والذكر على الانثى والسيد على العبد، وادنى

١ - سردار أحمد العلمانية، الدين السياسي ونقد الفكر الديني، الحوار المتمدن، العدد: ٣٧٩٨ - ٢٠١٢ / ٧ / ٢٤ .

طوائفها العبيد، ولا شك في ان الاسراف في تمجيد الرجل ـ رغم إجماع المؤرخين على شجاعته وطموحه ـ يشي بفقدانه للحساسية تجاه ضحاياه، خاصة وما زالت ممارسات الرق تلقى ظلا كثيفا على العلاقات الشمالية الجنوبية، أي العلاقات بين الورثة المعنويين للزبير والورثة المعنويين لخصومه.

لهذا فإن الاسترقاق في الشمال النيلي في عهوده الأولى لم ينحصر على النوبة والأحباش والشلك، وانما كان الشماليون انفسهم يغزون بعضهم البعض من أجل السبي، ومثال ذلك حملات النوبة ضد المستضعفين من حولهم، ووراء حملات النوبيين على من جاورهم تاريخ طويل منذ ان اخذوا يدفعون بالقادرين من بنيهم وبناتهم الى الحاكم الاسلامي في مصر امتثالا لاتفاق مذل تعاهد فيه حاكمهم قليدرون مع عبد الله بن أبي السرح على ان يعطيهم الأمان لقاء مده بثلاثمائة وستين رقيقا كل عام ليس فيهم شيخ هرم أوعجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم[1].

وللايفاء بذلك الاتفاق الذي ظل راسيا لمدة ستمائة عام حتى العهد الاخشيدي، لجأ النوبة لاختطاف الرجال والنساء من الاقوام المستضعفة التي تحيط بهم، وشهد السودان الشمالي ايضا غزو ملوك الفونج لمملكة تقلي المسلمة على عهد (عبد الله بادي) لسبي نسائها واستعباد رجالها، كما شهد حملات الملك عدلان على الهمج واسترقاق بناتهم بمن فيهم بنات شيخهم ، وينسب قبيلة الهمج الذين كان يستهجنهم ملوك الفونج الى الجعليين العوضية، على ان الهمج عندما ملكوا زمام امرهم عام ١٧٦٢، ثاروا على سادتهم الفونج واقتلعوهم من عرشهم وولوا محمد أبو لكيلك على الملك، وظاهرة تعدي المجتمعات القوية على المجتمعات الضعيفة من حولها، لاتعد نتاجا لدوافع سياسية او اقتصادية فقط، وانما تأكيد لقوة المجتمعات المعتدية، وضمان لتلاحمها الاثني، وتماسكها

١ - سردار أحمد العلمانية، الدين السياسي ونقد الفكر الديني، الحوار المتمدن، العدد: ٣٧٩٨ – ٢٠١٢ / ٧ / ٢٤ .

السياسي.وان اتجهنا الى غرب السودان، نجد ان ظاهرة الاسترقاق كانت متفشية في دارفور منذ عهد ملوك الكيرا ، حيث كانت دارفور تصدر آلاف الرقيق الى تركيا ومصر من خلال غزو قبائل الفور على القبائل المجاورة، وكانوا يسعون ايضا لتأكيد منعتهم واثبات سيادتهم، وعرف الرق ايضا في غرب السودان بسلطنة المساليت، حيث كانت طبقات المجتمع تصنف تصنيفا صارما، حسب ذلك التصنيف كان الماجير (العبيد الذكور) يحتلون الدرك الاسفل من طبقات المجتمع بعد الحكام ثم المساكين (عامة الشعب) ، اغلب هؤلاء العبيد يتحدرون من قبيلة الداجو، ومع ان المساليت كانوا يصنفون كل غريب عليهم في خانة العبيد، الا ان الثقافة السائدة بينهم كانت تتيح لهذا النوع من العبيد فرص الترقي حتى يصبحوا جزءا لا يتجزأ من النسيج العام للقبيلة، اما في الجنوب، فقد اشتهرت قبيلة (الزاندي) بالاغارة على قبائل الفرتيت الاقل شأنا في بحر الغزال، لا بغرض الاتجار وانما لأداء الخدمات المنزلية في مساكن سادتهم.

ولكن سرعان ما انخرط الزاندي في تجارة الرقيق بعد وصول الجلابة حيث اخذ الزاندي يقايضون عبيدهم لقاء السلع الضرورية، وبوجه خاص الاسلحة النارية، وانتهى الامر بالزاندي للعمل في وحدات تجار الرقيق العسكرية (البازنقر)، والاسترقاق لم يكن ظاهرة موقوفة على السودان، بل عرفته كل الدول الأفريقية، في الشرق كان ذلك او في الغرب، فمثلا، كانت قبائل الأشاتي والداهومي، وهي قبائل محاربة في غرب أفريقيا، تستعبد، القبائل الضعيفة التي تحيط بها، وفي الشرق بقي الاسترقاق مؤسسة معترفا بها في الحبشة حتى الاربعينات من القرن الماضي (١٩٤٢)، ومع الغاء الرق في ذلك العام، استمرت قنانة الارض في اثيوبيا صور مختلفة طوال العهد الامبراطوري، وكان ضحايا ذلك الاسترقاق، في الاكثر، من بين القبائل التي تعيش عند منحدر النيل الأزرق وتعرف بالشانكلا، أي الدهماء، من جانب آخر، شاعت تجارة الرقيق ايضا بين عرب الساحل الأفريقي الشرقي خاصة في زنجبار، وكان فارسها (تيبو تيب)، الذي سارت بذكره

الركبان، رجلا من نسيج (الزبير رحمة)، واللذان سنذكرهما لاحقا.وفي تكثيف غير مخل، تلك هي الصورة العامة لظاهرة السبي والاسترقاق في السودان وأفريقيا، وبرسمنا لهذه الصورة نبتغي الخروج بظاهرة الرق من مربع الانفعالات، بيد أننا نذكر في ذلك الوقت بأن الموروثات الثقافية من تلك الظاهرة، والتي تتمثل في ظواهر اجتماعية سلبية جعلت من استرقاق الشماليين للجنوبيين أمرا محيراً إلى يومنا هذا١.

الغاء الرق: بحلول أغسطس (آب) ١٨٧٧ تم ابرام معاهدة الغاء الرق الانجليزية المصرية والتي اجبر الخديوي ـ وفق نصوصها ـ على تحريم الاسترقاق وتجارة الرقيق في المناطق الواقعة تحت سيطرته، وكانت الدولة العثمانية نفسها قد اعلنت الغاء تجارة الرقيق في عام ١٨٧٤، واغلقت كل اسواق الرقيق في اسطنبول،وللاشراف على تنفيذ القرار عين الخديوي، بايعاز من بريطانيا، كلا من صاموئيل بيكر وتشارلزغوردون في عام ١٨٦٩م، وفي أول تقرير له اورد غوردون ان السودان قد صدر ما بين ثمانين ومائة ألف عبد في الفترة ما بين ١٨٧٥ ـ ١٨٧٩م، ولكن، مع تظاهرهم بالالتزام بالغاء الرق، ظل وكلاء الخديوي في السودان يغضون الطرف عن الاسترقاق زاعمين بأن أي محاولة لاطلاق سراح الارقاء لن تجدي، اذ سرعان ما يستعيد السادة عبيدهم القدامى، وحقيقة الامر، ان الخديوي نفسه لم يكف، حتى بعد الالغاء، عن اصدار اوامره بالتجنيد العسكري للزنوج في الجيش، بل ظل قصر الخديوي في مصر يكتظ بعد الغاء الرق والدعوة لتسريح الارقاء، بمئات الجواري من الروميات والشركسيات ممن كن يعرفن بالقلفاوات، وحيث كانت محاربة الرق ممكنة في جنوب السودان، فان حملات بيكر الضارية ضد تجار الرقيق ومصادرة ما يملكون من عبيد، كانت ذات اثر سلبي على الحكم التركي اذ عبأت كل تلك الجماعات ضده.

---

١ - سردار أحمد العلمانية، الدين السياسي ونقد الفكر الديني، الحوار المتمدن، العدد: ٣٧٩٨ – ٢٠١٢ / ٧ / ٢٤ .

وتعد قضايا العبودية في السودان من الصفحات المنسية أو (المغيبة) ، والتي تكشف حقيقة أوضاع العبيد والجواري في الخرطوم ضمن الدولة التركية السابقة ١٨٢٠- ١٨٨٥م ، حيث أن طبقة العبيد عرفت في جميع الحضارات القديمة ، كما سبق الذكر ، وبلغت ذروتها عبر الحملات المنظمة لإسترقاق مواطني افريقيا والاتجار بالرق لصالح ملاك المزارع في الاراضي الجديدة ، وتحديدا الولايات المتحدة وبعض دول امريكا الجنوبية، وظهرت في السودان ولاول مرة تلك الحملات المنظمة ابان الفتح التركي في عصر الخديوي محمد علي.

العبيد والجواري: العبيد من سكان الخرطوم يكونون نصف سكان المدينة - بل قدر عددهم الكولونيل ستيورات عددهم عند وصفه للخرطوم سنة ١٨٨٣م بثلثي السكان[١]، ففي الخرطوم يملك الفرد رقيقا واحدا علي الاقل، ليس من منزل هناك الا وعلي عتبته جارية زنجية جالسة تطحن الذرة ،عبيد من شتي الاجناس ، ومن جميع انحاء السودان ووسط افريقيا والحبشة، وكان ينقسم العبيد لثلاثة فئات ، فئة يمتلكها الاهالي ، واخري تمتلكها الحكومة ، وفئة عبيد محررين، يعمل عبيد الاهالي في خدمات المنازل العادية، والجارية تكتسب اهميتها في خدمة المنازل، وحتي عندما يحرر سيدا جارية فانها تعمل في خدمة المنازل بالاجر، وتؤجر بعض السكان عبيدهم الذكور للعمل في المزارع خارج المدينة، كون عدم وجود عبيد يتسبب في عدم عمل السواقي التي يحتاج تشغيلها لجهود كبير.

التسري : احد اسباب امتلاك الجواري ، وكان يفضل العرب الحبشيات بينما يفضل الترك الاروبييات ،عبيد الحكومة ، هم جنودها الذين حصلت عليهم عبر الغزوات ابان عهد محمد علي ، او من تصادرهم من تجار الرقيق ، عند ضبطهم في عهد اسمعيل باشا ، من يصلح منهم للخدمة العسكرية تضمه الحكومة في الجيش ، وغير الصالح تشغلهم في معاملها، وكان الحكمدار احمد ابو ودان اول من الحق العبيد في خدمة الحكومة، وكانت

له مزرعة في الكاملين لزراعة قصب السكر وغيره، وأنشأ بها مصانع للسكر والصابون والخمر ويعمل فيها العبيد، ومن لايصلح من العبيد في هذه الاعمال، يعملون في كنس الشوارع ورشها والخدمة في بيوت كبار الموظفين.

العبيد المحررون: هم اما عبيد اطلق سراحهم اسيادهم وبدأوا حياتهم الجديدة بالعمل بالاجر في المنازل ، او جواري عاملات تم تحريرهن (فدية) لقاء مبلغ معين علي كل واحده ان تسدده شهريا باقساط ،اوعبيد من مرافيت الجيش لاستنفاذ لياقتهم العسكرية ، ويعملون كحراس لرحلات الجنوب التجارية ، ورغم ان الحكومة كانت تسكنهم في حي (النوبة) الا انها كانت تشجعهم دائما للرجوع الي قبائلهم ليبثوا المدنية فيها ومعظمهم من النوبة والشلك والدينكا، بيد ان اول من جلب العبيد الي الخرطوم بقصد التجارة فيهم هي الحكومة في زمن محمد علي باشا ، وبعد فتح النيل الابيض للتجارة الحرة سنة ١٨٥٢م زاد سيل العبيد في الخرطوم ، وصار جلب اللعبيد للخرطوم موكول الي تجار الحكومة نفسها.

بيع وشراء الرقيق : تتم عمليات البيع في السوق ، بالمزايدة العلنية بواسطة دلالين، اوعن طريق التعاقد الشخصي، ويتم ايضا استخدام سماسرة العبيد احيانا، عند شراء العبد يسمح للمشتري قبل اتمام الصفقة بايواء العبد في داره لمدة ثلاثة ايام، ذكرا كان ام انثي وذلك بعد دفع ربع القيمة ، ليتأكد المشتري من (جودة البضاعة) وخلوها من العيوب، إبتداءاً من الأمراض المعدية وإنتهاءاً بالشخير أثناء النوم، حيث كانت تلك العيوب تقلل قيمة العبد ، وبعد تأكد الزبون من (فترة ضمان العيوب)، تتم الصفقة، والا اعيد للبائع ويسترد المشتري العربون ،اما لو كانت الجارية بكرا وعاشرها المشتري اثناء مدة الاختبار، وهو -غالباً ما كان يحدث - فلا يمكن ردها بل يصبح الاحتفاظ بها امرا لامناص منه١.

١ - سردار أحمد العلمانية، الدين السياسي ونقد الفكر الديني، الحوار المتمدن، العدد: ٣٧٩٨ - ٢٠١٢ / ٧ / ٢٤ .

اسعار العبيد والجواري: يختلف ثمن العبد باختلاف السن والصحة والجمال، والجنس ، وما يزيد من قيمته خلوه من الأمراض وخصوصاً مرض الجدري، وكان الذكر ذو النشاط والقوة نرغوبا للحقول، وفي الانثي الشباب والجمال، وكان عامة الاناث اغلي من الذكور وثمن الاطفال الذكور اقل من المراهقين، الا إن امضوا مدة بالبلاد وتعلموا العربية والخدمة بالمنازل، فتزداد قيمتهم ، وكان اغلي الذكور علي الاطلاق هو الذكر (الخصي) المخصص لخدمة السيدات!!، وكان أعداد الخصيان محدود بالخرطوم لقلة السيدات اللاتي يرغبن بهذا النوع من الخدمة، واغلي الجواري جميعا هن البنات الحبشيات لجمالهن ومتعة التسري بهن من قبل الأسياد ، وكان العُمر عامل مهم في تقدير قيمة العبد أو الجارية ، فالجارية التي يقل عمرها عن ١١ عام تدعى (خماسي)، وبين ١١ -١٥ عام تدعى (سداسي-) ، والفتاة بين ٢٠ -٣٠ عام تدعى (البالغ) والفتاة بين من٣٠ فما فوق عام تدعى (عجز) .

أسعار (بضائع) العبيد في سوق الخرطوم عام ١٨٣٧م :

الغلام الصغير من ١٥٠ الي ٣٠٠ قرش

الغلام المراهق سليم البنية من ٤٠٠ الي ٥٠٠ قرش

ذكر دينكاوي من ٧٠ الي ١٠٠ قرش

الطفل الحبشي من ٦٠٠ الي ١٠٠٠ قرش

الفتاة الحبشية المراهقة من ٢٠٠ الي ٤٠٠ قرش

المرأة البالغة من الدينكا من ١٠٠ الي ٢٠٠ قرش

الفتاة القاصرة الحبشية من ٦٠٠ الي ١٥٠٠ قرش

العبودية في موريتانيا :

على خلفية إقرار البرلمان الموريتاني عام ٢٠١٢م ، قانون لتجريم العبودية ونص على غرامات مالية وسجن لمدة عشرة سنوات، عادت قضية العبودية للظهور مرة أخرى على

الصعيد الدولي، فقد منعت موريتانيا العبودية للمرة الاولى، عام ١٩٨٢، في عهد الرئيس محمد خونة ولد هيدالة، ولكن القانون لم ينفذ، واستمرت العبودية في التطبيق، وجاء في القانون الجديد :(ان اي عمل ثقافي او فني يدافع عن العبودية يعاقب بالسجن لمدة عامين) ، وذلك على خلفية ان بعض الفقهاء قد برروا على الدوام شرعية ممارسة الاسترقاق، وكانت موريتانيا قد اقرت قانون على معاقبة تجارة البشرعام ٢٠٠٣، لكن تجارة الرقيق لازالت مستمرة حتى الان، وفي عام ٢٠١٣ شرعت موريتانيا قانون ينص على ان جريمة العبودية لاتسقط بالتقادم، وعليه فإن تأثير هذا القانون لن يتجاوز الجانب العملي، وفي عام ٢٠١٣ طالبت حركة تحرير وانعتاق الحراطين (العبيد) الموريتانية، المعروفة اختصارا بحركة (الحر) الامم المتحدة للتدخل لإنقاذهم من حالة التهميش والاقصاء والحرمان من الحقوق السياسية الذي يمارسها (النظام الاستبعادي) حسب وصفهم له، وجاء في رسالة الى الامم المتحدة ان (شريحة العبيد تمثل اكثر من ٥٠٪ من مجمل سكان البلاد) ، ولازالت تناضل من أجل حقوق العبيد والعتق، يذكر أن الفرنسيون، عندما كانوا يحكمون موريتانيا كانوا قد حرّموا الرق فيها عام ١٩٠٥م، إلا ان الفقهاء حرضوا عليهم، واعتبروه قانون الكفار ومؤامرة على الاسلام، ولم يجري تطبيقه ابدا، كما حرم الانكليز العبودية في السودان عام ١٩٢٤، ولكن القانون بقي دون تنفيذ، واستمرت العبودية في السودان وعلى الاخص في فترة الحرب الاهلية مع الجنوب ومع كردوفان، والمملكة العربية السعودية، بلد الشريعة، وقعت على وثيقة تحريم العبودية عام ١٩٦٢، ولكن العبيد والغلمان بقوا في القصور حتى اليوم، واستمرت سياسة التمييز العنصري على نسل العبيد السابقين في المملكة العربية السعودية حيث يوصفون بطرش البحر، ويرفضون الزواج منهم او تزويجهم، كما تحكم المحاكم الشرعية بالتفريق لعدم تناسب النسب، وفي اليمن لازالت مظاهر ممارسة العبودية الظاهرة والمبطنة، حتى اليوم.

الملك البلجيكي ليوبولد الثاني

تعتبر شخصية الملك البلجيكي ليوبولد الثاني (١٨٣٥ ـ ١٩٠٩)، مؤسس (مملكة العبودية) في قلب أدغال الكونغو من أسوأ الشخصيات التاريخية التي عرفتها البشرية كنموذج يعكس واقع الفكر الإستعماري الأوروبي المؤمن بتفوّق العرق الأبيض على الأعراق الأخرى، وهو وصمة عار في جبين الحداثة الأوروبية المصدرة إلى القارّة الأفريقية ، والتي جعلت من الفئات المستضعفة وقود يغذي طواحين الجشع لأسياد العبودية، والذين أمعنوا في تنفيذ أبشع الممارسات الهمجية في الإستغلال والهيمنة والإقصاء والإبادة الجماعي.



إن نموذج هذا الملك، وغيره من كبار ضبّاطه ومساعديه، كانوا في ذهن كونراد حين رسم شخصية كرتز في كتاب (شبح الملك ليوبولد) للمؤرّخ والصحافي الأمريكي آدم هوكشتيلد تمثل قصة الجشع والرعب الحقيقي في أفريقيا المستعمرة، ليستعيد سيرة هذا الملك كي يروي حكاية سفّاح في ذمّته دماء حوالي ١٢ مليون أفريقي كونغولي[١] ، أي ضعف ضحايا الهولوكوست المزعومة والتي شرد شعب فلسطين التاريخي من وطنه بحجّتها، وفي سجّل ذلك الملك الممعن في القتل صفحات تعد أسوأ ما ارتكبته الهمجية الأوروبية من فظائع ومجازر وجرائم بحقّ الإنسانية، إنه هو الذي يقول في وصف نفسه: (نيرون قدّيس بالمقارنة معي، إنني غولٌ لا يتلذذ إلا بتعذيب الأفارقة الزنوج).

قصته تبدأ عام ١٨٨٥م حين قرّر، وهو الملك المتوّج وسليل أسرة كانت لها حصّة في معظم تيجان أوروبا عبر المصاهرة والخؤولة والعمومة، أنّ بين أبسط حقوقه الملكية تحويل

١ -رونالد سيجال ،الهولوكست الأفريفي، عقود من العبودية الأفريقية، ص ٣٦٨، باولز ستيوارت للنشر والتوزيع، نيويورك ١٩٩٥م، التاريخ الأفريقي، قصة قتل ١١٨٦٣٠٠٠ مليون مواطن أنجولي، النسخة الأصلية ، الترقيم الدولي: ٠-٣٧٤-١١٣٩٦-ISBN٣

بلد أفريقي تفوق مساحته مساحة بلجيكا ٧٥ مرّة إلى ملكية فردية شخصية، له وحده ولا دخل لمملكته بما يملك ولقد بدأ من حيث بدأت هجرة الحداثة الأوروبية إلى الأصقاع النائية، فأنشأ (جمعية الكونغو العالمية) ذات الأغراض الخيرية والإنسانية والعلمية! ، ثم أعلن بعدها تحويل الجمعية إلى دولة الكونغو الحرّة، ووظّف عدداً من خبراء العلاقات العامة في تأمين ما تحتاجه هذه الدولة المستقلة من دعم سياسي لدى الحكومات البريطانية والفرنسية والألمانية والروسية، ولدى الكونغرس الأميركي، وليس بغير دلالة خاصة أن الولايات المتحدة كانت أوّل المعترفين بهذه الدولة العجيبة، وذلك لمن يلهث خلف الديموقراطية الأمريكية، فشهوة القوّة، بالمعنى الفرويدي، لم تكن هي الدافع وراء سلوك ليوبولد، بل كانت كنوز المطاط والعاج هي سبب ومبرّر وجود الدولة.وكان الأفارقة الكونغوليون يعملون بالسخرة القسرية عند رجال الملك، فيقتلون الأفيال للحصول على العاج، ويجوبون الأدغال شجرة شجرة لجمع سائل المطاط، قطع اليد هو العقوبة الأولى للمسخَّر الذي يفشل في تنفيذ الحصة المناطة به من الإنتاج، قطع اليد الثانية هو العقوبة التالية، وأما العقوبة الأخيرة فرصاصة في الرأس، ومن بين رجالات الملك، ممّن كانوا بذهن كونراد عندما صاغ شخصية كرتز، هنالك الملك ليو الذي كان يتفاخر بسياج حديقته المصنوع كليّاً من جماجم الأفارقة الذين اصطادهم بنفسه أو أنزل بهم عقوبة الرصاصة الواحدة في الدماغ ولكي لا تغيب روحية الحداثة الأوروبية عن مزاجه الشخصي، كان هذا الضابط رساماً وجامع فراشات نادرة ومؤرّخ فولكلور أفريقي! ، نموذج آخر هو (غيوم فان كيرشوفن)، الذي تفاخر ذات مرّة أنه كان يدفع ما يعادل دولاراً واحداً لكلّ جنديّ يأتيه برأس آدميّ أفريقي خلال أيّ من حملات التطهير العسكرية التي قادها بنفسه في أدغال الكونغو، وكان يعتبر أنّ الجندي بحاجة إلى حافز مادّي ايضاً، إذْ لا يكفيه أنه يقوم بالواجب في تطهير تلك الغابات من سكانها الأصليين!

وبين أعوام ١٨٨٥ و١٩٠٨، انخفض عدد سكان الكونغو إلى النصف، فقد كانوا عشرين مليوناً فأصبحوا ثمانية ، وقد سجل التاريخ العديد من التفاصيل الرهيبة حول الفظائع

التي ارتكبها جنود الملك بحقّ أهل الأرض الأفارقة، وعلى سبيل المثال كانت إدارة الدولة تعوّض رجالها عمّا فقدوه من ذخيرة نارية استناداً إلى عدد الأيدي المقطوعة التي يجلبها هؤلاء في سلال، فكلّ يد دليلٌ على استخدام رصاصة في قتل إفريقي، وأمّا صاحب الفضل في كشف جرائم ليوبولد االثاني فقد كان إدموند دين موريل، الموظف في (شركة ليفربول للنقل البحري) ، والذي كان يتردّد إلى الكونغو بحكم عمله، فاكتشف شبكة رقيق العاج والمطاط هذه، وأنشأ جمعية خاصة لفضحها أمام الرأي العام: (رابطة إصلاح الكونغو)، التي تُعدّ واحدة من أقدم منظمات حقوق الإنسان الدولية[١].

وفي وصف مجازر ليوبولد الثاني، دخلت إلى القاموس السياسي عبارة (جرائم بحقّ الإنسانية)، وكان الذي استخدمها للمرّة الأولى صحافي أميركي أسود (جورج واشنطن وليامز)، وآنذاك كانت صورة الملك في الرأي العام الأوروبي والولايات المتحدة هي الرمز الأعلى للحاكم الخيّر العادل المحبّ للإنسانية، لكنه في عام ١٩٠٨م وتحت ضغط الحملات المناوئة التي انخرط فيها عدد كبير من الشخصيات العامة أمثال (أناتول فرانس إلى آرثر كونان دويل إلى أسقف كانتربري، مروراً بالكاتب الأمريكي الساخر مارك توين الذي وضع نصّاً خالداً في السخرية السوداء بعنوان (مناجاة الملك ليوبولد)، نشرته رابطة إصلاح الكونغوالمشار إليها آنفاً ، اضطر ليوبولد الثاني إلى بيع مستعمرته هذه إلى الحكومة البلجيكية والتي سارعت لحلّها، وأقامت بدلاً عنها مستعمرة (الكونغو البلجيكية)، والأموال التي كسبها الملك ليو من مستعمرته قُدّرت بـ ٢٢٠ مليون فرنك بلجيكي (مليار دولار أمريكي)، صرفها بالكامل قبل وفاته!!. فأين ذهبت دماء ملايين الأفارقة؟

والطريف في الأمر أن بريطانيا تحيى ذكرى إقرار قانون إلغاء تجارة الرقيق، لكن المندوب البريطاني في الإتحاد الأوروبي إسوة بزملائه مندوبي إسبانيا والبرتغال وهولندا يواصل

١ - رونالد سيجال ،الهولوكست الأفريقي، مرجع سابق، ص ٣٧٥.

جهوده لعرقلة مشروع قرار يتضمن الاعتذار من الشعوب التي كانت ضحية تلك التجارة، وتبارى الرئيس الفرنسي السابق، جاك شيراك، والرئيس نيكولا ساركوزي، في توزيع الابتسامات وعبارات الترحاب والبشاشة على أبناء المستعمرات الفرنسية السابقة، الذين احتشدوا في حديقة لوكسمبورغ الباريسية، لافتتاح نصب تذكاري في مناسبة اليوم العالمي لإلغاء العبودية[١].وقد تناسى شيراك أنه صاحب العبارة الشهيرة، قبيل انتخابه للولاية الاولى، (ضجيج وروائح الأجانب التي يمكن أن تصيب الفرنسيّ بالجنون)! وتناسى ساركوزي أنه صاحب العبارة التي لا تقلّ شهرة، (ضرورة استخدام أجهزة التنظيف الكهربائية في تطهير الضواحي من حثالة القوم!) ، ورغم أنّ العبودية محرّمة قانونياً في جميع بلدان العالم، فإنّ العالم ذاته يضمّ اليوم من العبيد أكثر مما كانت عليه الحال في أية مرحلة من تاريخ الاستعباد، قرابة ٢٧ مليون عبد، أي ضعف عدد الأفارقة الذين استُعبدوا خلال ٤٠٠ سنة من تجارة الرقيق العابرة للأطلسي، أيضاً، صار العبد المعاصر أرخص كلفة من عبد الأحقاب الماضية (كانت قيمته ٤٠ ألف دولار في جنوب أميركا سنة ١٨٥٠، وهو اليوم لا يكلّف أكثر من ٦٠ دولاراً!) ، بل اتخذ الاستعباد صيغة الفضل أو التفضّل على أبناء البلدان الفقيرة، تحت لافتة الهجرة الاقتصادية مثلاً، أو تسهيل سوق العمل السوداء، أو انتقال الشركات الصناعية العابرة للقارّات من بلدانها الأمّ إلى البلدان الأفقر، صحيح أنّ الاستعباد على طريقة كرتز في رواية جوزيف كونراد، أو على نهج الملك ليوبولد الثاني وضبّاطه من أمثال ليون روم وغيوم فان كيرشوفن في الحياة الفعلية، قد تراجعت أو انحسرت تماماً، إلا أنّ التجارة ذاتها ما تزال قائمة رائجة واسعة النطاق، خصوصاً وأنها قد بدّلت أشكالها على نحو أكثر خبثاً من أن يفضي بها إلى التأثيم.

١ - رونالد سيجال ،الهولوكست الأفريقي، مرجع سابق، ص ٣٧٦.

ففي عام ١٨٧٦م قام ملك بلجيكا ليوبولد الثاني بتأسيس الجمعية الجغرافية الدولية لاستكشاف ونشر الحضارة في أفريقيا ، وكان هدفها المعلن العمل على نشر الحضارة في الكونغو ومحاربة تجار الرقيق العرب!، تأسست هذه الجمعية في بروكسل وشجعت على تأسيس جمعيات مماثلة في كل العواصم الأوروبية تقريبا ، وأعلن ليوبولد أنه من الضروري العمل من أجل نشر الحضارة في حوض نهر الكونغو وهو المكان الوحيد الذي لم تصله الحضارة الأوروبية في القارة الأفريقية ، وشكل تأسيس هذه الجمعيات الجغرافية نقطة الارتكاز التي انطلق منها المستكشفين الأوروبيين الذين جالوا في مناطق وسط أفريقيا والبحيرات خلال تلك الحقبة ، وتشمل السودان شمالا وجنوبا ، ودول شرق ووسط أفريقيا من زنجبار إلى مصب نهر الكونغو على المحيط الأطلسي ، تشاد والنيجر ومالي حتى السنغال ، وغيرها ، وتم اختيار الملك ليوبولد رئيسا للمنظمة ، ومن المهم أن نذكر أن هذه المنظمة لم تكن تابعة للحكومة البلجيكية، فالملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا هو ذاته راعي الممولين الدوليين الذين كانوا خلف مشروع احتلال مصر سنة ١٨٨٢م ومشروع تأسيس دولة الكونغو الحرة سنة ١٨٨٥م وبدأت منشورات ومؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين جرى تمويل رحلاتهم من قبل هذه الجمعيات الجغرافية الأوروبية في التركيز على تجارة الرقيق وتضخيم دور العرب في ممارستها ، وذلك بالرغم من أن جميع هؤلاء المستكشفين استفادوا من الوجود العربي الذي كان منتشرا في كل تلك المناطق منذ قرون، والكثير من هؤلاء المستكشفين قد وثقوا حقيقة أن ممارسة الاسترقاق كانت جزءا راسخا في ثقافة القبائل الأفريقية، ونجد على سبيل المثال لا الحصر واحدا منهم وهوويليام جونكر(الصورة المرفقة أعلى يسار الصفحة) الألماني يسجل كيف أنه قام في ١٢ يناير ١٨٧٧م في اللادو (جنوب السودان) بشراء رقيق اسمه مرجان



استعدادا لرحلة مكراكا وتحدث عن نيته في شراء رقيق آخرين لأن ذلك أفضل وأضمن وأرخص من استئجار الحمالين[1].

ولكن نفس هذه المصادر تتجنب رصد وتحليل رد فعل السودانيين على انتشار الأوروبيين المسيحيين في مفاصل الإدارة العليا للحكومة بدءا من الحكمدار غردون مرورا بالعديد من الأوروبيين الذين قام بتعيينهم مثل رومولو جيسي الإيطالي، جيقلر باشا مسئولا عن التلغراف، الدكتورأمين باشا والياً على دارفور، ولبتون بيك الإنجليزي على بحر الغزال، وغيرهم، وفي ١١ أبريل ١٨٧٧م وصل المستكشف الإيطالي رومولو جيسي القاهرة قادما من إيطاليا في رحلة تجارية استكشافية على حسابه الخاص وستقوده هذه الرحلة بعد فشلها إلى الخرطوم عاطلا عن العمل في وضع مادي سيئ الأمر الذي سيمكن غردون من توظيفه في قيادة الحملة ضد سليمان الزبير باشا سنة ١٨٧٨م، وفي ١٩ مايو ١٨٧٧م تحرك غردون بالجمال نحو دارفور وفي ٧ يونيو ١٨٧٧م وصل حدود دارفور لمواجهة ثورة محتملة من سليمان الزبير باشا وفي يوليو ١٨٧٧م قام سليمان الزبير بتجميع قواته في شكا (جنوب دارفور) وهو في حالة من السخط حيث كانت كل الأوضاع كانت تقود سليمان الزبير إلى الثورة، احتجاز والده في مصر ، الحصار الاقتصادي ومنع تجارة العاج وجميع أنواع التجارة ، تعيين الأوروبيين المسيحيين بالمناصب العليا ، علما أن أسرة الزبير باشا ظلت تمثل الجزء من السودان الذي استقبل جيش إسماعيل باشا سنة ١٨٢٠م بالقبول والترحاب بصفته جيش دولة الخلافة الإسلامية.

١ - لعبة الأرقام ، ديفيدز أ. رتشردسون، تجارة العبيد عبر الأطلنطي، ص ٩٦ ، شركة إيجمونت هيوج وشركاه، ناشرون وموزعون ، لندن ، بريطانيا، غير مترجم ، الترقيم الدولي : ٠-٢٨٣-٩٦٤١٦-ISBN٤

في ٤ أغسطس ١٨٧٧م تم توقيع الاتفاقية المصرية البريطانية لمنع تجارة الرقيق، في عهد الخديوي إسماعيل باشا ١٨٦٣م -١٨٧٩م ، وكان ينص على أن تملك الرقيق في السودان سيظل قانونيا حتى سنة ١٨٨٩م ، ويعني هذا أن غردون (رئيس وزراء بريطانيا أنذك) كان عليه أن يتبنى سياسة لمكافحة الاسترقاق بالتدرج خلال فترة انتقالية لترتيب وتوفيق الأوضاع لجميع الأطراف ، ولكن هذا لم يحدث إطلاقا ، فقد تم استغلال الغطاء القانوني الذي وفرته هذه الاتفاقية إضافة لصلاحيات غردون المطلقة التي تحصل عليها من الخديوي إسماعيل في البدء فور وصوله للسودان حكمدارا سنة ١٨٧٧م في شن حملة لا هوادة فيها ولا تدرج ضد العرب الجلابة تحت غطاء مكافحة تجارة الرق وقام بارتكاب الفظائع وإبادة وتهجير الجلابة من بحر الغزال وجنوب دارفور لاحقا بزعم مكافحة الرقيق ، فقد كان غردون حتماً يعلم بأن ثقافة الرق متأصلة في نفوس السكان المحليين ، ففي رسالة منه لأخته أرسلها من دارفور في ١٤ أغسطس ١٨٧٧م قال لها: (إن نص الاتفاقية واضح جدا ويعني أن تملك الرقيق في السودان سيظل قانونيا حتى سنة 1889م)، وعليه فإن غردون وهو في دارفور وفي دارا وقبل أن يحضر إليه سليمان الزبير كانت نواياه سيئة ، وكان يطلق هذه التصريحات السلبية في حق الجلابة الشماليين من أبناء النيل وبحضور أبناء دارفور الذين كان يعلم أن الزبير رحمة خاض ضدهم حربا منذ أربع سنوات فقط ، ولولا تلك الحرب ما كان غردون سيكون حاكماً على السودان بما فيه دارفور ، ونلاحظ في الكتابات الأوروبية أن السكان المحليين وعوام الناس كانوا دائما ما يثنون على غردون لحسن تعامله معهم وهذا من دهائه ، إذ ظل غردون يتبنى أساليب رقيقة في التعامل مع العامة لم يألفوها بينما ظلت سياساته في الإدارة تتجه نحو تفكيك الدولة السودانية، وقد نجح في ذلك للأسف الشديد بعد موته بعقود، من خلال تقسيم السودان (دولة جنوب السودان، جون قرنق وسلفاكير)١ .

١ - مذكرات الجنرال غردون ١٨٨٣م-١٨٨٥م، ص ١٣٥-١٦٤، دارهاملتون وممفلين للنشر، نيويورك، ٢٠٠٢م.

في ٢ سبتمبر ١٨٧٧م حضر سليمان الزبير إلى دارا وقابل الجنرال البريطاني غردون حيث ذكر بأنه قابل ابن الزبير وهو شاب في حوالي العشرين من عمره ، برفقة جيشه وعددهم حوالي ثلاثة آلاف ، حيث طلب من ابن الزبير الحضور إلى مقره هو وأقاربه ، وجاءوا جميعهم، وتم إبلاغهم بأن عليهم تسليم أسلحتهم والعودة إلى مقرهم (يقصد في بحر الغزال) وتم منحهم مهلة يومين للتفكير واتخاذ قرار، ويضيف جرودن: (كان ابن الزبير يميل للقتال وكنت أعلم أنهم قد أقسموا على القرآن على مهاجمة الحامية الليلة التالية ، ولكن كان بينهم من يجنح للمهادنة ، وقمنا بإدارة مفاوضات منفردة مع المترددين ونجحنا في إقناعهم واحدا تلو الآخر في المغادرة)[1]، وأخيرا وافق ابن الزبير على المغادرة جنوبا وحزم أمتعته ، وتم ذلك في ٦ سبتمبر (١٨٧٧م) وظلوا حتى اللحظة الأخيرة متأرجحين بين خياري الاستسلام أو القتال، بعدها قام غردون بتفريق جيش سليمان وعدده ٤٠٠٠ مقاتل على قادة آخرين، ولم تتوقف الأمور عند تفكيك جيش الزبير باشا ، بل تم تجريده من الممتلكات وعددها ٣٠ قرية في بحر الغزال بما فيها من العاج الذي بلغ ٢٠٠٠ قنطار، وتصور لنا كتابات غردون والأوروبيين الآخرين لقاء غردون لسليمان الزبير في دارا وسط أنصاره بأنه دليل على شجاعة وجراءة غردون لكنها تتجاهل حقيقة أن سليمان الزبير وقادة جيش أبيه وأقاربه ما كان بإمكانهم التهجم على غردون أو اتخاذ قرار بالحرب بكل هذه السهولة والزبير رحمة رهينة بمصر، كان وجود الزبير رحمة بمصر بكل تأكيد خير ضامن لسلامة غردون وهو يتحرك وسط أنصار الزبير باشا في السودان.

بعدها قرر غردون اللحاق بسليمان الزبير في شكا في جنوب دارفور بحسبانها عرين تجار الرقيق ومركز قوة سليمان الزبير باشا ، وكان غردون يعلم أن الزبير باشا في مصر قد طلب منه التوجه في هذا الوقت إلى إستانبول للمشاركة في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل وهي الحرب الروسية التركية، وكذلك فإن إرسال الزبير باشا رحمة في ذلك التوقيت للمشاركة في الحرب الروسية التركية قصد منه إبعاده عن أية اتصالات أو إمكانية لتلقي

الأخبار من السودان في الفترة التي كان يتم فيها تهيئة العوامل والأسباب التي ستدفع ابنه سليمان لثورة كانت مطلوبة.

عاد سليمان الزبير إلى شكا ، وفي ٩ سبتمبر ١٨٧٧م غادر غردون دارا نحو شكا ، وفي ١١ سبتمبر ١٨٧٧م وبينما كان غردون في الطريق من دارا إلى شكا كتب عن وجود ٦ ألف تاجر رقيق في بحر الغزال، فكتب غردون عن مفاوضاته التي دارت مع ابن الزبير في دارا قائلا : (ذهبت إلى معسكر تجار الرقيق برفقة خمسة عشر رجلا فقط ، وكانوا أربعة آلاف ، وأخبرتهم أنني قادر على تحطيمهم إذا ما قرروا أن يثوروا ، وعليهم تسليم أسلحتهم مقابل تعويض مالي ، وبعد أيام من التردد قرروا التسليم وأنا ذاهب الآن إلى شكا عرينهم ، وأشكر الرب أن أعطاني القوة للتغلب على مناوراتهم ، وأعلم أن هناك ستة آلاف آخرين من تجار الرقيق تابعين لهؤلاء جنوبا لن يكون أمامهم سوى الاستسلام إذا علموا أن قادتهم في شكا قد سلموا ، وقد لا تعلم صعوبة التعامل مع هذا العدد من المسلحين ولكن قمت بتفريقهم هنا وهناك وبمرور الوقت سأتخلص منهم، هل كان علي أن أقوم بقتلهم جميعا ؟ ألم تكن تجارة الرقيق مسموحا بها يوما عندنا وكانت السفن المحملة بالرقيق تأتي إلى ميناء بريستول ؟، وصل غردون إلى شكا يوم ١٥ سبتمبر وفي ١٧ سبتمبر كتب لأخته عن الصعوبات العملية والمنطقية في مكافحة الرق[1].

ونورد فقرات من هذه الرسالة الطويلة التي تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن سياسية ومنهج حاكم السودان البريطاني الجنسية الاسكتلندي العرق المصري توظيفا وراتبا غردون باشا في مكافحة الرق لم تكن لها علاقة من قريب أو من بعيد بما كان يؤمن به حقيقة، فعندما قررت حكومة بريطانيا تحريم الرق سنة ١٨٣٤م جهزت لهذا القرار قوات لا تقاوم من أسطول ومعدات وغيرها، أما غردون فلا يتوفر له شيء من ذلك بل إن القوات التي تحت إمرته معادية في باطن الأمر، وحتى لو تم توقيف غارات الحصول على

١ - مذكرات الجنرال غردون ١٨٨٣م-١٨٨٥م، ص ١٣٥-١٦٤، دارهاملتون وممفلين للنشر، نيويورك، ٢٠٠٢م.

الرقيق فإن العلاقات التي تأسست لن تنتهي مهما كانت الحكومة قوية ونزيهة ، بالطبع لن يكون هناك أرقاء جدد ، ولكن الموجودين الآن سيظلون كما هم ونسلهم كذلك ، بل إن بعضا من تجار الرقيق الحاليين كانوا أرقاء في الماضي، ويضيف غردون: (سألت أحد الرجال في قافلة عن عدد من النسوة قائلا: تبع من هم ؟ قال : هن زوجاتي ، فهل بإمكاني والحال كذلك أن أنتزع منه امرأة يزعم أنها زوجته ؟ كيف لي أن أثبت أنها ليست كذلك ؟ وإذا انتزعتها منه، ماذا سأفعل بها ؟ ويقول آخر: هؤلاء الصبية الثلاثة هم أبنائي، كيف يمكنني إثبات عدم وجود هذه العلاقة ؟ قابلت قافلة تتكون من تاجر ورقيق عددهم حوالي ستون رجلا وامرأة مقيدين، ماذا أفعل مع التاجر ؟ إنه لم يقم باصطيادهم من مناطقهم بل اشتراهم من شكا ، ماذا أفعل ؟ هل هو ملوم ؟ هل أقوم بمصادرة الرقيق منه ؟ كيف وهل وأنا جاهز للعناية بهم ؟ هل أنا قادر على إطعامهم ؟ والحال كذلك فسيكون فعلا بعيدا عن الرحمة انتزاعهم من التاجر، على أية حال كل ما استطعت فعله هو أن أمرت التاجر بفك قيودهم وتركتهم معه، كما ثمة معضلة ديموغرافية في مسألة تجارة الرقيق، فالسياسات الطاردة للحكومة المصرية دفعت سكان دنقلا والنوبة (شمال السودان) للهجرة بأعداد كبيرة إلى بلاد الزنوج حيث وجدوا أنفسهم خارج سلطة الحكومة والضرائب١ .

وهناك ما يقارب العشرين أو الثلاثين ألفا منهم في (يقصد أن عدد الجلابة في بحر الغزال يقارب ٣٠ ألفا) وهم بغض النظر عن عملهم في صيد الرقيق فهم شجعان أكثر تحضرا من عرب مصر السفلى، أوجه سؤالي لمن يمارسون الضغوط في مسألة منع تجارة الرقيق عن خطتهم لتنفيذ ذلك، إذا اطلعت على مداولات البرلمان بخصوص ساحل الذهب ستجد أن هناك خطة وضعت مسبقا من السكرتير الاستعماري للحكومة، والآن أطلب من هؤلاء الذين يمارسون الضغط أن يقترحوا علي خططهم بعد دراسة المسألة، إن هذه

١ - مذكرات الجنرال غردون ١٨٨٣م-١٨٨٥م، مرجع سابق ص ١٣٥-١٦٤.

المسألة تتطلب بحثا كبيرا لفترة من الوقت أكثر، لقد أعطاني صاحب السمو (يقصد الخديوي إسماعيل) تعليماته الإيجابية فيما يتعلق بالرقيق إلى مدير كردفان ، والآن أنظروا كيف يتم التجاوب مع هذه الأوامر بوجود عصابة المسترقين من حولي (يقصد أن كل من حوله متواطئ لاستمرار تجارة الرقيق)، في الحقيقة فإن المدير لا يعلم ماذا يفعل بالرقيق الذين يتم تحريرهم كما هو حالي الآن وبالتالي فهو يفضل أن يتغاضى عن المسألة[(١)]، ماذا تعني هذه الأفكار والآراء ؟ تعني أن غردون لم تكن لديه خطة علمية ومنهجية لمكافحة تجارة الرقيق ، فلكي تكافح مثل هذه الممارسة الراسخة المعقدة التبعات لا يكفي أن تقوم بفصل الرقيق من سادتهم حيثما كان وأينما كان وكيفما اتفق ثم تقول لهم أذهبوا فأنتم أحرار ، كما سيفعل رومولو جيسي لاحقا خلال حروبه ضد سليمان الزبير باشا في بحر الغزال ودارفور ليظهر نفسه بمظهر المخلص النبيل ، فمثل ذلك التصرف لم يكن يعني سوى إلقاء الرقيق المحررين عشوائيا إلى غياهب الضياع والفاقة ، وكأّن هذا هو المطلوب.، ففي 29 سبتمبر ١٨٧٧م من دارفور - شكا - غردون يتحدث مرة أخرى عن صعوبات مكافحة الرق في دارفور: (إن المشكلة التي كان غردون يواجهها في دارفور فور وصوله حكمدارا للسودان لم تكن أبدا مشكلة تجارة الرقيق بل كانت ثورة سلطان الظل الثائر هارون[١] .

إلا أنه من الواضح أن غردون كان يهيئ المبررات لسحق الثورة باستخدام القوة المسلحة أيضا تحت ذريعة مكافحة الرق، على أية حال ، وصل غردون إلى شكا ، وقام بترضية شكلية لسليمان الزبير باشا وأعطاه رتبة بك وقام بتعيينه مديرا على بحر الغزال ، وهي وظيفة لا تعادل ما كان عليه سليمان الزبير من ملك وتجارة مع والده ولا يكفي ذلك لإزالة الغبن عن نفسه بكل تأكيد، وعاد سليمان الزبير بعدها إلى عاصمته ديم الزبير في بحر الغزال فوجد إدريس ابتر الدنقلاوي وكيل والده قد استغل فترة الأربع سنوات

١ - مذكرات الجنرال غردون (رسائل غردون لأخته ص ١٥١-١٥٤) ، دارهاملتون وممفلين للنشر، نيويورك، ٢٠٠٢م.

ببقائه منفردا واستبد بالناس فأراد سليمان بن الزبير محاكمته ففر للخرطوم مشتكيا لغردون وادعى أن سليمان يريد الاستقلال ببحر الغزال ، وفورا قام غردون بمنح إدريس ابتر لقب بك وعينه مديرا على بحر الغزال ورفض سليمان هذا التعيين وقام بمهاجمتهم وقتل أخ إدريس ابتر فاستنجد إدريس ابتر بالخرطوم ، وهذه الحادثة وطريقة تعيين إدريس أبتر في نفس الوظيفة التي تم فيها تعيين سليمان الزبير قبل فترة وجيزة تكفي لإثبات أن غردون كان يسعى لإذلال سليمان الزبير وتهييجه .

وهنا يجب التنويه إلى الإستراتيجية البريطانية بعيدة المدى فيما يتعلق بمناطق نفوذها في أفريقيا، ففي سبتمبر ١٨٧٧م أعلن رئيس الوزراء البريطاني غلادستون الخطة البريطانية للسيطرة على أفريقيا من الإسكندرية حتى رأي الرجاء الصالح ، وكان ذلك قبل ٥ سنوات من احتلال مصر عسكريا سنة ١٨٨٢م ، وفي الواقع كان الطريق لذلك الاحتلال يتم تمهيده ، فقوى التمويل الدولية كانت قد أطبقت بخناقها على مصر من خلال الديون والوزارة المختلطة والمحاكم المختلطة وامتيازات الأجانب، وكانت ذات قوى التمويل الدولية تتابع بنفس الوقت رحلة المستكشف هنري مورتون ستانلي في الكونغو حيث نشرت له صحيفة الديلي تلغراف في ١٢ نوفمبر ١٨٧٧م مقالا عن الأهمية السياسية والاقتصادية للسيطرة على مجرى نهر الكونغو ، وأشار ستانلي إلى أن جميع المحطات الساحلية في أفريقيا قد وصلتها الشركات التجارية ما عدا في شرق أفريقيا حيث الوجود العربي والهندي يحتل تلك المنطقة، وعليه فإن ما تبقى للاستكشاف والاستغلال التجاري في أفريقيا هو أحواض الأنهار الكبرى : النيل والنيجر والكنغو١.

وظل ستانلي يرسل التقارير الواعدة إلى صحف أوروبا وظلت قوى التمويل الدولية تتابع هنري مورتون ستانلي إلى حين عودته إلى أوروبا للاجتماع به للبدء في مشروع استعمار الكونغو ، أما في السودان فقد كانت هذه القوى موجودة من خلال حكومة

---

١ - مذكرات الجنرال غردون (رسائل غردون لأخته ص ١٥١-١٥٤) ، دارهاملتون للنشر، نيويورك، ٢٠٠٢م.

الخديوي إسماعيل الغارقة في الديون الفاقدة للسيادة وقد تم تنصيب غردون حاكماً للسودان كما سبق الذكر ، وعليه كانت المهمة في السودان وما تقتضيه من مواجهات وحروب أسهل وأقصر طريقا مما سيحدث في الكونغو بعد ١٣ عاما من القتال ضد سليمان الزبير، في آخر العام في ٢٦ ديسمبر ١٨٧٧م وصل الإيطالي رومولو جيسي الخرطوم حاملا خطابات تزكية لغردون ، ولم يكن رومولو جيسي بحاجة لمثل هذه الخطابات ، خاصة وأن رومولو جيسي كان قد عمل قبل سنة واحدة فقط مع غردون في استكشافات الاستوائية بل كانت المعرفة بينهما تمتد إلى سنوات حرب القرم ١٨٥٤م حين كان غردون ضابطا صغيرا حديث التخرج وتعرف حينها على رومولو جيسي الذي كان يعمل مترجما للقوات البريطانية[1].

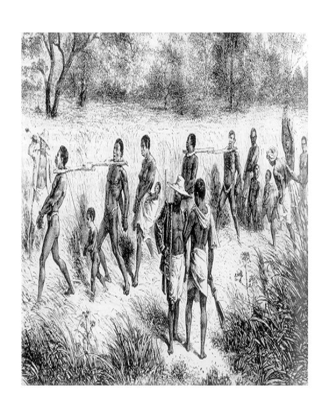

IN THE RUBBER COILS.

وهذا الأمر سلط مزيدا من الضوء على الأهداف التجارية لرحلة رومولو جيسي الثانية، ففي ديسمبر1877 م ومن الخرطوم كتب جيسي عن الأهداف التجارية لرحلته فقال عن فرص تجارة للشركات الإيطالية : (سأبذل كل ما في وسعي للبحث عن الفرص الممكنة لشركة كارلو إيربا في ميلان ، وآمل أن أتمكن من عقد صفقات لصالحها بأفضل الشروط وعلي أن أسعى حتى لا يظل رأس المال مجمدا، لقد أخبروني أنه في كركوج (حيث من المفترض أن أمر) توجد كميات كبيرة من التمر هندي وحالما أصل فسأقوم بإرسال عينات إلى إيطاليا خاصة وأن الملاحة النهرية من هناك حتى الخرطوم لا تواجهها عوائق بينما الطريق التجاري من كردفان أكثر خطورة وقد عانى الكثير من التجار من الخسائر فيه، آمل أن تفوضني شركة إيربا رعاية مصالحها ولتأسيس ممثلية لها هنا ، وأملي الوحيد أن نتمكن

---

١ - مذكرات الجنرال غردون ١٨٨٣م-١٨٨٥م، مرجع سابق ص ١٣٥-١٦٤.

نحن الإيطاليين من الحصول على مواد خام من أفريقيا لصناعاتنا، إن كل المثليات التجارية هنا تربح كثيرا فلماذا لا نفعل نحن نفس الشيء) [١].تلك هي يوميات الرجل الذي عهد إليه مطاردة وتحطيم طبقة تجار الرقيق الشماليين ببحر الغزال ودارفور ، جاء للسودان مستكشفا في المرة الأولى وعمل مع غردون لمصلحة الجمعيات الجغرافية الأوروبية على حساب الخزينة المصرية في مشروع لو استغلت كل الموارد العسكرية والمالية التي خصصت له لفتحت كل منطقة البحيرات ولضمت إلى الإمبراطورية المصرية ، ثم ها هو يأتي هذه المرة باحثا عن الفرص المالية للقصور الإيطالية ورجال أعمالها، وقال أيضا :لو لم أخسر في ضياع أغراضي لما ترددت في شراء شحنة كاملة من التمر هندي والمطاط الهندي وإرسالها لإيطاليا ، وأنا مقتنع أن التجارة في هذه المواد متاح مباشرة من هذه المناطق إلى إيطاليا، ولا يملك المرء إلا أن يعترف بأن رومولو كان ذا عقلية تجارية قادرة على رصد فرص التجارة.



فالمطاط الهندي الذي تحدث عن وجوده في منطقة كرجوج على النيل الأزرق سيكون من أهم صادرات الكونغو بعد سنوات قليلة حين يكتمل تأسيس مشروع دولة الكنغو الحرة والتي سيكون رائدها هنري مورتون ستانلي المتوجه إلى أوروبا عائدا من رحلته الاستكشافية في الكونغو ، وسنرى كيف أنه وفور وصوله سيحضر إليه مندوبي الملك ليوبولد ملك بلجيكيا ليوجها له الدعوة لمقابلة الملك في بروكسل بأسرع ما تيسر، وفي ٢٨ يناير ١٨٣٣م ولد غردون الذي

١ - روجر كليمنت، الدبلوماسية البريطانية في مواجهة السياسة البلجيكية بأفريقيا الوسطى عام ١٠٩٣م ، ص ٨٦-١١٥، جامعة دوبلن ، بريطانيا، ٢٠٠٤م، الترقيم الدولي : ISBN 1-900621-99-1 .

سيصير لاحقا الجنرال غردون أوف خرطوم، ثلاث رجال ولدوا على التتالي في أماكن متفرقة ستجعل لهم الأقدار الإلهية دورا في تاريخ السودان ودارفور ، إثنين لعبا دورا مباشرا هما الزبير وغردون ، وثالث لم ير السودان لكنه أثر في السياسة الدولية آنذاك وأثر في طريقة سير الأحداث بالنسبة للسودان وهو تيبو تيب الذي ولد وعاش في زنجبار وتشابه سيرته إلى حد كبير سيرة حياة، تأسيس تجارة الرقيق في السواادان، والزبير بعمر ٢٤ عاما فقط وفي عام ١٨٥٣م تأسست تجارة الرقيق على يد القنصل الإنجليزي جون باتريك والقناصل الأوربيين الآخرين في الخرطوم وذلك وفقا لما ذكره إي بي سكوت مؤلف كتاب ستانلي وحملته البطولية لإنقاذ أمين باشا[١] .

١ - روجر كليمنت، الدبلوماسية البريطانية في مواجهة السياسة البلجيكية بأفريقيا الوسطى عام ١٠٩٣م ، ص ٨٦-١١٥، جامعة دوبلن ، بريطانيا، ٢٠٠٤م، الترقيم الدولي : ISBN 1-900621-99-1 .

جرائم العبودية في
الكونغو الأفريقية

جذبت أنشطة الملك البلجيكي ليوبولد أطماع الدول الإستعمارية الأخرى ، فسارعت لإنتزاع حصتها من الوليمة ، ولاسيما أن بلجيكا مملكة صغيرة الموارد، ولم يكن لديها جيش قوي ولا أسطول بحري ولذا فلم يأت اهتمام ليوبولد بأفريقيا وبمنطقة الكونغو من فراغ فقد سبقه جهود المكتشفين ولاسيما البريطانيين الذين نجحوا في الوصول الى بحيرتي فيكتوريا وتنجانيقا في وسط القارة كما أدت اكتشافاته أن نهر اللوالابا متصل بنهر الكونغو، وقد أدت جهود البعثات البريطانية الى كشف الغموض عن كثير من المجاري المائية الافريقية مما دعا الى الملك ليوبولد لعقد مؤتمر في بروكسل في عام ١٨٧٦م[١] .

وكان الهدف منه الكشف عن الأقاليم الواقعة بين المحيطين الأطلنطي والهندي وجنوب الكونغو، وأسفر المؤتمر عن صدور عدة قرارات منها تأليف الهيئة الدولية لاكتشاف أفريقيا وادخال الحضارة فيها، وأكد ليوبولد بعد المؤتمر أن بروكسل ستكون مركز الحضارة في اوروبا، وكلف ليوبولد مستكفاً بريطانياً (ستانلي شيفلد) بالعمل في خدمته وارسله الى الكونغو في عام ١٨٧٩، وكان الغرض الرئيسي من بعثته هو فتح طريق المواصلات والملاحة بين الكونغو والمناطق الساحلية ونجح ستانلي بمهمته واسس عدة محطات بالكونغو،منها مدينة (ليوبولد فيلد) عام ١٨٨١ م، ونجح ستانلي في عقد عدة معاهدات للحماية مع الزعماء المحليين، وقد أدت تحركات ستانلي الى الصدام مع المستكشف الفرنسي (دي برازا) والذي كان يعمل على الضفة اليمنى لنهر الكونغو، وقد تم حسم الخلاف بين الدولتين في مؤتمر برلين، وتم الاعتراف بدولة الكونغو الحرة تابعة للملك ليوبولد الثاني ثم تتبع بعد ذلك اتفاق لتحديد الحدود في ٢٩ أبريل

---

١ - روجر كليمنت، الدبلوماسية البريطانية في مواجهة السياسة البلجيكية بأفريقيا الوسطى ، ص ٨٦-١١٥.

١٨٨٧م، تعهدت فيه دولة الكونغو الحرة أن يكون نهر الاوبانجي هو فرع من فروع الكونغو الغربي وهو الحد الفاصل بين حدود الكونغو الفرنسي ودولة الكونغو الحرة١ . وجدير بالذكر أن الملك ليوبولد الثاني ما كاد يحصل على الاعتراف كحاكم ومالك لدولة الكونغو الحرة حتى ألقى جانبا بالمبادئ الانسانية التي ينادي بها ووضع بدلا منها سياسة الاستغلال والاحتكار وسخرالأهالي بطريقة غير انسانية لتحقيق الاستغلال التي رسمها وأصدر عدة قوانين وأصبحت الكونغو بموجبها ضيغة تستغل وتستثمر لحساب التاج البلجيكي وأصدر أمرا ملكيا في عام ١٨٨٥ باعتبار دولة الكونغو الحرة ملكا خاص لها، ولم يستقر الأمر للملك ليوبولد بعد تدعيم سيطرته على دولة الكونغو الحرة، فقط كان عليه مواجهة عقبة كبيرة ظهرت في شرق دولته أي من المنطقة الواقعة بين بحيرة تنجانيقا وشلالات ستانلي وتمثلت العقبة في حميد محمد المرجبي والذي اشتهر باسم تيبوتيب ونجح في تكوين دولة عربية عصامتها كاونجو وقد وصف الاوروبيين دولته بأنها جزيرة محمدية وسط مجتمع وثني ووسط البعثات التنصيرية، وتجدر الإشارة إلى أن أن نشاط التجار العرب في الكونغو يرجع الى طول مدة استقرار العرب في شرق أفريقيا وتأسيس المدن وخبرتهم بالتجارة مما أدى الى اندفاعهم من شرق القارة وتوغلهم فيها غربا فأقاموا المراكز التجارية ولا ننسى وجود الطرق التجارية بين الساحل الشرقي الى داخل القارة، كذلك كان لاجادة وخبرة العرب بفنون الملاحة أثرا كبيرا في سهولة توغلهم داخل القارة ونجاحهم في استغلال الطرق البحرية للتوغل في غابات الكونغو مثل نهرلوالابا ، واللوماجي، كذلك تميز الكونغو بالمنتجات الاستوائية وتزايد الطلب العالمي علهيا ولاسيما العاج والذي تنقل لمسافات طويلة من الكونغو حتى الساحل وهو سلعة تتحمل النقل ولا تتعرض للتلف[٢]، وأمام انتشار التجار في منطقة شرق الكونغو

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، شركة هاتشسون وشركاه،(Hutchinson & Co)، لندن ، ص ٦، ط/ ٤، ١٩٠٩م.

٢ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ١٥، ط/ ٤، ١٩٠٩م.

وارتباطها بالعرب عاش العرب في تجمعات أو مراكز خاصة بهم ، وكانت علاقة العرب بالزنوج في تلك المناطق تتسم بحسن الجوار، ويرجع الفضل الى التجار العرب في تنظيم التجارة في الكونغو وحماية الاوروبيين والمكتشفين عند توغلهم بتلك المناطق أمثال بيروتون وستانلي لفنجستون ، وسيدني هايد [١].

كان سيدني هايند الضابط المشارك في الحرب العُمانية- البلجيكية التي دارت في اواخر القرن التاسع عشر، وسيدني لانجفورد هايند، هو طبيب انجليزي التحق بقوات ملك بلجيكا الساعية للتفرد بالكونغو دون العرب العمانيين الذين سبقوهم في استكشاف المنطقة ومد نفوذهم فيها لما تملكه من ثروات طبيعية، نشبت الحرب في العقد الاخير من القرن التاسع عشر بعد ان ضاقت الكونجو بحكومتين إحداهما عربية عمانية وأخرى بلجيكية وأصبح لزاما أن تسقط إحدى هاتين الحكومتين، الحكومة العمانية تأسست على يد التاجر العماني حمد المرجبي المعروف بتيبو تيب الذي تمكن من كسب ولاء زعماء القبائل الأفريقية ليسيطر على شرق الكونغو، تمكن تيبو تيب من خلال سيطرته على شرق الكونغو من السيطرة على مصادر تجارة العاج لصالح سلطنة زنجبار الأمر الذي لم يناسب بلجيكا والتي أرادت أن يتبع مركز تجارة العاج والمطاط (السلعة الواعدة في ذالك الوقت) الى مستعمرتها الجديدة في غرب أفريقيا على حساب شرق أفريقيا وعاصمتها زنجبار، خلفت الحرب أكثر من سبعين ألف قتيل ، وانتهت بهزيمة العُمانيين وانهيار دولتهم بالكونغو على يد البلجيكيين.

وقد قام حميد المرجبي [٢] ، برحلات داخل الكونغو قبل أن يستقر فيها خلال ١٨٥٠-١٨٧٤م ، حيث أقام دولته، وقد هادنت بلجيكا في بداية الأمر بل اعترفت بسيطرته على

١ - سقوط العرب في الكونغو، سيدني هايند، ط١ ، ص ١٣٥ ، ترجمة أحمد العبيدلي،لادكيفورت للنشرو والتوزيع ليون، فرنسا، ٢٠٠٨م،

٢ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ١٥، ط/ ٤، ١٩٠٩م، ويعتبر حميد بن محمد المرجبي واحد من أشهر التجار العمانيين في شرق افريقيا في مطلع القرن التاسع عشر، تاجر في الرقيق والعاج، ولد في زنجبار وكانت له صلات قوية ببعض القبائل الافريقية مما ساعد على نجاح تجارته وتقوية نفوذه حتى أن كثيرا من المؤرخين الأوروبيين للقارة الافريقية

الاقليم الشرقي من البلاد، ولاجدال في أن التجار العرب أسدوا الخدمات الجليلة لبلجيكا وساعدوهم على التوغل داخل القارة والكونغو فقد كانوا يجهلون أهدافهم الحقيقية ولم ينتاب الشك حميد المرجبي حتى عندما وجد البواخر البلجيكية في نهر الكونغو وعندما أقامت بلجيكا المحطات على طول النهر المزودة بالأسلحة زودت حميد أيضا وأهدته بعض منها.

ثم بدأ التوتر بين الطرفين عندما غير ستانلي أسلوب تعامله مع العرب فبدأ يحتكر تجارة العاج ويكره العرب على الاتجار في سلع أخرى والزمهم بتصديرها من غرب أفريقيا وليس من سواحلها الشرقية كما اعتداوا وكان الهدف الرئيسي هو تمهيد الطريق لسيطرة البلجيكية، وجاء رد فعل حميد المرجبي عنيفا فعمل على تجميع التجار العرب حوله ومنع التعامل مع التجار البلجيك وحققت هذه السياسة نجاحا مما اضطر الادارة البلجيكية الى التراجع عن سياستها هذه وبعد وانعقاد مؤتمر برلين وقيام دولة الكونغو الحرة اعترفت الأخيرة بسلطة حميد المرجبي في عام ١٨٨٧ في الاقليم الشرقي من الكونغو بل منحته راتبا شهريا باعتباره ممثلا للملك ليوبولد في هذه المناطق على أن يعمل لاستتاب الأمن وأن يسمح باقامة قوى بلجيكية صغيرة من الجنود في الجزر المقابلة لشلالات ستانلي، وقد انتهز التجار العرب الفرصة خلال تلك الفترة لكي يحصلوا على ما يحتاجون اليه من الاسلحمة ثم سارعت القبائل للانضمام تحت زعامة حميد المرجبي باعتباره ممثلا للقوة الوطنية في المنطقة، ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين الطرفين ساعد على ذلك عدة عوامل منها نشاط المهدية في السودان وتاثر حميد المرجبي بها فبدأ ينظر لرجال الادارة البلجيك على أنهم يمثلون سلطة أجنبية لها خطورتها، كذلك استطاع الملك ليوبولد تدعيم سيطرته على دولة الكونغو الحرة وأراد مد نفوذه الى باقي أنحاء البلاد، فبدأ في شن

أشاروا للحماية التي وفرها لهم المرجبي في مذكراتهم، غير أنه يعاب على حميد المرجبي كثرة مجازره وجرائمة المرتكبة بحق بعض القبائل البدائية في الكونغو.

سلسلة من الهجومات على التجار العرب وشنت الصحف البلجيكية الحملات ضدهم واتهمتهم بالاغارة على المراكز البلجيكية، فاستغل ليوبولد هذه الفرسة وبدأ في الاستعداد لمحاربة العرب وحميد المرجبي فأوفد بعثة عسكرية بقيادة دين وهو من أصل بريطاني، هاذ فتصدى سيفو بن حميد المرجبي لقوات دين وتحصن في ساحل شرق افريقيا ونجح في قتل دين والتصدي للقوات البلجيكية[١].

وصمم الملك ليوبولد على التصدي لحميد المرجبي فقادت القوات البلجيكية عدة معارك ضده استمرت حتى عام ١٨٨٩ نجح خلالها ليوبولد في التوسع على حساب دولة حميد. وفي عام ١٨٩١ تم تكثيف الحملات العسكرية في وسط الكونغو بواسطة القائد هوديستر وفي عام ١٨٩٣ تم ارسال دنيس الذي نجح في الحاق الهزيمة بالزعيم جونجولونتي وكان متحالفا مع العرب فنقض تحالفه وانضم الى القوات البلجيكية، وامدهم بالمؤن والرجال، كما سمح لهم بدخول محطة كابندا التابعة له، سعى سيفو ابن حميد المرجبي للانتقام من القوات البلجيكية ونجح في أسر القائد دنيس الذي ارسل في ١٨٩٢ يستغيث بقوات بلاده حيث سجنه سيفو (في قصره) كما خرج سيفو من كاسونجو على رأس عشرة آلاف مقاتل مسلحين وطالبوا القوات البلجيكية بتسليم الزعيم جونجو لوتني حيا أو ميتا وهدد بعبور نهر لوماجي ليقضي على القوات البلجيكية وهدد بالتقدم نحو مدينة ليوبولدفيل، وفي عام ١٨٩٢ عبرت القوات البلجيكية نهر لوماجي وهزمت سيفو واستولت على الحصون التابعة له وقتلت أكثر من ثلاثة آلاف من قواته واضطر سيفو للعودة الى عاصمة بلاده غير أن مقتل قائد قواته موهارا ١٨٩٣ أدى الى اضعاف الروح المعنوية لقواته فقد كان من أفضل القادة، وأثر مقتله على الجيش العربي وتقدمت قوات ليوبولد جنوب نيانجوي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر اللولابا وكانت من أهم المراكز التجارية

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٣٦، ط/ ٤، ١٩٠٩م

فسقطت في عام ١٨٩٣ وتم تخريب المدينة وتشتيت سكانها والتنكيل بهم وفي ١٧ أبريل نجحت القوات البلجيكية في دخول كاسونجو عاصمة تيبوتيب.

ورغم سقوط كاسونجو الا أن المقاومة استمرت حتى شهر ديسمبر ١٨٩٣ غير أن مقتل سيفو جعل كفة القوات البلجيكية ترجح، وقد تدفقت الامدادات على سيفو قبل مقتله من العرب والمسلمين لشد ازره في مقاتله القوات البلجيكية ومن أشهر هذه الشخصيات روماليزا الذي قدم من بحيرة اوجيجي وعبرة بحيرة تنجانيقا ووضع نفسه في خدمة سيفو، وأقام ثلاث حصون صغيرة قوية في الطريق المؤدي الى كوسونجو، كذلك قدم الخبرات الزعيم نزيجي ابن جونجولوتتي الذي أعدمها البلجيك رغم المساعدات القيمة التي قدمها لهم. كما كون راشد بن نزيجي قوة كبيرة من العرب واستمر تدفق الامدادات العربية والأفريقية من المنطقة المحيطة ببحيرة تنجانيقا مما اضطر القوات البلجيكية الى طلب النجدات من بلادها لتعزيز قوتها العسكرية، وكثفت حملاتها لاقاء القبض على روماليزا واضطرت نزيجي للفرار الى زنجبار وفي عام ١٨٩٤ استولت على حصون روماليزا الذي فرى الى الغابان واتجهت القوات البلجيكية للقضاء على آخر الحصون العربية.

وفي عام ١٨٩٤ كثفت القوات البلجيكية هجماتها على حميد المرجبي واضطر الى الانسحاب الى زنجبار ولاسيما بعد مقتل ابنه وقواده ولكن القوات البريطانية في ساحل شرق أفريقيا خشيت من وجوده في المنطقة فألقت القبض عليه وسجن الى ان توفي في عام ١٩٠٦م، ويمكن القول بأن دولة حميد المرجبي العربية في شرق الكونغو كان لها آثار بالغة الأهمية كمساهمته في انتشار الاسلام في المناطق الاسلامية، وقد بسط حميد المرجبي نفوذه التجاري في مناطق متعددة منها نياسالاند وأراضي الباروتسي ووطد علاقته التجارية مع القبائل ونجح في مد النفوذ العربي حتى أفريقيا الوسطى الجنوبية، كما لم يجبر العرب السكان على الدخول الى الاسلام مثلما فعلت البعثات التنصيرية بل تركوهم حتى فضلوا الدين الاسلامي طواعية وقد اعترفت بيرتون بأن عرب ادنيا مويزي لم يكونوا

مستعمرين.وقد ترك العرب آثارا حضارية في الكونغو ففي المجال الثقافي سهلوا مهمة المكتشفين الاورويين فكانوا بمثابة الجنود المجهولين الذين اعتمد عليهم لفنجستون وستانلي في التوغل، كما أنهم نشروا الأمن على طول الطرق التجارية، كما أقام العرب المدن العربية في شرق الكونغو مثل نيانجوي وكاسونجو وكبيونجي وكاسوكو، وربيااربيا وكابانجا وكانت محطات لتجميع تجارة الكونغو، وانتشرت اللغة العربية والسواحيلية ولم يتدخل العرب في حياة السكان الاجتماعية وأقاموا الكتاتيب، وطور العرب التجارة الافريقية وساهموا في تقدم الزراعة وأدخلوا حاصلات زراعية مثل الصمغ، والقطن، الليمون والعنب، كما استغلوا ثروة الكونغو بالمعادن، ولاسيما الحديد والذهب والفضة والفحم فاستخرجوا هذه المعادن وطوروا صناعات النسيج والزيوت والصابون ولكن تلك الحضارة التي اقاموا العرب في الكونغو عمل البلجيكيون على القضاء عليها[١].

محاولة التوسع شمالا في غرب السودان (مناجم النحاس( ) :

لم يقف الملك ليوبولد الثاني بأطماعه عند حدود الكونغو وانما عمل وحاول مد نفوذه في النيل، وأتاحت له الظروف الداخلية المضطربة في مصر والسودن الفرصة لتحقيق الأطماع فاتصل بجوردون القائد المكلف باخلاء السودان للاستعانة به في تحقيق أطماعه في حوض النيل وغرب السودان ، خاصة في المنطقة الواقعة جنوب غرب دارفور المسماة بحفرة النحاس والتي اشتهرت بثروتها المعدنية فتتبع أحداث الثورة المهدية على أمل أن يسيطر على هذه الجهات عندما تنتاب الضعف قوات الدراويش، وتحقيقا لهذا الهدف اتصل ستانلي عام ١٨٨٩ بأمين باشا الحاكم المصري في المنطقة الاستوائية وكان لها مركز حرج بسبب انتشار الثورة المهدية وانقطعت صلاته بالمناطق الشمالية وكانت المديرية الوحيدة التي لم تقع في يد الدراويش بعد انسحاب القوات المصرية فعرض عليه

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٣٩، ط/ ٤، ١٩٠٩م

ستانلي أن يبقى في المنطقة مديرا وحاكما عليها ولكن في خدمة الكونغو الحرة وان يورد ايرادا معقولا للمديرية ولكن أمين باشا رفض هذا العرض، وفي عام ١٨٩٣ أرسل ليوبولد حملة بقيادة فان كركهوفن وصلت الى وادلاي على النيل فتخوفت دول اوروبا من أطماع ليوبولد واسرعت بريطانيا بعقد معاهدة ١٨٩٤ مع بلجيكا بمقتضاها أجرت بريطنيا المنطقة الواقعة غرب بحيرة ألبرت بين خطي ٣٥و٢٥ درجة شرقا جرينتش وخط عرض ٤٠،١٠ درجة الى الملك ليوبولد شخصيا مدى حياته فقط على أن تسترجع بريطانيا المنطقة بعد وفاته في مقابل أن تعطي بلجيكا بريطانيا معبرا شريطا من بحيرة ادوارد الى بحيرة تنجانيقا، وتكمن أهمية هذه المعاهدة في أن الأراضي التي منحت الى الملك ليوبولد امتدت على الشاطئ الايسر للنيل عند ماهاجي على الشاطئ الغربي لبحيرة ألبرت حتى فاشودة، وقد اعترضت فرنسا على هذه المعاهدة وتمسكت بحقوق وسيادة مصر على بحر الغزال حسب فرمانات الدولة العثمانية والتي اعترف بها مؤتمر برلين من قبل[١].

وضغط هانوتو وزير الخارجية الفرنسي على ليوبولد الثاني عن الابحار ونظم ديلكاسية وزير المستعمرات حملة لطرد القوات البلجيكية، وعملت فرنسا على التقرب من ألمانيا من أجل مقاومة الاتفاق البلجيكي البريطاني – والغريب في موقف فرنسا هو تمسكها بأن هذه المناطق تابعة لمصر وللدولة العثمانية وضرورة تخلي بلجيكا عن احتلال بحر الغزال. والاكتفاء باستئجار حاجز اللادو، ولكن عندما جاء مارشان بحملته على فاشودة تغير الموقف الفرنسي حسب ما تقتضيه مصالحها الاستعمارية فأعلنت الحكومة الفرنسية أن السودان أرض مباح منذ انسحاب القوات المصرية منه، وأما ضغط فرنسا تنازلت بلجيكا عن هذه المناطق من بحر الغزال مقابل تعهد فرنسا بعدم معارضتها في استئجار حاجز

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٥٧، ط/ ٤، ١٩٠٩م

اللادو، وقامت القوات البلجيكية باحتلال حاجز اللادو، ولكن القوات البلجيكية لم تكتف بالوقوف عند اللادو وانما تطلعت للتقدم منه شمالا الى منطقة حفرة النحاس جنوب دارفور فتوغلت في منطقة بحر الغزال عام ١٨٩٥ ومنها الى حفرة النحاس ولكن التعايشي أرسل حملة بقيادة الخدم موسى لطرد القوات البلجيكية، وبعد انسحاب فرنسا من فاشودة عام ١٨٩٨ عاودت الآمال الملك ليوبولد وتطلع لمد نفوذه في غرب السودان حتى منطقة حفرة النحاس فحاول عقد معاهدة جديدة مع بريطانيا لمد خط حديدي من الكونغو حتى أعالي النيل ولكن مشروعه رفض فقد كانت بريطانيا مصممة على ابعاد بلجيكا عن السيطرة على أي قسم من النيل واستمرت المفاوضات بين الدولتين من أجل عقد المعاهدة منذ عام ١٩٠١ ثم قطعت عام ١٩٠٣ لعدم اتفاق الطرفين، ثم اقترحت بريطانيا في عام ١٩٠٢ ارضاء بلجيكا باستبدال حاجز اللاود بأراضي بحر الغزال الواقعة جنوب عرض ٦،٣٠ شمالا وهذا يعتبر أكبر من حاجز اللادو ستبقى هذه الأراضي في حوزة بلجيكا بعد وفاة ليوبولد ، بينما حاجز اللادو تنتهي سيطرة بلجيكا عليها بعد وفاة ليوبولد ولكن الأخير رفض فقد كان مصرا على أن يحصل على المناطق الواقعة عند حدود دارافور أي منطقة حفرة النحاس١.

وفي عام ١٩٠٣ أرسل الملك ليوبولد بعثة الى منطقة حفرة النحاس بقيادة لاندهام تقدمت من حاجز اللادو الى دارفور ولكنها قوبلت بالاحتجاجات البريطانية فطلب ليوبولد بالتحكيم ولكن بريطانيا رفضت هذا المبدأ. وبرر ليوبولد ارسال بعثة لاندهام الى دافور بانها بعثة طبوغرافية ليست لها أي أهداف سياسية أو عسكرية ولكن بريطانيا أصرت على انسحاب البعثة من جنوب دارفور وكادت الدولتان أن تشتبكا في عام ١٩٠٣ بسبب هذه لابعثة مثلما حدث في فاشودة من قبل عام ١٨٩٨ عندما كادت بريطانيا أن تشتبك

---

١ - جريمة الكونغو، لأرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٥٨، ط/ ٤، ١٩٠٩م

في حرب مع فرنسا لولا أن الأخيرة سارعت بسحب قواتها من المنطقة وهو ما فعلته بلجيكا أيضا فقد أثرت الانسحاب من حفرة النحاس، ولكن تباطأت قوات القائد البلجيكي لمير في الانسحاب من الأراضي السودانية فهددت بريطانيا باستخدام القوة في عام ١٩٠٥م، وكان كرومر في مصر يؤكد دوما أن البعثة البلجيكية سوف تضطر للانسحاب عن المنطقة وذلك أن موسم الأمطار اقترب في بحر الغزال وسوف تنقطع صلاتها بمراكزها، كذلك بسبب النفقات الطائلة التي سوف تسنفذها البعثة وأنه من الأفضل لبريطانيا الاستمرار في الضغط الدبلوماسي على بلجيكا، وهكذا اقتضت مصلحة بريطانيا الضغط على بلجيكا واجبارها على الانسحاب من حفرة النحاس وذلك لكي تستخلص السودان لنفسها فتصدت لبلجيكا بمختلف الوسائل الدبلوماسية وثم بواسطة الضغط والتهديد حتى أجبرتها على التراجع من المنطقة والاكتفاء بحاجز اللادو.

وفي عام ١٩٠٦ تم تسوية حدود السودان وتنازل ليوبولد عن المطالبة باستئجار بحر الغزال واكتفى باستئجار حاجز اللادو على أن تعود هذه المنطقة الى السودان في ظرف ستة أشهر من انقضاء تمل ليوبولد لها، ولم يكن جديداً على الصحفيين الأمريكيين القيام بمهمات سياسيه تخدم أغراض وتوجهات بلادهم الإستعماريه على شكل مقابلات صحفيه مع ملوك أو رؤساء العالم وتحديداً أولئك الذين تنوي الولايات المتحده الإطاحه بهم أو بممتلكاتهم، وبالطبع لميكن ذلك بهدف إنساني .

فقد قام الصحفي الأمريكي جورج واشنطون وليامز بالسفر الى بلجيكا لمقابلة الملك البلجيكي ليبولد الثاني وإجراء حوار معه في بروكسل عن (المشروع النبيل) الذي يقوم به ليوبولد في الكونغو ، وهو محاربته للعبوديه في هذا البلد البعيد عن بلجيكا وقيامه بتثقيف الأفارقه وتدريبهم على إدارة بلادهم كواجب أخلاقي إتجاه الأفارقه، ويصر على عدم تقاضي ولو فرنك بلجيكي واحد في مقابل ذلك !.

وقد أطلق الصحفي على الملك بعد هذا اللقاء ألقاب التفخيم والتبجيل كالحكيم أو شخص من أنبل الحكّام في العالم وأنه يعامل رعاياه بالحكمة والرحمة والعداله ، بعد نشر المقابله في الصحيفة الأمريكيه قام جورج واشنطون وليامز بالسفر الى الكونغو بسفينة بخاريه وكتب عن الملك ليوبولد الثاني تقريراً إتهمه فيه جرائم ضد الإنسانيه وأنه لا يحارب العبوديه في الكونغو كما كان يدّعي، ولكنه في الحقيقة يؤسس لها ويرسّخها، ثم كتب رساله الى الرئيس الأمريكي جروفر كليفلاند ، يشرح له فيها الأوضاع في الكونغو، وبإختصار قام الأمريكان بعمل فضيحه مدويه عما يقوم به الملك ليوبولد الثاني داخل الكونغو ولكن ليس من أجل الكونغوليين أنفسهم وإنما من أجل مصلحة الولايات المتحدة الأمريكيه لأننا حين نصل الى الحرب الأمريكيه على الكونغو سنرى أن الأمريكان إرتكبوا فضائع بحق الشعب الأفريقي عموماً والكنغولي بشكل خاص ، قد فاقت كل جرائم ليوبولد الثاني بشاعة ودموية .

نبذة عن سيرة الطاغية الملك البلجيكي ليبولد :

ولد ليوبولد الثاني عام ١٨٣٥ في ضاحية (ليكين) الملكيه على أطراف العاصمه بروكسل في طفولته كان نحيفاً عليلاً، والده كان يطلق عليه لقب (غريب الأطوار)، والدته الملكه لويزا ماري كانت تشبّه أنفه الكبير على وجهه النحيل بأنه يشبه المنقار ، وكان الوالدان يفضلان عليه أخاه الأصغر فيليب، كلّف الوالدان كولونيل في الجيش البلجيكي للعنايه بالأطفال ليوبولد وفيليب وأختهما شارلوت فأدار الكولونيل حياة الأطفال كما لو أنهم في معسكر،كان البوق يصحيهم من النوم عند السادسة صباحاً ليبدأ الواجب حتى الخامسة عصراً تتخلله ٣ ساعات للراحة وقت الغداء.

الملكه الأم كانت تواصل مع أولادها عند المساء فتأمرهم بالدراسة مدة ساعه وتمتحنهم شهريا ً ومن ينجح منهم تهديه كتابا ً، ولم تكن الأم راضية عن مستوى إبنها ليوبولد وتعتبره كسولاً مقلقا ً ومستوى تعليمه سيء، كان عمره ١٥ عام حين ماتت الأم

فأصبحت العلاقة فاترة جداً داخل العائله، الملك كان يرسل تعليماته الى أولاده بواسطة السكرتير ونادرا ًما كانت العائله تجتمع لتناول الطعام، وعلى الرغم من مستوى تعليم ليوبولد السيء لكنه كان شغوفاً بمعرفة العالم وأخباره وكان يتكلم في السياسه ويحب دراسة الجغرافيا، كوّن صداقات مع وزراء البلاط وكان يطلب منهم معلومات دقيقه وخرائط مفصله عن العالم خارج بلجيكا، وقد كانت بلجيكا محاطة بجيران أكثر قوة منها بروسيا (ألمانيا)، النمسا ، هنغاريا ، هولندا ، فرنسا ، إسبانيا ، بريطانيا ، منذ العام ١٥٠٠ كانت هذه الدول تستعمر بلدان حول العالم في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينيه غير أن بلجيكا لم تكن تمتلك مستعمرات!! ولهذا كان ليوبولد يشعر بالأسى (١)، عام ١٨٥٣ أصبح عمر ليوبولد ١٨ عام عندها قرر والده تزويجه لغرض عقد تحالف مع البلد الجار القوي النمسا ، فإختار له الأرشيدوقه النمساويه ماري هنرييتا ، وكانت فتاة حيويه تهوى ركوب الخيل والموسيقى والكتب والفنون، متحدثه لبقه ومرحة[١].

أما ليوبولد فكان يفتقد روح المرح ولكن يمكنه أن يتحدث لساعات عن الحروب والسياسة، تركت العروس بيت أهلها في النمسا وانتقلت الى بيت العريس الذي كان نادرا ً ما يتحدث معها ولهذا سعت الى تكوين صداقة مع شارلوت أخت العريس ، لكن شارلوت تجاهلتها أيضا ً عندها بدأت العروس تتنزه منفرده في جولات على الحصان ، وعند المساء كانت تذهب وحدها الى الحفلات السمفونيه ليوبولد كان يحث والده الى إبتعاثه في سفرات حول العالم فسافر الى تركيا وفلسطين وايطاليا واليونان ومصر ورومانيا والبلقان ثم ذهب الى سيلان والهند وبورما وسنغافورة، أجرى لقاءات مع السلطان العثماني والخديوي المصري وعدد كبير من الأمراء الأوربيين، ومن خلال كل هذه الرحلات والمقابلات بلوّر ليوبولد فكرة واحده بلجيكا أيضا ً ينبغي أن تكون لها

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٦١، ط/ ٤، ١٩٠٩م

مستعمرات.عندها بدأ ليوبولد بالتحرك هادفاً لشراء مستعمرات لبلجيكا، حاول شراء بحيره على نهر النيل من الحكومة المصريه، تفاوض مع بريطانيا على شراء بورنيو، تفاوض للحصول على جزر فيجي في المحيط الهادي ، جزيرة فرموزا في الصين ، مقاطعات في الأرجنتين ، وجزيره عند نهر الأرغواي ، عند التدافع على إستعمار قارة أفريقيا أسست فرنسا لنفسها قاعدة في السنغال ، أما البريطانيون فقد جذبتهم نيجيريا، في هذه الأثناء مات الملك الأب يوم ١٠ كانون أول ١٨٦٥م ، بعدها بأسبوع جلس إبنه ليوبولد على كرسي العرش،إرتدى بدلة عسكريه برتبة جنرال وإمتطى حصاناً جاب به أنحاء بروكسل دون زوجته وأطفاله، فعلاقته مع أسرته كانت متباعدة جداً رغم أنه عند وفاة إبنه البكر بعد ذلك التاريخ ب ٤ سنوات وكان طفلاً في التاسعة من العمر فإن الملك ليوبولد الثاني جثى على ركبتيه أمام النعش وبدأ بالنحيب ، وفي عام ١٨٨٩ م ذهب صحفي أمريكي يدعى (ديفد ليفنغستون) لافريقيا وفقد هناك ، فتم تكليف (هنري مورتون ستانلي) بالبحث عنه، وتم العثور على ليفنغستون بعد عام من البحث في قرية (أوجيجي) لكن ليفنغستون لم يكن راغبا مغادرة افريقيا، وحين عاد هنري مورتون ستانلي الى اوربا ألّف كتاباً عنوانه (كيف عثرت على ليفنغستون)[١] .

وفي الكتاب معلومات تفصيليه عن رحلته داخل أفريقيا فجذب هذا الكتاب نظر الملك ليوبولد الثاني، بعد عام سافر الملك الى لندن وإلتقى برحاله يدعى (فيرني لوفيت كاميرون) وكان هذا الرحاله قد دخل الى أفريقيا عن طريق جنوب نهر الكونغو، أخبر الرحالة الملك أن الكونغو أرض ثريه بما لا يوصف فهي غنية بالفحم والذهب والفضه والنحاس والحديد وأنهارها عريضه يسهل الإبحار فيها لنقل الغنائم ، فكّر الملك أنه وسط تدافع الدول القويه في العالم للإستحواذ على أفريقيا، فإنه لو إدعى أنه يريد إستعمار

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٥٨، ط/ ٤، ١٩٠٩م

شيء لمملكته فإن هذه القوى ما كانت ستسمح له بذلك ، ولهذا هيأ لنفسه فريقاً من الرحالة الجيدين وإندفع بهم نحو أفريقيا مدعياً أنه ذاهب لمساعدة الأفارقه وتطوير حياتهم!، عند وصول البعثه الى أفريقيا قاموا بتأسيس (الرابطه الأفريقيه الدوليه) وصمموا لها علماً هو عبارة عن نجمة ذهبيه على خلفية بلون أزرق ثم إنتخبوا الملك ليوبولد ليكون رئيساً لهذه الرابطه، لم يقل الملك شيئاً خلال المؤتمر عن رغبته في حيازة مستعمره ، لكنه أصر على عدم رغبته في مال أو سلطه وأن كل ما يسعى إليه هو مساعدة الأفارقه!، حالما إنتهى المؤتمر كتب الملك في مذكراته أنه يريد الكونغو لنفسه وأنه في شوق لوضع يده على شريحة من كعكة افريقيا الشهية!، بعد عام على إنتهاء هذا المؤتمر أي في حزيران ١٨٧٨م، التقى الملك بالرحاله هنري مورتون ستانلي الذي كان قد جاب الكونغو ويعرف عنها الكثير وتعاقد معه على راتب سنوي يقدر حاليا ب ٣٠٠ ألف دولار في العام مقابل أن يعود ستانلي الى افريقيا ويؤسس قاعدة في الكونغو ثم يبدأ بالتوسع من هذه القاعده وفي جميع الإتجاهات وبأقصى مسافة ممكنه[1].

عند هذه النقطه حل الملك (الرابطه الأفريقيه الدوليه) وشكل محلها (رابطة الكونغو الدوليه) مع بقاء الرابطه الجديده تحمل نفس علمها القديم، كلمة (الدوليه) في عنوان الرابطه لا تعني شيئاً بالمره ، لأن الرابطه محكومة من قبل ليوبولد وحده ولا أحد غيره، كان ستانلي وإنطلاقاً من قاعدته يعبد الطرق ويبني المحطات في الكونغو وجميعها تحت علم الرابطه التي يملكها ليوبولد، في شباط ١٨٧٩م، وضع الملك ليوبولد والرحاله ستانلي خطتهما للسيطرة على الكونغو أخذ ستانلي يندفع في كل الإتجاهات ويضع علامات على الطريق مكتوب عليها (م . ستانلي) لتحاشي ذكر أسم الملك ودفعاً للريبة عنه .

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٦٣، ط/ ٤، ١٩٠٩م

أرسل ليوبولد ١٢ رحاله أوربي لمساعدة ستانلي بعد أن جعلهم يقسمون أمامه على عدم الحديث عن مهمتهم حتى لأقرب الناس إليهم، في آب من نفس العام عاد ستانلي الى الكونغو ومعه ٨٠ شخص مسلح وأرسل المئات من الرسائل الى زعماء القبائل الأفريقيه يدعوهم الى إجتماع وطلب منهم أن يوافقوا على مد طرقه داخل أراضيهم وأعطاهم بعض الهدايا ، وهكذا تم تأسيس مستعمرة ليوبولد التي انتهى منها عام ١٨٨٢م، وتم تسليح ستانلي ب ١٠٠٠ بندقيه و ٢٠ مدفع و٤ رشاشات آليه لمهاجمة القبائل المشاغبه وغير المتعاونه .

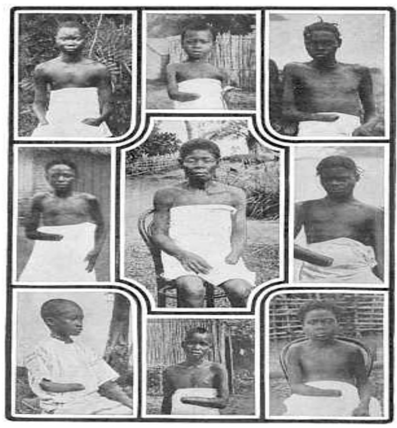
وفي عام ١٨٨٤ عاد ستانلي الى بلجيكا وأخبر الملك أنه عبد الطرق وبنى المحطات في مساحة من الأرض تمتد ١٥٠٠ ميل وأنه وقّع ٤٠٠ معاهده مع ٢٠٠٠ من زعماء القبائل، في هذه المرحله بدأ الملك يحدث سيناتورات من الولايات المتحده عن (شعبه !) في الكونغو وعن دراسته لإقليم الكونغو ومساعدته للمسافرين ومحاولته إنهاء العبودية في افريقيا!، كذلك أقسم الملك لأحد الوزراء البريطانيين أن لا رغبة له في جمع المال من الكونغو مثلما أخبر الألمان بأن الكونغوليين يجب أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، غير أنها كانت عبارة عن مهاترات مفضوحة، فجميعهم قوى إستعماريه ولا أحد كان يصدق هذه الأكاذيب سوى المستضعفين من مواطنين الكونغو، وحتى إن صدقها أحد فالدافع حتما كان مصلحتة له في ذلك التماهي مع أطماع الملك البلجيكي الطاغية، فالمصلحة تعلو فوق الحقيقه فيما يتعلق بالكنوز الأفريقيه!، وفي نوفمبر عام ١٨٨٤م، إجتمعت القوى العظمى في برلين وكانت أمام الجميع خارطة كبيرة جداً لأفريقيا ، موضوع المؤتمر هو التفاهم على تقاسم أفريقيا، في هذا المؤتمر أتاح ليوبولد لجميع الدول المشاركه في المؤتمر بالتجارة الحره مع الكونغو، فحصل على موافقة الجميع لبسط سلطته على الكونغو، وفي العام ١٨٨٥ أصبح عمر ليوبولد ٥٠ عاما قضاها كلها في السعي للحصول على مستعمرة!، وبالفعل أصبحت لديه واحدة كان يستيقظ عند الخامسة صباحاً يشرب الماء

الدافيء ويخرج للمشي إفطاره اليومي كان ٦ بيضات مع الخبز وعلبه مربى كامله يقرأ رسائله ويشرح خططه على مائدة رمليه لمدة ساعتين يومياً يعطي أوامره ويوقّع رسائله أثناء الغداء كان الملك يتحدث بالسياسه حول أطباق المشويات والخضار ثم يعود الى مكتبه حيث يلتقي بوزرائه وضيوفه ومستشاريه ومساعديه بعدها يعود الى قصره عند السادسة والنصف مساءاً حيث العشاء وقراءة الصحف قبل النوم ، كان هذا جدوله اليومي ٧ أيام بالأسبوع دون عطلة اوإستراحة، قام ببناء (مستعمرة الكونغو الحرة!) وأدارها من فندق فخم يحتفل فيه الضيوف بعيد ميلاد الملك ليوبولد الثاني كل عام بإطلاق الألعاب الناريه في السماء[١] .

وفي عام ١٨٩٠ كان عدد المحطات التي بناها ليوبولد في الكونغو قد وصل الى ٥٠ محطه تنتشر بين القبائل التي كان أفرادها يعملون على إستصلاح الأرض وبناء المنازل ، رئيس القبيلة المرضي عنه يمنح ميداليه عليها صورة ليوبولد وخلف الصورة كتبت عبارة (ولاء وإخلاص) لكن ضباط المحطات كانوا يريدون من زعماء القبائل ما هو أكبر من الولاء والإخلاص كانوا يطالبونهم بالعاج الذي أصبحت الكونغو مصدره الوحيد الى دول اوروبا،في البدايه كان هؤلاء الضباط يشترون العاج من القبائل ، ولكننهم يستعملون القوة مع القبائل حين تشح الماده لأجبارهم على توفيرها، وبالعودة للصحفي جورج واشنطون وليامز، والذي قام عام ١٨٩٠ باتهام الملك ليوبولد الثاني بجرائم ضد الإنسانيه وإتهم ضباط المحطات أنهم لا يفقهون شيئاً عن الحياة في الكونغو ولا يتحدثون لغة البلاد ويحكمون العباد بالبنادق والسياط، ردّ الملك على ما نشره الصحفي بالإتصال بالعديد من الصحف وحث محرريها على مهاجمة الأمريكان ، ونشر بمستعمرة الكونغو الحرة!، تقرير مكون من ٤٥ صفحه للرد على الصحفي الأمريكي .

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٦٥، ط/ ٤، ١٩٠٩م

عام ١٨٩١ كانت الأمور تجرى في الكونغو بم لا يشتهي الملك اذ لم يكن يجني من مشروعه أموالاً كبيره ولهذا فرض خطة حكوميه على الكونغوليين للعمل كعمال وخدم وحمّالين حيث إستخدم ٥٠ ألف حمّال لنقل البضائع المختلفه من مواقع الإنتاج الى موانيء التصدير[١] ، وكان يتم ربط الحمّالين من رقابهم الواحد تلو الآخر بسلسلة طويله ويسيرون في رتل سوية يراقبهم الجيش والحرس وهم يحملون أحمالاً ثقيله، بعضهم كانوا أطفالاً بعمر ٧ سنوات تم إختطافهم من أهاليهم وإجبارهم على العمل، وفي إحدى الحواجز التي اطلق عليها إسم (محطة باكا) أي (مخطوفين) كان الموظفون البيض يعاملون الكونغوليين بوحشيه ويضربونهم بأداة تدعى (جيكوت) هي عباره عن سوط ثبتت في نهايته أسنان فرس النهر، أحد الضبط جلد بها ٣٠ طفلاً لأنه إعتقد انهم كانوا يضحكون عليه.



لم تكن هناك عقوبات جديه لأي موظف على مثل هذه التصرفات فحين قتل أحد الموظفين إثنين من الحمالين جلداً ولم يعاقب بغير غرامة ٥٠٠ فرنك ، وكانت القوانين في الكونغو قاسيه وقد فرض الملك ليبولد عليهم جيشاً لضبطهم سماه القوات العامه ، ضباطها بلجيكيون أما جنودها فمن سكان الكونغو أو الدول الأفريقيه المجاورة، وفي العام ١٩٠٠ كان تعداد القوات العامه هذه ٢٠ ألف جندي يتوزعون على ١٨٣ وحده منتشره في جميع الكونغو ، إضافة الى فرض الأمن كان واجب هذه القوات هم تأمين وصول العاج الى الحكومه بإجبار الأهالي على توفيره بالقوه ولهذا فقد قام مواطن

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٦٨، ط/ ٤، ١٩٠٩م

كونغولي بقتل مدير محطة (باكا) ثم قام السكان بأقفال طريق وصول البضائع الى ميناء التصدير وإستمر الشغب ٨ أشهر متواصله ، لإرعاب السكان وإجبارهم على وقف أعمال الشغب قام مدير المحطه التالي بقطع رؤوس٢١سجين وحملها على أوتاد وضعها بحديقة بيته!، وفي عام ١٩٠١م، قام رجل ايرلندي (جون دنلوب) بإختراعٍ قلب كل الموازين بالكونوغو وسال على إثره لعاب وجشع المستعمرين ووحشيتهم تجاه القبائل المحلية في الكونغو، ونقدم الحقائق التالية لنعطي صورة عن وحشية الحضارة الأوروبية المزعومة في بداية القرن العشرين.

حيث قام المخترع المذكور بتصميم عجله مرنه لدراجة ولده مصنوعه من المطاط وبعد أن وجد الفكرة ناجحه قام بإفتتاح شركة دنلوب للعجلات المطاطيه وحين زاد الطلب على هذه العجلات كانت الشركه تزيد طلبها على خام المطاط من الكونغو، وفي هذه الفتره أجبرت القوات العامه السكان على جمع المطاط وأن يزود كل رجل الحكومه ما بين ٦ – ٩ لتر من المطاط كل أسبوعين،وإلا فمصيره أن تعتقل نساء بيته وأطفاله ويتم قطع يد زوجة العامل الكنغولي أو إبنه الصغير في حال عدم تمكنه من تأمين الكمية المطلوبة من المطاطة (الصورة الجابنية أعلى الصفحة)، ولا تطلق سراح عائلته إلا بعد استلام المطاط، فأي حضارة تلك!، وأي دين أو قيم أخلاقية وانسانية يتحدثون، حتماً إنه منطق أسياد العبودية.

والحقيقة الأمرُّ من ذلك أيضاً، أنه لم يكن ثمة أي تردد عند إعتقال أو قتل أي كونغولي، كان الجنود يستلمون طلقات محدوده ولديهم أمر بقتل الكونغولي بطلقة واحده فقط ولكي يثبت الجندي أنه قتل الضحيه كان على الجندي أن يقطع كف الضحيه ويسلمها الى إدارته ولهذا كان الجنود يقطعون أيادي ضحاياهم حتى لو بقيت الضحية على قيد الحياة بعد إطلاق النار عليها!! ، وكان الملك ليوبولد يستورد الحيوانات من الكونغو لحديقة الحيوانات البلجيكيه عربات قطاره الملكي كانت مصنوعه من خشب غابات

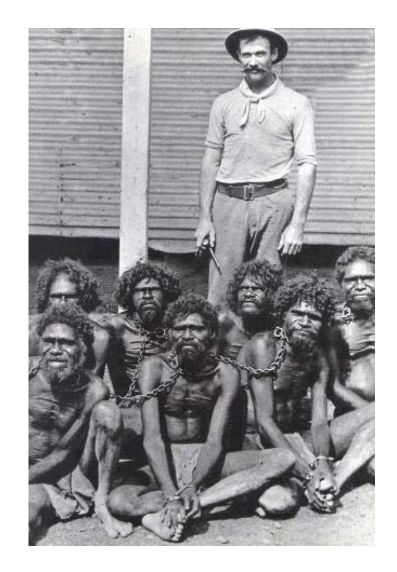
الكونغو، وقصره في (ليكين) ضم حديقة محميه داخل بيت زجاجي مليئة بالنباتات الكونغولية، والمال الذي كان يصله من الكونغو إستعمله لبناء مشاريع شخصية له في بلجيكا وفرنسا.

التدخل الأمريكي في الكونغو

(الجزء الأول - الحملات التبشيرية !)

ليس من أجل الإنسانيه ولكن لأجل السياسة الإستعمارية البحتة والتجارية والعنصرية، قامت الحكومه الأمريكيه بإرسال رجال بعثات تبشيريه أمريكيه وبريطانيه الى الكونغو كتبوا تقارير عن الأوضاع داخل الكونغو، وفي عام ١٨٩٥ قام المبشر الأمريكي الأب جون مورفي بنشر تقاريره في صحف بريطانيه تحدث فيها عن الإضطهاد والقتل وقطع الأيدي الذي يقع في الكونغو .

وحين بدأ الناس يقرأون هذه التقارير ،قام الملك ليوبولد بتشكيل لجنه مكونه من ٦ أعضاء وظيفتهم النظر في الجرائم التي تقع في الكونغو، لكن هذه اللجنه (وكما هو متوقع) لم تجد أية جريمه، غير أن شخص يدعى (أدموند موريل) ، كان يعمل في شركة النقل البحري (إيلدر دمبستر) تشرف على جميع السفن المبحره من والى الكونغو لاحظ هذا الشخص بأن السفن التي تغادر بلجيكا الى الكونغو كانت محمله بالسلاح والعتاد مع تأكيد من الملك على أهمية المحافظه على سرية تلك الشحنات، بعد أيام قام ادموند موريل بدراسة سجلات ايلدر دمبستر وإكتشف تجارة قذرة اخرى كانت بلجيكا تقوم بها في الكونغو، (تجارة الرقيق) لأنه من الناحية العملية لا أحد على الإطلاق كان يرسل مالاً الى الكونغو لدفع أجور المواطنين عن الأعمال التي يقومون بها للحكومه البلجيكيه، واجهة موريل رئيس شركة ايلدر دمبستر بما عرف



فقام رئيس الشركه بمقابلة الملك ثم قرر نقل أدموند موريل الى قسم آخر في الشركة،

وعلى الفور إستقال موريل وقرر فضح الملك ليوبولد و بدأ بالكتابة في الصحف ، أمر الملك بمنع موريل من دخول الكونغو ، واستمرت الصحف بنشر صور العنف في الكونغو على صفحاتها الأولى[١] .

في عام ١٩٠٢ إلتقى الملك(الطاغية) بشابه فرنسيه تدعى كارولين ديلاكروا كان في ٦٥ أما هي فكانت دون العشرين وأصبحا يلتقيان بإستمرار ويسافران سويه وكانت تظهر الى جانبه في المناسبات الرسميه ، عام ١٩٠١ إصطحبها معه الى بريطانيا لتشييع الملكه فكتوريا، وفي عام ١٩٠٥م توفيت الملكه بعد أن ظلت تقرأ أخبار زوجها وعشيقته لمدة عام كامل في الصحف .

وبموتها أسكن الملك عشيقته في قصر يقابل قصره الملكي وبنى جسرا ً بين القصرين يسهل عليه الوصول إليها دون السير في الشارع، في تلك الفتره كانت إبنتا الملك تكرهان والدهما الذي زوجهما الى أميرين نمساويين رغم إرادتهما في الوقت الذي كانت لأحداهما وتدعى لويزا علاقة مع ضابط في الجيش ، طلبت من والدها الموافقه على تطليقها لتتزوجه، حين واجهها والدها بالرفض تطلقت رغم إرادته وهربت مع الضابط ، أما اختها ستيفاني فقد إنتحر زوجها مع حبيبته عام ١٨٨٩م، وفي عام ١٩٠١ تزوجت ستيفاني مرة ثانيه دون موافقة والدها ، ولهذا قام الملك بمقاطعة إبنتيه تماما ً وأمر البرلمان بالبحث عن قانون يمنعهما من وراثته بعد موته .

عام ١٩٠٤ عاد القنصل البريطاني من رحلة تقصي للحقائق في الكونغو ولم تكن تقاريره جيده، عيّن شخصا ً يدعى (روجر كيسمنت) عمل في أفريقيا ٢٠ عاماً وأرسله للبحث عن مزيد من الحكايات في الكونغو فعاد كيسمنت بعد ٣ أشهر ونصف بقصص مرعبه من الكونغو مؤكداً أن عدد السكان كان قد إنخفض الى ٦٠٪ عما كان عليه قبل ٢٠ عاما

١ - جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، مرجع سابق ص ٧٣، ط/ ٤، ١٩٠٩م

نتيجة القتل المنظم للسكان ونتيجة عزوف النساء عن إنجاب أطفال سيتحولون لعبيد حال ولادتهم، حاول الملك المستحيل لمنع البريطانيين من نشرالتقارير لكنه لم يفلح ، وحين عاد كيسمنت لبريطانيا ذهب لزيارة أدموند موريل وقاما على الفور بتأسيس رابطة إصلاح الكونغو ، والتي بدأت تنشر صوراً كاريكاتيريه في صحيفة تايم البريطانيه تصور الملك ليوبولد الثاني مثل وحش محاط بالجماجم ، رد الملك على إدعاآت رابطة إصلاح الكونغو بأنها غير صادقه وغير حقيقيه لكن كان قد فات الأوان في إخفاء الحقائق المرعبة المتسربة من مستعمرة الكونغو الحرة!، وخصوصاً بعد أن إنضم للرابطه الكاتب الأمريكي مارك توين وعدد من أمراء اوروبا والكتّاب الفرنسيين.

وتحت ضغط كل هؤلاء أضطر ليوبولد الى تعيين ٣ قضاة في الكونغو لإنصاف السكان ، فقاموا بالتحقيق في ٣٧٠ جريمه وقعت في الكونغو ، تم عرضها على الحاكم البلجيكي العام في الكونغو الذي إعترف بها!!، نعم كانوا يشغلون الناس بالسخره ويأخذون منهم رهائن ويقتلون السكان، ويقطعون أيدهيم، وأعقب إعترافه بالإنتحار، كانت هذه الحادثه صدمه حقيقيه الى الملك والشعب البلجيكي لما تقوم به حكومته في الكونغو!، في ذات الوقت كان الطاغية ليبولد الثاني على ظهر يخته بالجنوب الفرنسي مع عشيقته كارولين، عندها أعطى أمره الى رئيس وزرائه لتحويل الكونغو من (ملكية خاصة!) الى مستعمره بلجيكيه عامة.

عام ١٩٠٧ أصبح عمر الملك ٧٢ سنه وكان يمضي المزيد من وقته مع كارولين التي أنجب منها ولدين دون زواج ، عام ١٩٠٩ مرض ليوبولد مرضاً شديداً فسارع الى الزواج من كارولين ، وقرر الأطباء إجراء عملية جراحية له لكنه مات في اليوم التالي، عندما عادت أرملته من خارج القصر بعد فترة قصيرة من موته وجدت أن إبنتيه قد غيرتا كل أقفال القصر لمنعها من الدخول ، والى حد اليوم فإن كثير من البلجيكيين لا يحترمون ذكرى أيام كارولين مع ملكهم ليوبولد الثاني الذي ترك ثروة شخصيه خرافية (شركات عالمية

وعقارات في عموم اوربا)على حساب أرواح ومصائر الكونغوليين الذين إستعبدهم طيلة ٢٤ سنه! .

التدخل الأمريكي في الكونغو : (الجزء الثاني - الحملات العسكرية) :

ثمة حقيقة لايعلمها الكثيرون، وهي أن الولايات المتحدة الأمريكية قامت بإدخال الشيوعية الى الكونغو لتطرد البلجيكيين منها!، فحينما وقع التدافع الأوربي لإستعمار قارة أفريقيا منتصف القرن التاسع عشر، وتمكن الطاغية البلجيكي ليوبولد الثاني من تأسيس مستعمرته على الضفة الشرقيه من نهر الكونغو[١].وفيما قامت فرنسا بتأسيس مستعمرتها على الضفة الغربيه من النهر بوصولنا الى منتصف القرن العشرين طردت الولايات المتحده الأمريكيه الفرنسيين من الكونغو الغربيه وقامت بتأسيس (الكونغو برازافيل)، بعدها طردت البلجيكيين من الكونغو الشرقيه وأسست (الكونغو كينشاسا)!، ويطلق عليها تسمية : جمهورية الكونغو الديمقراطيه، أما الكونغو برازافيل فيطلق عليها جمهورية الكونغو الشعبيه، وسنتناول أولاً عن الشيوعيه في الكونغو برازافيل وبعدها الشيوعيه في الكونغو كينشاسا.

أولاً : الشيوعيه في الكونغو (برازافيل) :

في العام ١٨٨٠ وقّع (بيار سافورنيان دي برازا) معاهدة حمايه فرنسيه مع الملك الأفريقي الباتيكي (ألماكوكو) ثم شرع في تأسيس مدينه (برازافيل) التي إستمدت إسمها من إسمه وإكتمل العمل بها عام ١٨٨٤ ، وفي العام التالي ١٨٨٥ إجتمعت القوى الكبرى في مؤتمر برلين لتقاسم المصالح في قارة أفريقيا حيث تم ترسيم حدود المنطقه التي ستحكمها فرنسا حول مدينة برازافيل ، عندها أصبحت الكونغو الواقعه

---

١ - صلاح صبرى، أفريقيا وراء الصحراء، ص ٢٧، مكتبة النهضة، القاهرة ،١٩٦٠م.

غرب نهر الكونغو مستعمرة فرنسيه ، أما برازا فقد عينته فرنسا مفوضاً عاماً لها على الكونغو عام ١٨٨٦ م[١].

وإستمرت فرنسا في حكم هذه المستعمره حتى عام ١٩٤٤م ، حيث الأمميه الثانيه المنهارة بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى ، وبعد أن برزت من خلالها شخصيات شيوعيه مثل لينين وروزا لوكسمبورغ ، قام لينين بعد نجاحه في الوصول الى حكم روسيا بتأسيس أمميته الثالثه (الكومنترن) عام ١٩١٩م، وفي عام ١٩٢٠ تم تشكيل الحزب الشيوعي الفرنسي ، وعن طريق هذا الحزب تشكلت خلايا شيوعيه وإشتراكيه في جميع دول العالم الخاضعه للفرنكوفونيه والنفوذ الفرنسي وبهذه الطريقه دخلت هذه المفاهيم الى الكونغو برازافيل وإنتشرت فيه وأدت الى تأسيس العديد من الأحزاب الإشتراكيه ، وقد فرض سقوط باريس بيد الألمان خلال الحرب العالميه الثانيه على فرنسا تقديم تتنازلات سيادية شملت العديد من مستعمراتها حول العالم من أجل إنقاذ فرنسا من الإحتلال ولذا إنسحبت فرنسا من سوريا ولبنان عام ١٩٤٤ ، وهو العام الذي دعى فيه شارل ديغول ممثلي المستعمرات الفرنسيه للتباحث في أمر إستقلال هذه الدول غير أن الواقع لم يكن إستقلالا بل نقل ملكية هذه الدول من السلطة الفرنسية إلى سلطة (العم سام) الأمريكي!.وفي عام ١٩٥٦ م، تم إنتخاب الكونغولي الإشتراكي (فولبر يولو) رئيساً لبلدية برازافيل، وبعد أن إستكملت فرنسا إجراءات إنسحابها من الكونغو برازافيل أجرت إستفتاءاً شكلياً لتلميع صورة هذا الإنسحاب، وافقت بموجبه على منح الإستقلال للكونغو برازافيل ١٩٥٨ وتمت ترقية فولبر يولو من رتبة رئيس بلديه لرتبة رئيس وزراء، وحالما تسلمت الولايات المتحدة زمام البلد تحول نظام الحكم إلى جمهوري

١ - صلاح صبرى، أفريقيا وراء الصحراء، ص ٢٩، مكتبة النهضة، القاهرة ،١٩٦٠م.

وتمت ترقية فولبر منصب رئيس جمهورية، وفي عام ١٩٦٣ إنتخب (ماسامبا ديبا) رئيساً للجمهوريه مدة ٥ سنوات فقام هو بإعلان الإشتراكيه العلمية .
وبنهاية عام ١٩٦٥ كان قد وقّع إتفاقيات صداقه وتعاون مع كل من الإتحاد السوفييتي ، وجمهورية الصين الشعبيه، وجمهورية كوريا الشماليه، وفيتنام الشمالية، وعام ١٩٦٩ إستولى (ماريان نغوابي) على السلطه وأسس (حزب العمال الكونغولي)[1] وهو حزب ماركسي، وفي ١٩٧٠ تغير إسم البلاد الى جمهورية الكونغو الشعبيه ، وتم إغتيال نغوابي عام ١٩٧٧ بسبب إضطرابات عمّت البلد الذي يعتمد إقتصاده على تصدير النفط ، وفي العام ١٩٧٩ وصل العقيد (ساسو نغيسو) الى رئاسة حزب العمال الكونغولي وأصبح رئيساً للجمهوريه ، وأعيد إنتخابه عام ١٩٨٤ ، و١٩٨٩ على التوالي وما بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٨٨ تم تخفيض سعر النفط فإنخفضت مداخيل البلاد ولم تعد قادره على تسديد أقساطها الى البنك الدولي الذي أعاد جدولة ديونه وفرض دفعات إضافيه على الكونغو برازافيل عندها جاع الناس وعمّت العديد من المظاهرات عام ١٩٩٠ عام ١٩٩١ إنهار الإتحاد السوفييتي ، ولهذا فالأمريكان وهم يستعدون للدخول الى عصر العولمه وأحادية القطب لم تعد تخدمهم الأنظمه الشيوعيه كثيراً ولهذا تم في نفس العام تنظيم مؤتمر وطني كونغولي لكتابة دستور جديد للبلاد أُقرت بموجبه التعدديه السياسيه والقطيعه مع النظام الماركسي عام ١٩٩٢ تم إنتخاب (باسكال ليسوبا) رئيساً للبلاد متزامناً مع إنخفاض قيمة الفرنك الكونغولي فأدى ذلك لإندلاع حرب أهلية عام ١٩٩٣ يتقاتل فيها الجيش مع مليشيات الرئيس السابق (ساسو نغيسو) .

---

١ - أنس مصطفى كامل، الصراعات الاثنية فى حوض النيل والنظام الدولى الجديد، السياسة الدولية، العدد ١٠٧، يناير ١٩٩٢، ص ٣٧

وفي عام ١٩٩٧ إنتهت فترة حكم باسكال ليسوبا فعاد ساسو نغيسو لحكم البلاد من جديد رغم إستمرار القتال بين الجيش والمليشيات حتى عام ١٩٩٩ في إنتخابات عام ٢٠٠٢ فاز ساسو نغيسو ب ٩٠٪ من أصوات الناخبين عن طريق حيل إنتخابيه كالتي تجري في أي دولة عربية مرضيٌ عنها من قبل أمريكا، ومع تمديد فترة الرئاسه من ٥ الى ٧ سنوات، ومع تجدد القتال عام ٢٠٠٣ من أجل إنهاك البلد تماماً كما يحدث في كل من العراق وسوريا ومصر وليبيا واليمن حتى تاريخ كتابة هذه السطور- (٢٠١٤م) أما في الإنتخابات الرئاسيه ٢٠٠٩ فقد ذكر المرصد الكونغولي لحقوق الإنسان بأن الإقبال على الإنتخابات كان منخفض جداً ،[١]وأن التزوير والمخالفات شيء عادي ولا يثير الكثير من الإهتمام عند الناس ولهذا كانت نتيجة الإنتخابات بقاء ساسو نغيسو على رأس البلاد لسبع سنوات مقبله .

ثانيا : الشيوعيه في الكونغو (كينشاسا) :

إن الولايات المتحده الأمريكيه ومنذ نهاية القرن التاسع عشر كانت تناصب البلجيكيين العداء من أجل إخراجهم من الكونغو ، ولهذا أثارت عليهم الرأي العام العالمي منذ ذلك الحين ، ومن أجل تثير الفتن بين الكونغوليين وبلجيكا كان عليها تنظيمهم ولذلك تأسست العديد من المؤسسات شبه السياسيه مهمتها الرئيسيه هي طرد البلجيكيين رغم أنها كانت تعمل تحت واجهات أخرى وكانت هذه المؤسسات تعتمد في تنظيم أتباعها أما على الإنتماء العرقي ، أو الجغرافي .وقد كان من أكبرهذه المؤسسات هي (الرابطه الكونغوليه) التي تأسست عام ١٩٥٠ وتعتمد على العرق واللغه

١ - أنس مصطفى كامل، الصراعات الاثنية فى حوض النيل والنظام الدولى الجديد، السياسة الدولية، العدد ١٠٧، يناير ١٩٩٢، ص ٣٨

الكونغوليه وكانت تسعى الى الإستقلال و الفيدراليه ، قادها (جوزيف كاسا فوبو)[١] ، كما كانت هناك مؤسسات تعتمد في تأسيسها على العرق الكونغولي لكنها أقل أهمية من الرابطه الكونغوليه مثل (ليبوكيا بانغالا) وقد تم تأسيسها بواسطة إثنوغرافيين أمريكان مؤسسة (فيداكاليو) كانت تضم الكونغوليين القاطنين في إقليم كاساي .

لكن هذه المؤسسه إنقسمت فيما بعد الى عدة أقسام تعمل كلها في مدينة ليوبولدفيل التي تحول إسمها بعد طرد البلجيكيين الى كينشاسا مصدر آخر للتجمعات السياسيه جاء من المتخرجين من مدارس البعثات التبشريه الأوربيه والأمريكيه في الكونغو التي أسست شبكه واسعه من المستشارين والمساندين من الكونغوليين أنفسهم، والمصدر الثالث للتنظيمات السياسيه قامت به الجمعيات الحضريه الغربيه بالكونغو، لتحسين التنشئه الفكريه والأخلاقيه والإجتماعيه والماديه للكونغوليين عام ١٩٥٨ قام (بياتريس لومومبا) مع (سيريل أدولا) و (جوزيف إلو) بتأسيس حزب الإستقلال الوطني وهو حزب لكل الكونغوليين ولا يعتمد في تشكيلاته على القبليه ، وقد إنقسم هذا الحزب الى قسمين : الأول بقيادة بياتريس لومومبا ، والثاني في إقليم كاساي يقوده : ألبرت كالونجي وخلال الخمسينات من القرن الماضي وضعت الأمم المتحده ضغطاً شديداً على بلجيكا لكي تمنح الكونغوليين حكماً ذاتيا ًتحت الماده ٧٣ من ميثاق الأمم المتحده ، مثلما قامت الولايات المتحده وبريطانيا بمطالبة بلجيكا وبشده الإذعان الى هذا القرار .

لكن رد الحكومه البلجيكيه كان رافضا ً الإذعان للقرار ، وعند العام ١٩٥٥ نشر البروفيسور البلجيكي (أ . ج فان بيلسن) مقاله بعنوان : خطة ٣٠ عام للتحرر السياسي للكونغو البلجيكيه، وتتضمن جداول زمنيه تمتد ٣٠ عاما ً لتشكيل طبقه مثقفه

---

١ - أنس مصطفى كامل، الصراعات الاثنية فى حوض النيل والنظام الدولى الجديد، السياسة الدولية، العدد ١٠٧، يناير ١٩٩٢، ص ٤٦

كونغوليه تتولى تسلم زمام حكم البلد من البلجيكيين وذلك بالإعتماد على الطبقة المتوسطه الكونغوليه التي تعيش حياتها على النمط الأوربي والغربي، الكونغوليين الكاثوليك من الطبقة المتوسطه كانوا الأكثر تحمساً الى هذه الفكره وأصدروا بياناً يتبناها في الصحيفة الرسمية في الكونغو أعضاء (الرابطه الكونغوليه) المشار لها سابقاً، تبنوا مقاطعة الخطه وإتهموا مواطنيهم الكاثوليك بأنهم أجانب وليسوا كونغوليين، مثلما سعت الرابطه الكونغوليه مدعومة من الولايات المتحده الى القيام بعمل متطرف ينهي الوجود البلجيكي في البلاد.

بلجيكا من جانبها لم تتعامل مع خطة ٣٠ عام بجديه ، ففي كل الكونغو وقتها لم يكن يوجد غير القليل جدا ممن يحملون شهادة جامعيه أما الجيش الكونغولي برمته فلم تكن ثمة رتبه عسكريه أعلى من رقيب، وخلال السنوات القليله اللاحقه كانت الرابطه الكونغوليه تعزز قوتها بالدعم (القادم من الولايات المتحدة) حتى غدا البلجيكيون غير قادرين على السيطره على الكثير من مناطق الكونغو بل وحتى العاصمه ليوبولدفيل ، لهذا مُنِعَت الرابطه الكونغوليه من عقد إجتماعاتها مما أدى الى حركات عصيان وتمرد قتل خلالها ٣٤ كونغولي ، وفي عام ١٩٥٩ تم إعتقال رئيس الرابطه الكونغوليه (جوزيف كاسا فوبو) من قبل البلجيكيين الذين أعلنوا عن القيام بإصلاحات دستوريه ستؤدي الى مشاركة أكبر للكونغوليين في الحكومه، ولكن كمستشارين فقط وليس لهم أية صلاحيات، مع وعد بمنح الكونغو إستقلالها، الكونغوليون بدعم خارجي قاموا بتشكيل أكثر من ٥٠ حزب سياسي[١] .

وقد أشتدت حركة العصيان والتمرد ، ورغم منع الإجتماعات الحزبيه إلا أن بياتريس لومومبا عقد إجتماعاً لحزب الإستقلال الوطني في ٣١ تشرين الأول ١٩٥٩ فقام

١ - محمد فائق، عبدالناصر والثورة الأفريقية،القاهرة:ـ دار المستقبل العربى، ١٩٨٢، ص ١٠٥-١٥٣.

البلجيكيون بإعتقاله، عندها عم الهياج في مدينة ستانليفيل قتل خلاله ٢٤ كونغولي بسبب هذه الأوضاع عقد البلجيكيون (مؤتمر المائدة المستديره) في بروكسل لقادة الأحزاب الكونغوليه الذين أصروا على إطلاق سراح لومومبا، وافق البلجيكيون على إستقلال الكونغو لكنهم تباحثوا حول (فتره إنتقاليه) قبل منح الإستقلال مدتها ٤ سنوات ، لكن الكونغوليين أصروا على الإستقلال الفوري وخلال أشهر قليله بنهاية المؤتمر في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٠ وافق البلجيكيون على إجراء انتخابات في الكونغو يوم ٢٢ مايس ١٩٦٠ يتم بعدها منح الإستقلال للكونغو يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٠ . فالتجربه المريره للفرنسيين مع الأمريكان الداعمين لطردهم من الجزائر كانت كارثه يسعى البلجيكون الى تجنب مواجهتها مع الأمريكان في الكونغو الأحزاب الكبرى تنافست على كسب أصوات الناخبين ، فاز بياتريس لومومبا وحزب الإستقلال الوطني هازماً (حزب الإزدهار الوطني) الذي كان مدعوماً من قبل البلجيكيين داخل البرلمان إعتمد لومومبا على تحالف الأحزاب بناءاً على ولائها له ، وكجزء من الصفقة السياسيه فقد تم إنتخاب رئيس الرابطه الكونغوليه (جوزيف كاسا فوبو) رئيساً للبلاد ، فيما سيطر لومومبا على رئاسة الوزراء ومجلس الشيوخ، وتم إعلان (جمهورية الكونغو) يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٠ ، وفي هذا اليوم حضر (الملك بودوين) ملك بلجيكا ليقوم رسمياً بتسليم حكم البلاد ، وما كان يعد يوماً للإحتفال الرسمي تحول الى كارثه حالما غادر الملك المطار في موكبه الرسمي حتى ركض أحد الكونغوليين ويدعى (إمبراوز بويمبو) وإستل السيف الرسمي للملك من حمائله المعلقه على خصر الملك ، وأخذ يرقص به في الطريق حول الموكب الرسمي في إهانة متعمدة للملك حين وصل الملك في اليوم التالي الى البرلمان كانت حادثة البارحه قد أثرت فيه بما فيه الكفايه ، فألقى خطاباً أشاد فيه بعبقرية وشجاعة وعناد عمه الملك ليوبولد الثاني الذي إستعبد الكونغو!!رد فعل الرئيس الكونغولي (جوزيف كاسا فوبو) كانت أن حذف الثناء والشكر للملك بودوين من

خطبته التي أعقبت خطبة الملك ، أما رئيس الوزراء لومومبا فقد صعد الى المنصه وألقى خطاباً أشاد فيه بالنضال من أجل الإستقلال تحدث فيه بثوريه عن الدموع والنار والدم ، وهاجم نظام القهر والظلم والإستغلال، ثم أنهى الخطاب بكلمة مرتجله غير موجوده في نص الخطاب حين صاح في الملك : (نحن لم نعد قروداً عندك) ، إستحسن الكونغوليون كلمات لومومبا بينما عدها الملك إهانة بالغة له ولجميع البلجيكيين وقرر مقاطعة الإحتفال والعوده الى بلجيكا، في مأدبة الغداء التي أعقبت هذه الخطابات ، قال لومومبا للملك كلمات طيبه لمصالحته وشكره على ما قامت به بلجيكا للكونغو قرابة ثلاثة أرباع القرن، عند إستقلال الكونغو كانت قواتها المسلحه تقوم بدورين فهي تخدم كجيش وكشرطه في آن واحد معاً ، أما ضباط هذا الجيش فقد كانوا بلجيكيين، بعد الإستقلال كان ثمة ضيق من وجود البلجيكيين في القوات المسلحه، أما ما أثارت أول مشاكل لومومبا في الحكم فقد كانت عدم كفاءته كقائد فهو حين قرر رفع رواتب جميع الوظائف إستثنى من ذلك رواتب القوات المسلحه فأجج غضبها إتجاهه قائد حامية (ليوبولد فيل) البلجيكي عقد إجتماعاً لجنود حاميته توسطت الإجتماع لوحة مكتوب عليها بعد الإستقلال - قبل الإستقلال، ولهذا ثارت الحاميه ضد الضباط البلجيكيين ، كما تمت مهاجمة العديد من الأهداف الأوربيه في الكونغو وتسليب الجيش لممتلكات الأوربيين مما أدى الى هرب آلاف الأوربيين الى الكونغو برازافيل بعبور نهر الكونغو ، وبرهن الحدث بالدليل القاطع على ضعف الحكومه وعجزها عن السيطره على قواتها المسلحه هذا الوضع دفع بلجيكا الى التدخل العسكري في الكونغو ، فرد لومومبا على ذلك بتأميم القوات المسلحه وطرد جميع البلجيكيين منها، طرد الضباط البلجيكيين ترك في الكونغو ٢٥ ألف عسكري كونغولي مسلح ، فبات من المستحيل على حكومة لومومبا السيطرة عليهم، كما أن وضع البلد دون نظام هو ما سيجلب للبلد ويلات الأيام المقبله[١] .ففي

١ - محمد فائق، عبدالناصر والثورة الأفريقية، (القاهرة:ـ دار المستقبل العربى، ١٩٨٢) ص ١٠٥-١٥٣.

يوم ١١ تموز ١٩٦٠ وبدعم من البلجيكيين قام (مويس تشومبي) بقيادة ٦ آلاف عسكري بلجيكي!، بالسيطره على إقليم (كاتانغا) وإعلانه دولة مستقله يحكمها تشومبي المعروف بعلاقته الوثيقه مع الشركات الصناعيه البلجيكيه في الكونغو والتي تسيطر على إستخراج النحاس والذهب واليورانيوم إقليم كاتانغا واحد من أغنى أقاليم الكونغو وأكثرها تطورا، وبدونه تخسر الكونغو الكثير من ثروتها ومن دخل حكومتها ودفاعاً عن قرار الإنفصال قال تشومبي : (فعلنا ذلك لننفصل عن دولة الفوضى)[(1)]، ثم قام وبمساعدة البلجيكيين بتأسيس قوات مسلحه قويه لكاتانغا يخدم فيها المئات من المرتزقه الأوربيين تم التعاقد معهم في بلجيكا لم يسكت الأمريكان على ذلك بل قاموا بتحريك (رابطة سكان لوبا في كاتانجا) لإعلان تمردهم على كاتانغا في منطقة لوبا كانون الثاني ١٩٦١ أعلنت لوبا إستقلالها عن كاتانغا ، ولأن لوبا كانت مدعومة عسكرياً بشكل جيد من الخارج فإن قوات كاتانغا المسلحه ومرتزقتها لم يتمكنوا من فعل شيء إزاء إنفصالها في ١٤ تموز ١٩٦٠ قدّم لومومبا طلباً الى مجلس الأمن الذي تبنى القرار رقم ١٤٣ دعى فيه بلجيكا الى سحب قواتها من الكونغو ودعى الأمم المتحده الى تقديم المساعدات العسكريه للقوات الكونغوليه لتأهيلها للمستوى المطلوب هدد لومومبا البلجيكيين بوجوب سحب قواتهم خلال يومين ، وبعكس ذلك فسيستعين بقوات سوفييتيه وكوبيه لمواجهتهم ، أما الأمريكان ومن خلال الأمم المتحده فقد سارعوا الى تفعيل العمليه العسكريه المسماة (عملية الأمم المتحده في الكونغو)، وكعادة القاده الثوريين الذين يتم إستعمالهم لتحقيق غايات غيرهم ، فإن لومومبا كان يعتقد أنه زعيم دولة ، ولهذا كان يعتقد أن الأمم المتحده سترسل قواتها للقتال تحت قيادته ، وكان يطمح أن يقود قوات الأمم المتحده ليحارب بها تشومبي ويسترد كاتانغا [1].غير أن عندها كتب لومومبا الى (

---

١ - محمد فائق، عبدالناصر والثورة الأفريقية، (القاهرة:ـ دار المستقبل العربي، ١٩٨٢) ص ١٠٥-١٥٣.

داغ همرشولد) الأمين العام للأمم المتحده رسالة يطلب منه أن تكون القوات تحت إمرة لومومبا ، لكن همرشولد رفض لأنه أعتبر أمر إعادة كاتانغا للكونغو شأناً داخلياً لا علاقة للأمم المتحده به كان ينبغي دفع لومومبا دفعاً الى طلب المساعده من الإتحاد السوفييتي اذ ينبغي للوجود الشيوعي أن يكون ظاهراً في الكونغو كينشاسا لإستعماله بسياسة الأرض المحروقه لطرد البلجيكيين من هذا المكان ، لذلك وقع خلاف حاد بين لومومبا وهمرشولد حول ما تفعله وما لن تفعله قوات الأمم المتحده في الكونغو أدى الى صدور قراري الأمم المتحده رقم ١٤٥ و ١٤٦ شدد على وحدة تراب الكونغو وحث البلجيكيين على الإنسحاب من البلد ، وسط كل هذه الفوضى أعلن إقليم كاساي الجنوبي المجاور لكاتانغا إستقلاله عن الكونغو هو الآخر ، صراع عرقي ممتزج بالإحتقان السياسي بين قادة الأحزاب دفع الإقليم الغني بالماس الى إعلان إستقلاله لومومبا وقد يأس من إستعمال قوة الأمم المتحده لإستعادة إقليم كاتانغا ، سارع هنا على الفور الى طلب المساعده العسكريه من الإتحاد السوفييتي وكوبا لإستعادة كاتانغا وكاساي الجنوبيه، سارع الإتحاد السوفييتي بإرسال آليات وقوات محمولة جواً ، وقاد هجوما كاسح خلف وراءه مئات القتلى من سكان قبيلة (بالوبا) وما لا يقل عن ربع مليون لاجيء !.

ورغم أن التدخل السوفييتي في الكونغو يخدم أهداف الولايات المتحده الأمريكيه إلا أن الرئيس آيزنهاور ومن أجل تحويل الكونغو الى جحيم تحت أقدام البلجيكيين أعلن عن إمتعاضه من لومومبا لإستعانته بالسوفييت وأمر (CIA) بمزيد من الدعم لغرماء لومومبا السياسيين ، ثم تم الإعلان عن محاولات أمريكيه محبطه لإغتيال لومومبا من أجل دفعه الى المزيد من الإحتماء بالسوفييت والكوبيين في ٥ أيلول ١٩٦٠ قام رئيس الدوله جوزيف كاسا فوبو بإقالة رئيس وزرائه بياتريس لومومبا من منصبه وأعلن ذلك عبر وسائل الإعلام وعّين (جوزيف إلو) خليفة له رفض لومومبا قبول إستقالته.

وبالمقابل أعلن عن الإطاحه برئيس الدوله الذي تم تعيينه رئيسا للدوله عبر مقايضة سياسيه وأعلن ذلك عبر وسائل الإعلام، عند هذه المرحله قام رئيس الوزراء الجديد (جوزيف إلو) بمحاوله لتشكيل حكومه جديده، ورغم كل مساعيه الا ان البرلمان لم يوافق عليها، بل ساند جميع أعضاء البرلمان موقف لومومبا عبر إقتراع سري وتحت شعار حفظ الأمن قامت الأمم المتحده بوضع جميع المطارات الكونغوليه ومحطة الإذاعه الرسميه تحت إدارة الأمم المتحده ، هذا الوضع دفع الإتحاد السوفييتي الى ضخ المزيد من الدعم العسكري ضد كاساي الجنوبيه ، لكن رئيس الدوله جوزيف كاسا فوبو ظل قادرا على بث بياناته من (الكونغو برازافيل) مؤكداً على أن حكومة لومومبا قد تم حلّها والإطاحة بها وأن إستعانة لومومبا بالسوفييت قد اصبحت لاغيه يوم ١٢ أيلول ١٩٦٠ قامت قوات مواليه للقائد العام للقوات المسلحه (جوزيف موبوتو) بوضع لومومبا تحت الإقامة الجبريه في بيته لكنه سرعان ما تمكن من الهرب بمساعدة قوات موالية له يوم ١٤ أيلول وبمساعدة وكالة المخابرات المركزيه الأمريكيه تمكن موبوتو من الإستحواذ على السلطه في إنقلاب عسكري وأمر جميع القوات السوفييتيه بمغادرة البلد .

فوُضع لومومبا من جديد تحت الإقامة الجبريه في منزله ولكن مع قوات من الأمم المتحده لحمايته لكي تستكمل اللعبة كل أبعادها، بعد إقالة لومومبا من منصب رئيس الوزراء قام نائبه في رئاسة الوزراء (أنتوني جيزنغا) بتشكيل حكومة توالي لومومبا في الجزء الشرقي من مدينة ستانليفيل تحرسها قوات مواليه للومومبا ، وبذلك تشكلت الآن ٤ حكومات كونغوليه تضرب البلجيكيين بإسم الإستقلال ، وفي ذات الوقت خدمة لمصالح الولايات المتحدة الأمريكيه، حكومة (جوزيف موبوتو) و (جوزيف كاسا فوبو) في العاصمه ليوبولدفيل تساندها الولايات المتحده الأمريكيه، وحكومة (أنتوني جيزنغا) في الجزء الشرقي من ستانلي فيل تساندها دول الكتلة الشرقيه ، وفيدل كاسترو من كوبا ، وجبهة التحرير الجزائريه التي يقودها أحمد بن بيلا ، جمال عبد الناصر من

مصر- الجناح اليساري من الدول الأفريقيه حديثة الإستقلال : غانا - غينيا - تنجانيقا حكومة (ألبرت كالونجي) في كاساي الجنوبيه ، وحكومة (مويس تشومبي) في إقليم كاتانغا مدعومه من قبل البلجيكيين ، وشركات التنقيب الأوربيه وقوات المرتزقه وحكومة جنوب أفريقيا ، وفي هذه المرحله كانت الولايات المتحده تتحرك من خلال الأمم المتحده لإيجاد ذريعه (إستعراضيه) مثيره للمشاعر يتم بواسطتها فرض عقوبة باهضه على الوجود البلجيكي في الكونغو، ولم يتم العثور على ذريعه أكثر إستعراضية من قتل لومومبا الذي لم يعد له أي دور بخارطة الدولة السياسيه ، والتي تحكم من قبل ٤ حكومات متصارعه فيما بينها!!.

كان لومومبا وللمرة الثانيه تحت الإقامة الجبريه في بيته تحرسه قوات من الأمم المتحده لحمايته ، ولا يعرف هل هرب بمفرده أم بمساعدة حرس الأمم المتحده من ذلك المنزل متجهاً الى مقر حكومة (أنتوني جيزنغا) في الجزء الشرقي من ستانليفيل يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٠ في يوم ١ كانون الأول ١٩٦٠ تم إلقاء القبض عليه من قبل جنود موالين للرئيس (جوزيف موبوتو) في إقليم كاساي يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٦١ أرسله موبوتو (رئيس الدوله) الى مدينة إليزابثفيل عاصمة إقليم كاتانكا حيث يوجد البلجيكيون والمرتزقه وحكومة تشومبي، لتوريطهم بقتله فتقع عليهم بسبب ذلك المسؤولية الدولية، وإلا فلماذا يرسل رئيس الدوله رئيس وزرائه المخلوع الى حكومة إقليم أعلن إنفصاله عن دولته !.

بلع البلجيكيون الطعم و سمحوا وأمام أعين الصحفيين كافه بضرب لومومبا ضرباً مبرحاً وإجباره على أكل أوراق مكتوبة عليها عبارات من خطاباته إنقطعت أخباره مدة ٣ أسابيع ولا أحد يعلم عنه شيئاً، وأخيراً أعلن راديو كاتانغا أنه قتل على يد القرويين بينما كان يحاول الهرب من السجن لكن الحقيقة غير هذا، ففي العام ٢٠٠١ اعترفت الحكومه البلجيكيه بأنه أعدم على يد (جندرمة كاتانغا) وبحضور الضباط

البلجيكيين وبأمر من حكومة تشومبي!، وأنه عذب بوحشيه قبل إعدامه رمياً بالرصاص مع ٢ من حلفائه ، وبعد الإعدام تم تقطيعهم وأذيبت أجزاءهم بالحامض، بعد إعدام لومومبا ورفيقيه إجتمع مجلس الأمن على عجل لتكملة بقية مسرحيه الإستشهاد حيث أبدى مشاعر حزن فياضه بسبب الجريمه المرتكبه ، صاحبها بعبارات معادية للإستعمار مليئة بالأسى، حكومة الإتحاد السوفييتي بالغت في فرط حزنها ولامت داغ همرشولد الأمين العام للأمم المتحده على (إستشهاد) لومومبا وطالبت بطرده من الأمم المتحده !.

لكن همرشولد رفض الإستقاله (بالطبع) وبقي في منصبه ، فأعلن في موسكو عن تأسيس جامعة بياتريس لومومبا للشعوب بعد أسبوعين من مقتل لومومبا (وتأملوا اللعبة الدولية هنا !) أصدر مجلس الأمن القرار ١٦١ في ٢١ شباط ١٩٦١ الذي نص على إتخاذ جميع التدابير اللازمه لمنع وقوع حرب أهلية في الكونغو ، بما في ذلك وكحل أخير (إستخدام القوه إذا لزم الأمر) أي التلويح للبلجيكيين برؤية الكابوس الذي يخشونه بشده، وهو أن يشعل عليهم الأمريكان الكونغو ، بالضبط كما يفعلون في الجزائر مع الفرنسيين وطالب هذا القرار بطرد جميع القوات البلجيكيه والمرتزقة من الكونغو .

ولكن القرار لم يفوض الأمم المتحدة (صراحة) إجراء عمليات هجومية،لأن الرعب الذي كان عليه البلجيكيون كان كافياً لحسم الموقف لصالح الأمريكان[١] ، و خلال الأشهر الستة التاليه لم تجرِ الأمم المتحدة أي عمليات عسكرية بل ركزت على عدة جولات من المفاوضات السياسية مع البلجيكيين ما بين كانون الثاني وحتى مارس عقدت عدة مؤتمرات لبحث الوضع في الكونغو مع البلجيكيين ، وعند الوصول الى إتفاق بنهايتها ، قام الرئيس (جوزيف كاسا فوبو) بإعتقال (تشومبي) رئيس إقليم كاتانجا الذي يسيطر عليه البلجيكيون والمرتزقه، بحجة أن تشومبي ينتقد الرئيس كاسا فوبو، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تمت إجراءات إعادة توحيد إقليم كاتانغا مع الوطن

الأم الكونغو في ٢ آب ١٩٦١ إنتخب البرلمان (سيريل أدولو) رئيساً لوزراء البلاد، في ٢٨ آب قامت الأمم المتحده بعملية عسكرية محدوده هاجمت فيها إقليم كاتانغا بحجة أن المرتزقه والبلجيكيين تسللوا الى كاتانغا عبر روديسيا رغم الإتفاق على طردهم من البلاد وهكذا كان يتم أسر الضباط الكونغوليين ، وترحيل ما تبقى من البلجيكيين والمرتزقه عن البلاد في ٩ أيلول واصلت الإمم المتحده قتالها في إقليم كاتنغا وأعطت أمرها الى حكومة (سيريل أدولو) بإصدار أوامر بإعتقال تشومبي وبقية الكبار في حكومة كاتنغا قبل ضمها الى الكونغو ولهذا سرعان ما تحوّلت العملية المحدوده الى حرب شامله أريقت فيها دماء كثيرة من الطرفين.

وفي ١٣ أيلول تمكن تشومبي من الهرب الى روديسيا الشمالية وهي يطلق عليها الآن (زامبيا) ومن هناك حثّ قواته على مواصلة المقاومه بالقيام بهجمات على قوات ومنشآت الأمم المتحده حيث تمكنوا يقودهم مرتزق بلجيكي من حصر ١٥٥ رهينه من قوات الأمم المتحده في مدينة (جادوتفيل) لكنها لم تتمكن من أسرهم قرر الأمين العام للأمم المتحده داغ همرشولد التدخل بنفسه لإيجاد حل لهذه المشكله بإجراء محادثات هدنه مع تشومبي فإستقل طائرة الى روديسيا الشماليه يرافقه ١٥ شخص آخرين ، في رحلة اللاعودة!، حيث تحطمت بهم الطائره ومات الجميع ليلة ١٧ على ١٨ من أيلول ، ولم تعلن الجهه المسؤوله عن الحادث حتى اليوم بعد مقتل الأمين العام للأمم المتحده تجدد القتال مرة اخرى ، إستسلم الرهائن المحصورين بسبب نفاذ الماء والغذاء فحجزتهم قوات كاتانغا ، ووافقت على هدنة مع تشومبي وأعادت له المباني الحكوميه والمقرات العسكريه التي كانت قد إستولت عليها، وعاد تشومبي الى عاصمة كاتانغا (إليزابيثفيل).

وفي يوم ٢ تشرين الأول تم تعيين (يو ثانت) أمين عام جديد للأمم المتحده مع تجدد عمليات قتال الأمم المتحده في كاتانغا في ٢٤ تشرين الثاني صدر قرار الأمم المتحده ١٦٩ الذي دعا جميع القوات المتواجده في كاتانغا الى مغادرتها يستثنى من ذلك القوات

العامله تحت قيادة الأمم المتحده فقط أثناء ما كانت قوات الأمم المتحده تقاتل في كاتانغا ، ولكن هيهات أن يفعلوا ذلك ويتركوا الماس والذهب والفضة والنفط، وكل تلك الكنوز التي يمتصّونها على حساب معاناة الشعب الكنغولي الغافل بالصراعات الأهلية والتي تغذيها الدول العظمى في عصبة الأمم، كانت قوات الحكومه المركزيه الكونغوليه قد هاجمت إقليم كاساي الجنوبيه الذي أعلن إستقلاله عن الكونغو وتمكنت من إعتقال رئيس حكومته (ألبرت كالونجي)، وفي يوم ٣٠ كانون الأول ١٩٦١م ، هرب الرئيس من السجن وحاول تشكيل حكومة جديده ولكن أطيح به مرة ثانيه خلال أسابيع الحكومه الرابعه في الكونغو كانت حكومة (أنتوني جيزنغا) في الجزء الشرقي من ستانليفيل الذي كان على تفاهم تام مع الكتلة الشرقيه ويتلقى الأسلحة من الصين ، لكنه تباحث مع رئيس وزراء الحكومه المركزيه (سيريل أدولا) على تأسيس حكومة شراكه وطنيه تلتزم مبادىء لومومبا خطة لعمله[1]، غير أن قوات الحكومة المركزيه هاجمته يوم ١٤ كانون الثاني ١٩٦٤ فهزمت قواته وتمكنت من إعتقاله كانت الأمم المتحده تشاغل تشومبي بمحادثات منحه حكماً ذاتياً أثناء ما كانت الحكومة المركزيه تنهي عملها في أجزاء أخرى من الكونغو ،، وبعد أن إنتهت الحكومه ، قامت قوات الأمم المتحده بشن هجوم كاسح على قوات تشومبي وبحلول عام ١٩٦٣ كانت الأمم المتحده تسيطر سيطرة تامة على إقليم كاتانغا وبذلك عادت الكونغو دولة واحده تحكمها حكومة واحده الولايات المتحده الأمريكيه أصبحت تسيطر الآن على جميع تراب الكونغو!!.

فهنيئاً لها الإنفراد بكل تلك الثروات الطبيعية في الكونغو، ولكن هل تضمن من أين سيعود البلجيكيون مرة اخرى الى الكونغو وبأية طريقه ؟ وخصوصاً بأنه لم تستكمل بعد فرض سيطرتها على أمراء الخليج العربي وآبارهم النفطية!!، بالطبع لا ،إذن عليها إشعال الكونغو لتصبح قطعة من نار وبذلك يحذر الكل من الوصول إليها عام ١٩٦٤ إندلع تمرد (سيمبا) وهي كلمه سواحيليه معناها (أسد) وكان تمرداً ضد الحكومه قاده

(باري موليلي) الذي كان شيوعياً ماوياً ولهذا كان يحصل على الدعم من الصين الشيوعيه، تمكنت جماعة سيمبا من إحتلال ستانليفيل وأعلنت فيها حكومة متمردين قتلت آلاف من سكان المدينه في تموز من نفس العام تم توصيل تشومبي ليصبح رئيساً لوزراء البلد لمواجهة تمرد جماعة سيمبا ، فقام على الفور بدعوة الضباط الذين كانوا يعملون معه حين كان يحكم كاتانغا ، وكذلك تعاقد مع مرتزقه من الخارج وقام بدمجهم مع القوات المركزية١.

في تشرين الأول ١٩٦٣ قام تحالف مضاد للحكومه يطلق على نفسه تسمية (مجلس التحرير الوطني) مكوّن من رجال أقوياء كانوا ينتمون الى حكومة لومومبا بتأسيس مكتب لهم في الدولة الجاره (الكونغو برازافيل) والتي يحكمها الرئيس (ألفونس ماسامبا ديبا) وهوشيوعي (ماركسي- لينيني) وهو من اشد أشد مناصري تمرد لومومبا بالدعم اللوجستي ، وله تعاون تام مع حكومة بوروندي ، وعن طريق هذا التعاون تمكن شخص يدعى (غاستون سامليوت) من أن يجمع آلاف الأنصار لمجلس التحرير الوطني من الأفارقة القاطنين على الحدود بين (الكونغو برازافيل) و(بوروندي) والهدف من ذلك هو القيام بحركة تمرد واسعه ، ضباط مجلس التحرير الوطني أصبحوا الآن يساريين (ماركسيين!) بينما أنصارهم الأفارقه كانوا يعتمدون في تنظيمهم على العلاقات القبليه والجميع تحت قيادة غاستون سامليوت، والآن بات لدينا تنظيمان شيوعيان يعملان في الكونغو كينشاسا الأول تحت قيادة الشيوعي الماوي (باري موليلي) في مدينة كويلو ، والثاني شيوعي ماركسي تحت قيادة (غاستون سامليوت) في مدينة كيفو، وكلا التنظيمين يعملان بكل جهدعلى الإطاحة بالحكومه المركزيه، وبذلك التمرد أصبحت الكونغو جمرة مشتعله لن يقترب منها أحد ، حصل موليلي على الدعم العسكري من الصين، فيما مد

١ - محمد فائق، عبدالناصر والثورة الأفريقية، (القاهرة:ــ دار المستقبل العربى، ١٩٨٢) ص ١٠٥-١٥٣.

الإتحاد السوفييتي سامليوت بكل ما يحتاجه من دعم ، وحين عمت الفوضى تمكن التنظيمان الشيوعيان اللذان أثارا تمرد سيمبا من السيطرة على مساحات كبيرة من البلد، حكومة الصين الشعبيه ساندت واحد من قادة التمرد يدعى (كريستوف غيبنييه) وحين تمكن من السيطره على مدينة ستانليفيل في آب عام ١٩٦٤ حتى سارع الى إعلان (جمهورية الكونغو الشعبيه) على قطاع الأرض التي سيطر عليها المتمردون أما سامليوت فقد أصبح رئيساً عليها، وهذه الجمهورية الشعبيه ليست لها أي علاقه باقليم (الكونغو برازافيل) بل هي كيان تم إستقطاعه من (الكونغو كينشاسا) وهكذا عادت البلاد لتصبح تحت قيادة حكومتين واحده في ليوبولد فيل والثانيه في ستانليفيل وكل واحده منهما تدعي الشرعية لنفسها وتسعى للإطاحة بالثانيه، إذن فكيف يشعل الأمريكان حريق الحرب بين هذين النظامين ؟ .
قامت وكالة المخابرات الأمريكيه بمساندة الحكومه المركزيه في ليوبولدفيل فقام رئيس الوزراء تشومبي على الفور بالإتصال بشخص آيرلندي يدعى (مايك هاور) مقيم في جنوب أفريقيا وهو رئيس شركة تجنيد مرتزقه ، وطلب منه تجنيد آلاف من المرتزقة البيض من جنوب أفريقيا وروديسيا ، ولننظر الآن لفصول المسرحية الدموية، تدخل الأمريكان والسوفييت والصينيين لمنع أي أحد من الإقتراب من الكونغو بإستعمالهم المال والسلاح والمقاتلين والإشراف العسكري، على الجانب الآخر أعلن (اليساريون) زعماء افريقيا غضبهم الشديد مما عدوه إستعمارا جديداً لأفريقيا يقوم به البيض ، ولهذا دعموا الحكومة الشيوعية السوداء في ستانليفيل ، التي حصلت على دعم كل من : ألفونس ماسامبا ديبا من الجاره الماركسيه الكونغو برازافيل ، أحمد بن بيلا من الجزائر الواقعه تحت السيطرة الأمريكيه بعد خروج الفرنسيين منها ، جمال عبد الناصر من مصر ، جوليوس نايريري من تنزانيا ، عدا عن جميع الأحزاب والحركات الشيوعيه في أفريقيا، وفي آب ١٩٦٤ قامت القوات الحكوميه تصاحبها قوات المرتزقه بالهجوم على حركة سيمبا في

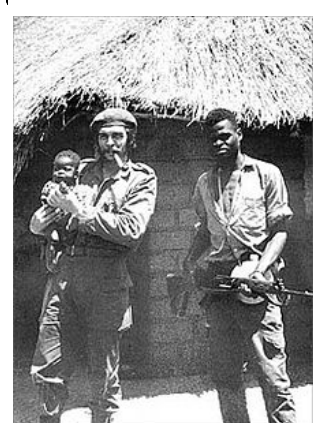
ستانليفيل ولم يأخذوا أسرى ، بل قتلوا كل من وقع تحت أيديهم، لكي تفك حركة سيمبا ما يقع عليها قامت بإحتجاز المئات من الأجانب والكونغوليين كرهائن مما دفع الحكومه المركزيه الى طلب العون من بلجيكا والولايات المتحدة الأمريكيه، عندها قامت ٥ طائرات نقل أمريكيه بإنزال ٣٥٠ بلجيكي قوات خاصه فوق عاصمة حكومة سيمبا : ستانليفيل تمكنت القوات البلجيكيه من تحرير الرهائن بعد أن قتل ٦٠ منهم ، وتم أخلاء البقيه بواسطة الطائرات وكانوا ١٨٠٠ أمريكي وأوربي و ٤٠٠ كونغولي و ٢٠٠ من جنسيات مختلفه صاحب عملية الإخلاء وصول القوات الحكوميه والمرتزقه من ليوبولدفيل الى ستانليفيل لإسقاط حكومة سيمبا التي تفرقت على شكل جيوب مقاتله لم تتم السيطرة عليها بالكامل ، وعلى الرغم من النجاح في المعارك إلا أن تشومبي خسر سمعته بسبب تعاونه مع الأمريكان والبلجيكيين والمرتزقة البيض ضد ابناء شعبه فتمت إقالته من منصبه في تشرين الأول ١٩٦٥ م[1].

١ - محمد فائق، عبدالناصر والثورة الأفريقية، (القاهرة:ـ دار المستقبل العربى، ١٩٨٢) ص ١٠٥-١٥٣.

الصراع الروسي الأمريكي

على ثروات الكونغو !

لعبة زرع الشيوعيه في أميركا اللاتينيه لا تختلف إطلاقاً عن لعبة زرعها في أفريقيا فماذا تفعل الولايات المتحده الآن لكي تديم القتال في الكونغو المطلوب إمداد الحركه بالدعم المادي والمعنوي لكي تنهض من جديد ، ومن سيقوم بذلك هذه المره ؟ سيقوم به فيدل كاسترو ورفيقه جيفارا الماركسيان اللذان يسيران على خطى سيمون بوليفار أول عميل للولايات المتحده الأمريكيه في قارة أمريكا الجنوبيه والذي ساعدها على إحتلال قارته بإسم تحريرها من الإسبان والبرتغاليين وغيرهم خلال القرن التاسع عشر[1] .



في ٢٤ نيسان ١٩٦٥ وصل جيفارا الى الكونغو لتعليم حرب العصابات الى خلايا سيمبا المتفرقه في أنحاء الكونغو بعد هزيمتهم الساحقه، قاد جيفارا العمليه الكوبيه الداعمه لحركة سيمبا الماركسيه بمساعدة نائبه فكتور ديريك و١٢ عسكري كوبي آخرين ، وإنضم أليهم فوراً ١٠٠ كوبي من أصل أفريقي لمساعدتهم في الترجمة والتدريب، وكان هدف جيفارا هو تصدير الثورة وذلك بإعطاء تعليمات في الفكر الماركسي واستراتيجيات نظرية فوكو في حرب العصابات ثم غادر الكونغو بعد ٧ أشهر من قدومه إليها بعد ٥ أيام من مغادرة جيفارا الكونغو ساعدت وكالة المخابرات الأمريكيه رئيس الوزراء (جوزيف موبوتو) في الإنقلاب على الرئيس (جوزيف كاسا فو) وإحتلال موقعه، سبب ذلك هو الإستعداد لمرحلة القتال المقبله بالخبرة العسكرية التي يمتلكها موبوتو بحكم كونه كان القائد العام للقوات المسلحه في عهد لومومبا، حال

---

١ - الصورة أعلاه ، غيفارا في عمر ٣٧ عاما في أزمة الكونغو ١٩٦٥.

وصوله الى الرئاسه أرسى سياسة الحزب الواحد ، واتهم تشومبي بالتمرد فهرب تشومبي الى إسبانيا، وإندلع القتال في جولته الأولى عام ١٩٦٦ بين قوات موبوتو وقوات سيمبا التي تلقت تدريبات جيفارا عند جبال ستانليفيل، الجولة الثانيه إندلعت عام ١٩٦٧ حين عاد تشومبي سراً من إسبانيا وإنضم معه ٢٠٠٠ مقاتل الى تمرد سيمبا لمقاتلة الحكومة المركزيه ، ولم يهدأ القتال إلا بعد إختطاف طائرة تشومبي فوق البحر الأبيض المتوسط وإقتيادها الى الجزائر ، حيث رمي تشومبي في السجن، بعدها شنت الحكومة هجوماً كاسحاً على المسلحين بقيادة ٣٢ ألف جندي فأنهت مقاومتهم على مدى العقود الثلاثة التاليه حكم موبوتو بلداً فقيراً على الرغم من الموارد الطبيعية الهائلة في البلاد بما في ذلك النحاس والذهب والماس!!، السكان يغرقون يومياً في الفقر، أما ثروة موبوتو(العميل) شخصياً فتقدر ب ٥ مليار دولار أمريكي ، في حين بنية البلاد التحتية للبلاد خربه بشكل كامل.

وفي عام ١٩٧١ تم تغيير أسم البلاد الى : زائير ، إضافة الى تغيير إسم العاصمه من ليوبولدفيل الى كينشاسا، ستانليفيل أصبحت كسنغاني أليزابثفيل تحولت الى : لوبومباشي، جادوتفيل : ليكاسي و ألبرتفيل تغير إسمها الى : كاليماي خلال التسعينات ومع إقتراب حل الإتحاد السوفييتي فترت الحرب البارده وبفتورها أوقفت الولايات المتحده الأمريكيه جميع أشكال الدعم التي تمنحها لحكومة موبوتو عندها ساءت أحوال البلاد بشكل كبير وعمّت الفاقه المدقعه مايس ١٩٩٠، وافق موبوتو على مبدأ نظام متعدد الأحزاب مع إجراء الانتخابات وتعديل الدستور . ولكن تأخرت عملية الإصلاح بدأ الجنود ينهبون كينشاسا في سبتمبر١٩٩١ احتجاجا على عدم دفع أجورهم وعم العنف فوصل ٢٠٠٠ جندي فرنسي وبلجيكي ، نقلوا جواً بطائرات سلاح الجو الأمريكي ، لاخلاء ٢٠ ألف من الرعايا الأجانب المهددين بالموت في كينشاسا نتيجة العنف مذابح الهوتو والتوتسي في رواندا الجاره إنتقلت الى الكونغو كينشاسا عبر

مخيمات اللاجئين الروانديين في الكونغو ، ووجود قبال توتسي وهوتو مشتركه بين البلدين الجارين ، ومع الفساد الإداري والجوع تحول العنف الى إحتجاجات على الحكومه بدأ (لورانت دزيريه كابيلا) عام ١٩٩٦ حركة عسكرية في شرق البلاد هدفها أزاحة موبوتو عن الحكم، كان موبوتو خارج البلاد يتلقى العلاج الطبي ، قطع رحلته وعاد لسحق التمرد، في مايس ١٩٩٧ هرب موبوتو إلى خارج البلاد وطلب موافقة فرنسا منحه العلاج الطبي ، لكن الحكومة الفرنسية رفضت فإضطر البقاء في المغرب ومات بعد ٤ أشهر ، عندها إصبح كابيلا رئيساً للبلاد بالتزكية في ١٧ مايس ١٩٩٧م وعاد اسم البلاد إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية١.

١ - محمد فائق، عبدالناصر والثورة الأفريقية، (القاهرة:ـ دار المستقبل العربى، ١٩٨٢) ص ١٠٥-١٥٣.

الزبير ود رحمة الجميعابي

إمارة بحر الغزال

هو الزبير بن رحمه الجميعابي بن منصور بن الجعلي العباسي، ولد الزبير باشا بجزيرة واوسي شمال الخرطوم في ٨/٧/ ١٨٣١م، نشأ الزبير وسط أسرته بالجيلي فالتحق بالشيخ محمد ولد عيسى ، ثم كتّاب الخرطوم الابتدائية ثم التحق بعدها بالفقيه محمد أحمد أبو قرين، وقد قام بنسخ المصحف الشريف بخط يده ، وقد اكسبته دراساته الدينية واللغوية علماً ودراية باللغة العربية، فأصبح من



الجيدين لاستخدام قواعد اللغة في الكتابة الخطابة، وظهر ذلك جلياً في رسائله المتعددة للملوك وزعماء القبائل، وفي ندواته الدينية بقصره في مدينة حلوان أبان فترة احتجازه بمصر، واختار الزبير العمل في التجارة، ثم هاجر إلى جنوب السودان في سبتمبر ١٨٥٦م ملتحقاً بالعمل في قافلة التاجر علي أبو عموري برفقة ابن عمه محمد عبدالقادر وظهرت خلال فترة عمله مواهبه الفطرية في الإدارة والقيادة والجرأة، عاد الزبير إلى الخرطوم وبدأ في تأسيس تجارته الخاصة عام ١٨٥٨م واستطاع خلال فترة وجيزة من العمل في أصقاع الجنوب النائية أن يؤسس تجارة رائجة حيث كانت حاصلات الجنوب تتمثل في العاج وجلود الحيوانات النادرة وريش النعام والمطاط وعسل النحل والأخشاب والحديد والنحاس والذهب والفضة تشكّل مصدراً كبيراً من مصادر الثروة إن لم تكن مصدر الثروة الوحيد أصلاً[١].

أرسل الزبير من قبل أسرته لإرجاع أحد أبناء عمه الذي إلتحق بخدمة التاجر علي عموري كان ذاهبا للجنوب للبحث عن العاج وكان أن ذهب الزبير معهم بدلا من

١ - تاريخ وجغرافية السودان، نعوم شقير، القاهرة، ط٢ ، ص ٣٨، دار المعرف بالأسكندرية ، ١٩٧٦م.

العودة بإبن عمه وقد عامله التاجر علي بصورة مهينة في البداية (كالعبد) ، وحينما وصلو إلى منطقة (عفوق) القريبة من (ماكسو) جنوب بحر الجور هاجمتهم مجموعة من المحليين وألحقت بهم هزيمة نكراء وبدأوا في التراجع والهروب وكان من حسن حظ الزبير أن صوب سلاحه الناري نحو زعيمهم مما قلب دفة المعركة ،بعد تلك الحادثة أصبح للزبير مكانة خاصة عند التاجر علي عموري فترك الزبير بقيادة القافلة التجارية وعاد للخرطوم وقد أخذ الزبير ١٢٠٠ جنيه في مقابل ذلك وعند عودة عموري من الخرطوم فضل الزبير العمل بمفرده وقام بإستئجار مجموعة من المحاربين ليبدأ مشوار سيطرته علي إقليم بحجم فرنسا!!.

شملت تجارة الزبير معظم مناطق جنوب السودان، ثم بدأ في التصدير لأسواق مصر والشام واليمن والحجاز ودول المغرب العربي بالتعامل مع كبار التجار العرب، ومن هنا كان بداية التحول في طريقة تعامله بتجارة الرقيق وقد قدرت أرباحه الشهرية في تلك الفترة بما يعادل (١٢ ألف جنيه سوداني) كما قدرت ثروته التي أوصى غردون باشا بمصادرتها بأكثر من (٥ ألف جنيه استرليني) كما قدرت ثروته عند حصرها بعد وفاته بـ (٥ مليون جنيه سوداني)، بينما بلغت ميزانية السودان في ذلك العام (١٩١٦م) حوالي ٢٥٠ ألف جنيه سوداني، وبلغت نفقاته على حملاته العسكرية اكثر من مليون جنيه سوداني، ولحماية تجارته في الرقيق عمل الزبير على تعيين وتدريب فرق لحراسة قوافله، كما لجأ إليه العديد من التجار لحماية قوافلهم، فأصبح السيد المهاب في تلك الأصقاع النائية، خاض الزبير حوالي (١٢٠) معركة حربية بواسطة جيشه من البازنقر والبحارة، ولم يخسر فيها معركة واحدة، واستطاع أن يسيطر على منطقة بحر الغزال جميعها، وعندما نقض الرزيقات العهد الذي بينهم وبينه وهاجموا قوافله حاربهم الزبير وانتصر عليهم في عام ١٨٧٣م، ثم قادته سلسلة من الأحداث إلى محاربة السلطان إبراهيم حسين سلطان مملكة الفور، وبعد عدة معارك استطاع الزبير وجنوده تحقيق الانتصار

الكاسح في موقعة (منواشي) في اكتوبر ١٨٧٤م، والتي انتهت بمقتل السلطان ابراهيم ودخول الزبير الفاشر وسقوط سلطنة الفور.



سلّم الزبير منطقة دارفور لإسماعيل باشا أيوب لضمها للحكومة التركية باعتبار سلطان تركيا خليفة المسلمين، ثم حدث الخلاف بينه وبين اسماعيل باشا حول الضرائب، حيث كان الزبير يرى أنه يجب أخذ الزكاة الشرعية فقط، فكتب الزبير لخديوي مصر يستأذنه في الحضور لمصر لعرض الخلاف عليه، وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها خديوي مصر لابعاد الزبير من السودان خوفاً من استقلاله بالسودان لقوة شخصيته ومقدرته العسكرية، فدعاه للحضور لمصر حيث تم احتجازه ولم يسمح له بالعودة إلى السودان درءاً لخطره وذلك في عام ١٨٧٥م، وفي أثناء فترة احتجازه بمصر نشبت الحرب البلقانية بين روسيا وتركيا في عام ١٨٧٧م، فاستنجد الباب العالي بمصر حيث أرسلت الحكومة المصرية حملة عسكرية قوامها (١٢,٠٠٠ ضابط وجندي) وكُلف الزبير بقيادة فرقة من أربعة آلاف مقاتل حيث كان برتبة لواء وأوكلت إليه مهمة فك تحصينات العدو، واستطاع بخبرته العسكرية ودهائه دك تحصينات العدو في مدينة (صاري نصوحلر)، كما استطاع بجنوده فك الحصار عن حامية (بلقنه) التركية وإنقاذ جنودها، إلا أن الجو البارد القارص أثّر على صحته فأُرسل إلى الاستانة حيث عولج في مستشفى ميداني يتبع للهلال الأحمر العثماني، وبعد تحسن صحته تم نقله إلى أحد القصور الملكية المطلة على خليج البسفور، أثناء فترة بقائه بتركيا حظي بمقابلة السلطان عبدالحميد الذي منحه رتبة الفريق فهو أول من حصل على هذه الرتبة في العالم العربي والأفريقي، كما منحه النيشان العثماني الثالث وهو من الأوسمة الرفيعة التي تمنح لكبار رجالات الدولة، عند تكليف الحكومة الانجليزية غوردون باشا بمهمة إخلاء السودان بعد استفحال أمر الثورة المهدية وذلك في ٢٤ يناير ١٨٨٤م جمع

الزبير وغوردون لقاء عاصف بالقاهرة رفض فيه الزبير مصافحة غوردون باشا لدوره في مقتل ابنه سليمان، وبعد نقاش حاد أقرّ غوردون بأن الأمر كله كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه وقدم غوردون اقتراحه باصطحاب الزبير إلى السودان وتعيينه حاكما عاماً على السودان براتب (٦,٠٠٠ جنيه سنوياً) مع إعانة سنوية من الحكومة المصرية قدرها (مليونان ونصف مليون جنيه) لمدة عامين، وان يعمل الزبير على رفع الحصار عن حاميات الخرطوم وسنار وسواكن ، وذلك بهدف شق الصف العربي والإسلامي وتقسيم السودان من خلال خلق مواجهة عسكرية بين الزبير والمهدي.

إلا أن الوزارة البريطانية ولأسباب سياسية بحتة لم تستجب لاقتراح غوردون باشا، مما عجّل بانتصار الثورة المهدية ومقتل غوردون باشا عند فتح الخرطوم على يد ثوار المهدية، وبعدها أحسّ قادة بريطانيا وعلى رأسهم اللورد كرومر والمستر ونستون تشرشل والسير ريجنالد بالندم على عدم ارسال الزبير للسودان حيث كان الشخص الوحيد القادر على القضاء على الثورة المهدية حسب إفادتهم بعد مقتل غوردون باشا، رغماً عن نظرة الزبير السلبية لشخصية الخليفة عبدالله وأساليبه وممارساته ضد الجعليين ومقتل عبدالله وسعد، إلا أنه رفض المشاركة في الحملة العسكرية البريطانية المصرية لتخليص ميناء (سواكن) من يد عثمان دقنة والتي كانت بقيادة (الجنرال بيكر) والتي انتهت بالفشل الذريع في عام ١٨٨٢م Kبعد شك الحكومة البريطانية في اتصال الزبير السري بالثورة المهدية تم استدراج الزبير إلى الاسكندرية ومن ثم تم نفيه إلى جبل طارق في يوليو ١٨٨٥م حيث أُحتجز بقصر الملكة فكتوريا حتى أغسطس ١٨٨٧م، أُعيد بعدها إلى مصر، وفي فترة المنفى بجبل طارق عقد اجتماع حضره الحاكم العام وياور خاص لجلالة ملكة بريطانيا وبعض الضباط الانجليز والمترجمين عُرض خلال الاجتماع على الزبير أن يحكم السودان مستقلاً عن مصر فرفض العرض وغادر الاجتماع لرفضه العمل أجيراً لدى الانجليز، وفي فترة المنفى بجبل طارق أملى مذكراته الشخصية لكاتبة صحفية (فلوراشو) وهي

مراسلة لمجلة (مراجعات معاصرة)، أُعيد الزبير إلى مصر وبقي بها حتى عام ١٩٠٢م حيث عاد إلى السودان بعد انتصار كتشنر والقضاء على الثورة المهدية وقيام الحكم الثنائي الانجليزي المصري وعاش بمدينة الجيلي يرعى شؤون قبيلته ويشرف على أملاكه الواسعة ثم عاد إلى مصر في عام ١٩٠٥م وعاد للسودان عام ١٩١٢م وبقي في السودان حتى وفاته في ٦/ ١/ ١٩١٣م ودفن بمقابر الجيلي.

تزوج الزبير باشا (٤١ زوجة) وأنجب ٣٦ ولداً و٢٦ بنتاً، تُوفِّي عن عمر يناهز الثانية والثمانين، رغم رأي الزبير السالب في الدعوة المهدية إلا أنه أسهم إلى حد كبير في انتصاراتها وذلك بانضمام قادته إلى صفوف المهدية حيث أصبحوا من اشهر قوادها ومنهم: عبدالرحمن النجومي، وأبو قرجة، والنور عنقرة، والزاكي طمبل، وحمدان أبو عنجة بالاضافة إلى جنوده من البازنقر والبحارة، كما استولى الخليفة عبدالله على اسلحة الزبير العديدة التي كانت بحوزة اخيه بطران، حقق الزبير طيلة حياته الحافلة بالأحداث العديد من الانجازات نوجزها فيما يلي: فتح مناطق كانت عصية على الحكومة التركية (بحر الغزال ـ شكا ـ دارفور، إقامة دولة موحدة في جنوب السودان، وتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية في مناطق نفوذه، تقوية جيشه وتسليحه بأحدث النظم العسكرية، وتأمين طريق التجارة وعقد الاتفاقات الأمنية، ساهم في نشر الحضارة بين القبائل، شجع التزاوج بين القبائل المختلفة، أنشأ عدد من الخلاوي في المراكز والأطراف ببحر الغزال، أقام معاهد علمية جلب لها العلماء من داخل وخارج السودان، الاهتمام بالزراعة حيث استجلب المعدات الزراعية والمزارعين المهرة من مصر، نظَّم أوقات الصيد للمحافظة على الحيوانات البرية، أوجد ونظَّم الأسواق التجارية، شجع الأهالي على نبذ الحروب الأهلية، أدخل نوعاً من التصنيع الزراعي البسيط كتجفيف بعض المحصولات الزراعية، تعليم الأهالي صناعة وبناء القوارب، استجلب عدداً من الفنيين للعمل في مجال التعدين بحفرة النحاس لاستخراج النحاس والذهب، أنشأ وحدات طبية تستخدم مهارات العلاج

بالأعشاب والرقية الشرعية، استجلب الأطباء من شمال السودان ومصر لعلاج الجرحى والمرضى، التدرج في فرض الزكاة على المزارعين، مطالبة الحكمدارية التركية بإلغاء الضرائب الباهظة، أنشأ المحاكم العدلية في كل جهات المناطق المحكومة من قبله.

كما أنشأ محكمة مركزية عليا في مدينة ماندقيا تتكون من عشرة من الفقهاء، ومجلس استشاري من اثني عشر عالماً من أشهر علماء السودان والأزهر الشريف، وقام بتحريم العادات الوثنية كأكل لحوم البشر وغيرها من عادات التخلف والوثنية، تشجيع عمليات ختان الأولاد وخفاض البنات، تنظيم وإعمار وتأسيس وتمدين المناطق المفتوحة، وقد وصف المستر تشرشل رئيس الوزراء البريطاني حكم الزبير فقال: لقد كان حكمه في الحقيقة لبنة واضحة في بناء التقدم الذي أعقب عهده في السودان، اشترى استراحة بالمدينة المنورة وأوقفها كنزل مجاني لراحة الحجيج السوداني وبعد وفاته تم ضمها لهيئة الأوقاف السودانية، استأجر بيتاً كبيراً بالقاهرة لإيواء وراحة حجاج المغرب العربي في رحلتي الذهاب والأياب، خصص حصص من معاشه الشهري التي تسقط بعد وفاة الأبناء والبنات لصالح كسوة الكعبة الشريفة وإرسالها إلى الهيئة السعودية المسؤولة عن كسوة الكعبة، طبع سيرة ابن هشام على نفقته الخاصة بمطبعة بولاق بالقاهرة ووزعها على قطاعات واسعة من المسلمين، كان يكسو الطلبة السودانيين بالأزهر الشريف ويدفع لهم الإعانات المالية، أنشأ مضماراً للفروسية لسباق الخيل بمدينة حلوان المصرية[١].

بكلمات الزبير باشا التي خطها بيده في مذكراته الشخصية إنني أحسُ اليوم وقد نيفت على الثمانين بأني أسير نحو القبر نحو نهايتي المحتومة، ويوماً ما بعد أن يغيبني الثرى سوف يحلو للبعض أن يتحدث عني وأن يتناول سيرتي بالتحليل والتفنيد ولن أعدم المادح أو القادح ولن أستطيع يومئذٍ أن أرد على كليهما بعد أن أكون انتهيت إلى حفنةٍ من العظام

---

١ - تاريخ وجغرافية السودان، نعوم شقير، القاهرة، ط٢ ، ص ٣٨، دار المعرف بالأسكندرية ، ١٩٧٦م.

البيضاء، غير أني أحب أن أقول للاثنين بأنني قدمت حياتي كلها في صفحات مذكراتي الشخصية، وقد يكون فيها من الأخطاء ما يقع لكل البشر ولست إلا واحداً منهم ولكن كيف ما كانت فقد عشتها لأرضي من خلالها حق الله عليّ، وحق الوطن ، مصر حلوان، مايو ١٩١٠م .

خير الدين بربروس
سيّد القراصنة

١٤٧٢م - ١٥٤٦م

خير الدين بربروس واسمه الأصلي خضر بن يعقوب لقبه السلطان سليم الأول بلقب باشا وعرف لدى الأوروبيين (بارباروسا) يُعدّ أحد أكبر قادة الأساطيل العثمانية وأحد رموز الجهاد البحري ، تولى منصب حاكم إيالة الجزائر ثم عينه السلطان سليمان القانوني كقائد عام لجميع الأساطيل البحرية للخلافة العثمانية ولد خير الدين بربروس عام ١٤٧٢م بجزيرة لسبوس أحدى جزر اليونان بعد أخيه عروج ويعد إبنا لأحد البحارة واسمه يعقوب والذي أنجب أربعة أبناء هم خضر ، وإسحاق و إيلياس وعروج وتعود أصول عائلته إلى ألبانيا.



اشتغل خير الدين في مقتبل عمره بالتجارة مع والده وإخوته ، إذ كان لديه سفينة يتاجر بها بين سلانيك و أغريبوز ، لكنهم تحولوا إلى بحارة ومجاهدين بحريين في مواجهة فرسان القديس يوحنا ، أسر بعد ذلك عروج و قتل إلياس في أحد المعارك لكن خير الدين ساهم في إنقاذ أخيه عروج من الأسر، توجه عروج وخير الدين نحو جزيرة جربة في تونس سنة ١٥٠٤م ، وبعدها اتفقا مع أميرها أبي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي على أن يمنحهما ميناء حلق الوادي ليجعلوا منه قاعدة لهما مقابل أن

يدفعا له خمس الغنائم التي يحوزان عليـها فالتحق بهما إسحاق أيضا، شرع خير الدين في تنظيم غاراته على سواحل إسبانيا و البندقية و فرنسا و الباباوية و جنوة بالإضافة إلى تعرضه للسفن التجارية والحربية التابعة لكافة الدول الأوروبية التي لا تربطها معاهدة سلام مع الدولة العثمانية أو غيرها من الدول الإسلامية ، فحاز من ذلك على غنائم هائلة ، وأثار الرعب في سائر بلدان البحر المتوسط ، وتمكن من نقل آلاف الأندلسيين لسواحل شمال إفريقيا بعد سقوط دولة الأندلس، مابين ١٥٠٤م و ١٥١٠م، واشترك مع أخيه في استعادة مدينة بجاية ، وحماية مدينتي الجزائر و جيجل واستقر هو و أخوه في قاعدته الجديدة في جيجل ثم الجزائر في سنة ١٥١٤ م واتخذا الجزائر دارا ومركزا للقوات العثمانية، أعلن عروج نفسه سلطانا على الجزائر سنة ١٥١٦م ، وأخذ هو و خير الدين يرسيان الاستقرار وسيطرا على مناطق عديدة من الجزائر حتى استتب لهما الأمر في التراب الجزائري في مواجهة السلطان الزياني ، فكان بذلك مع أخيه واضعا أسس بناء الجزائر العثمانية التي قدر لها أن تعمر ثلاثمئة عام ، وتخلى بعدها عروج عن لقب السلطان لصالح الخلافة العثمانية وأرسل بذلك للسلطان سليم الأول الذي وافق وجعل الجزائر(الصورة المرفقة لمدينة الجزائر بالقرن ١٦) محافظة عثمانية ووعد بإرسال جيش من الإنكشارية.

حكم خير الدين خلفا لأخيه في حكم الجزائر سنة ١٥١٨م بعد استشهاد أخيه عروج في معركة قرب تلمسان ، لكنه وجد نفسه في حاجة إلى دعم رسمي أكبر من الدولة العثمانية فأقنع أعيان مدينة الجزائر بإرسال عريضة إلى الخليفة يعرضون فيها رغبتهم في تعيين خير الدين واليا على الجزائر وجعل الجزائر ولاية عثمانية ، فوافقوا على ذلك وأرسلوا وفدا إلى إسطنبول برئاسة أحد العلماء وهو حاجي حسين في أكتوبر ١٥١٩ م ، وقد أحسن السلطان سليم استقبال الوفد ، ثم أرسل أمراً يعلن فيه قبوله لعرض أعيان الجزائر ، وبعث إلى خير الدين بفرمان تعيينه على الجزائر ، كما بعث إليه بالخلعة السلطانية ،

والراية مع ٢٠٠٠ جندي من الانكشارية ، وأذن بأن يجمع ما يشاء من المتطوعين من سكان الأناضول لإيفادهم للجزائر ، وبهذا كانت الجزائر أول إيالة (ولاية) تابعة للخلافة العثمانية بشمال إفريقيا ، وقرأت الخطبة باسم السلطان العثماني سليم الأول[١] .

تصدى خير الدين للحملة العسكرية على الجزائر التي قادها ملك صقلية هيكو دي مينكادا في سنة ١٥١٩ م ، كما تمكن من الاستيلاء على مدينة القل و بونة (عنابة) و قسنطينة[(١)] ، لكنه اضطر إلى مغادرة الجزائر بعد الثورة التي قادها ابن القاضي بتحريض من سلطان تونس (العميل) الحفصي الموالي للإسبان سنة ١٥٢٤م، فلجأ إلى مدينة جيجل، إلا أنه تمكن من استعادة الجزائر مرة أخرى بعد ثلاث سنوات، استطاع خير الدين أن ينقذ مايفوق ٧٠,٠٠٠ من المهاجرين الأندلسيين ، ونقلهم إلى الجزائر، فازدهرت المدينة بفضل مهارة الأندلسيين الذين نقلوا إليها فنونهم وصناعاتهم ، وبفضل الغنائم التي كانت تجنيها من غزوات البحر، تمكن من طرد الإسبان نهائيا من قلعة البينيون التي كانوا يحتلونها قبالة مدينة الجزائر.

وفي عام ١٥٣٠م، عينه السلطان سليمان القانوني قبطان داريا ، وبيلرباي على الجزائر ، فقام بإصلاح دار بناء السفن في إسطنبول وأعد أسطولا كبيرا أغار بثمانين قطعة منه على روجيو ، سبيرلونكا وفودي، وغيرها من المدن الممتدة على طول الساحل الإيطالي الجنوبي ، ثم استولى بعد ذلك على تونس بعد فرار سلطانها مولاي الحسن ، لكن الإمبراطور الإسباني شرلكان تمكن من احتلال تونس ، وإعادة (العميل) الحسن على العرش، في ١٥٣٨م استولى بأمر من السلطان سليمان القانوني على ٢٠ جزيرة من جزر بحر إيجة ، وإلحاقها بالدولة العثمانية .

شعرت الممالك الأوربية برعب شديد من الغارات التي يشنها خير الدين على سواحلها وجزرها وسفنها ، فعقد شرلكان هدنة مع ملك فرنسا فرنسوا الأول ، وتنادت الممالك

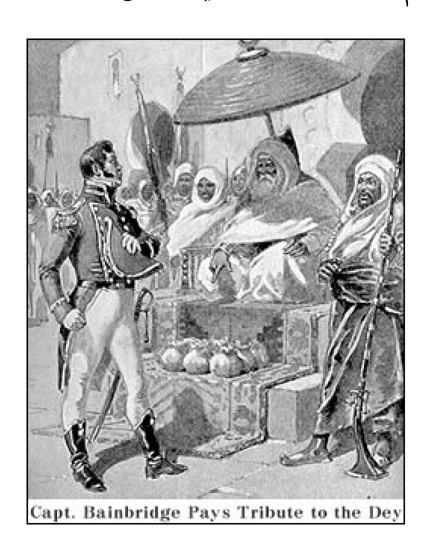
---

١ أبطال سقطوا من الذاكرة مرجع سابق، ص ٣٤

الأوربية لعقد تحالف صليبي كبير اشتركت فيه أسبانيا والبابا ، والبندقية ، والبرتغال ، فأعدت حملة مكونة من ٦٠٠ سفينة حربية ، وسفينة دعم ، وسلمت قيادتها إلى أندوريا دوريا ، فاستعد خير الدين لمواجهة التحالف الصليبي بأسطول مكون من ١٢٢ سفينة ، ثم اشتبك معه في معركة كبيرة في خليج بروزة ، انتهت بهزيمة ثقيلة للتحالف الصليبي ، واستيلاء خير الدين على ٣٦ سفينـة ، و ٢١٧٥ أسير ، فكان من نتائج هذه المعركة سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط .

وفي ١٥٤١م قاد الإمبراطور شرلكان بنفسه حملة كبرى على الجزائر لكنها منيت بهزيمة منكرة ، فقد فيها الإسبان معظم قطع أسطولهم، طلب الملك الفرنسي فرانسوا الأول من الدولة العثمانية التدخل إلى جانبها في حربها ضد أسبانيا ، فقاد خير الدين في ١٥٤٣ أسطولا مكونا من ١١٠ سفينة ، استولى به على مدينة نيس في أغسطس من السنة نفسها، وفي عام ١٥٣٣ عيّن السلطان العثماني خير الدين قائدا عاما باش قبودان للأسطول العثماني .

وفي عام ١٥٣٥ طلب الحسن الحفصي مساعدة الإسبان فأرسل شارل الخامس حملة استطاعت الاستيلاء على تونس في نفس العام، في عام ١٥٣٨ سحق خير الدين أسطول شارل الخامس في معركة بروزة التي أمنت سيطرة العثمانيين على شرق المتوسط لمدة ال ٣٣ عاما المقبلين، في عام ١٥٤١ أقصى أحمد بن الحسن الحفصي أباه عن حكم تونس لتبعيته للإسبان، وخلال الحرب الإيطالية ١٥٤٢-١٥٤٦، وتحديدا في عام ١٥٤٤م، أعلنت أسبانيا الحرب على فرنسا، فطلب فرانسوا الأول ملك فرنسا المساعدة من السلطان سليمان العثماني، فأرسل السلطان سليمان خير الدين على رأس أسطول ضخم، وتمركز في


Capt. Bainbridge Pays Tribute to the Dey

مارسيليا التي تنازل عنها الفرنسيين للعثمانيين لمدة ٥ أعوام، ونجح خير الدين في دحر الإسبان من نابولي والساحل الفرنسي، وترك ٣٠ سفينة حرب كبيرة من نوع كالير (galley) ، التي أنشأها وأثثها وجهزها بدراهمه الخاصة للدولة، وترك ١٠٠٠ عبد للسلطان العثماني، وترك ١٠,٠٠٠ ليرة ذهبية إلى ابن أخيه (إسحاق رئيس) بربروس (مصطفى بك)، وترك ٣٠,٠٠٠ ليرة ذهبية إلى أوقاف الجامع والقبر والأعمال الخيرية الأخرى التي شيدها (بشكتاش)، وترك كافة أمواله وأملاكه الموجودة في الجزائر إلى ولده وخليفته في الجزائر (حسن أغا الطوشي) ربيبه، وترك باقي ثروته التي من بينها ألف عبد وجارية وسراية في استانبول لولده الوحيد أمير البحار حسن بربروس صهر طرغود باشا ، ولم يترك شيء لابنته زوجة (طرغود باشا) لغنى زوجها غناء كبيرا يغنيها عن ثروة أبيها، منح مئات من رجاله وخدمه نقودا وأملاكا تؤمن عيشهم مدى الحياة، وأوصى ابنه (حسن بربروس) بعدم مطالبة (الصدر الأعظم) بالدين الذي كان قد

اقترضه من (خير الدين) والبالغ قيمته ٢١٠,٠٠٠ ليرة ذهبية ، كما أوصاه بعدم قبول المبلغ في حالة ما إذا قام (الصدر الأعظم) بدفعه، توفي خير الدين عن عمر ٦٥ عاما في قصره المطل على مضيق البوسفور بالآستانة وخلفه ابنه حسن آغا في حكم الجزائر[١]، وما زال قبره ماثلا للعيان في إسطنبول.

العلوج يدفعون الجزية للجزائر !! :

إن أكثر ما أغاظ الولايات المتحدة خلال غزوها للعراق هي كلمة (العلوج!) التي كان يصفهم بها وزير الإعلام العراقي الأسبق خلال فترة حكم الزعيم العربي الراحل (صدام حسين)، وفي الحقيقة فإن العديد بل ربما الغالبية من الناس لم يعلموا ما ذا تعني هذه الكلمة (العلوج)، ولمعرفة معنى هذا المصطلح علينا العودة لأواخر القرن الثامن عشرالميلادي، حيث بدأت السفن الأمريكية بعد استقلال أمريكا استقلالها عن إنجلترا عام ١٧٧٦م برفع أعلامها لأول مرة عام ١٧٨٣م، وقد تعرض البحارة الجزائريون لسفن الولايات المتحدة، فاستولوا على إحدى سفنها في مياه قادش، في يوليو ١٧٨٥م، ثم ما لبثوا أن استولوا على إحدى عشرة سفينة أخرى للولايات المتحدة الأمريكية وساقوها إلى السواحل الجزائرية، وقد كانت الولايات المتحدة عاجزة عن إعادة سفنها بالقوة العسكرية آنذك، فاضطرت لتوقيع معاهدة مع الجزائر في سبتمبر ١٧٩٥م[١].

وقد تضمنت هذه المعاهدة ٢٢ مادة، وهذه الوثيقة هي المعاهدة الوحيدة التي تعهدت فيها الولايات المتحدة بدفع ضريبة سنوية لدولة أجنبية!، وبمقتضاها ضمنت الولايات المتحدة عدم تعرض البحارة الجزائريين لسفنها، واستمرت الولايات المتحدة بدفع ضريبة حماية سفنها حتى سنة ١٨١٢م، حيث سدد القنصل الأمريكي في الجزائر ٦٢ ألف دولار ذهبا، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي تسدد فيها الضريبة السنوية[١]، وقد ظلت الجزائر لمدة

---

١ - الصورة أعلى الصفحة قنصل الولايات المتحدة الأمريكية خالعاً قبعته وهاماً بدفع الجزية لحاكم الجزائر.

ثلاث قرون القاعدة الأولىلقوات الجهاد البحري الإسلامي في بلاد المغرب العربي، فلقد قامت البحرية الجزائرية بدورها على خير وجه، فهاجمت السواحل الشرقية لأسبانيا دون أن تجد من يقاومها، وكانت تعود في كل مرة بالأسرى والغنائم، كما هاجمت سواحل سردينيا وصقلية ونابولي، وهددت الصلات البحرية بين ممتلكات الإمبراطورية الأسبانية وممتلكاتها في إيطاليا، وكان رجال البحرية الجزائرية(المارينز الجزائري!) يهاجمون سفن الأعداء، ويأسرون بحارتها، ويستولون على بضائعها.

وقد فشل الأوربيون بإيقاف المجاهدين، وعجزت سفنهم الضخمة عن متابعة سفن المجاهدين الخفيفة وشل حركتها، وقد ساعد على نجاح المجاهدين مهارتهم العالية، وشجاعتهم الفائقة، وانضباطهم الدقيق، والتزامهم بتنفيذ المهام الموكلة إليهم، وصار لرجال البحر الجزائريين مكانة مرموقة في مدينة الجزائر التي كان يعمها الفرح عند عودتهم، فكان التجار يشترون الرقيق والسلع التي يعودون بها، وكان نصيب البحارة من الغنائم كثيرا وهو ما أغرى الكثير بدخول البحرية والانتظام ضمن صفوفها، حتى إن عددا كبيرا من الأسرى المسيحيين كانوا يعلنون إسلامهم وينخرطون في سلك البحرية، وكان يطلق عليهم (العلوج)، ولولا خيانة بعض شيعة العراق لكان الأمريكان باتوا فعلا علوجاً لدى الجيش العراقي الوطني وليس الطائفي[١].

---

١ - أبطال سقطوا من الذاكرة مرجع سابق، ص ٤٠

القوانين والإتفاقيات الدولية
والإقليمية الخاصة بتحريم تجارة الرقيق

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والحقوق المبتورة :

قال تعالى : (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَال هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) الكهف:٤٩/ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا من بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي) أخرجه البخاري ومسلم.

إن هذا البحث المقارن نقدمه بين أيدي عموم القراء، بكافة دياناتهم وأفكارهم، وأعراقهم وإختلاف ثقافاتهم ومرجعياتهم وإنتماءاتهم ، وهو عبارة عن دراسة مقارنة لكافة نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذي يفترض فيه أن يكون خلاصة جهد وفكر أكبر فقهاء وفلاسفة ومفكري العالم منذ أن خلق الله تعالى سيدنا آدم وحتى يومنا هذا، فقد إجتمع فقهاء القانون الدولي والوطني وجهابذ علم النفس الإجتماعي وعلماء تاريخ الديانات والعقائد والأعراف الإجتماعية والعديد من المراجع والمصادر التاريخية، بل حتى شملت تلك المصادرشريعة حمورابي حرفيا والتي تشمل القوانين والعقوبات وكذلك ثيقة حقوق سايرس في الامبراطوريه الفارسيه والتي تسمح بحرية الدين والغاء الرق (٥٥٩-٥٣٠ قبل الميلاد)، كذلك دستور اثينا في اليونان القديمة(٥٠٨قبل الميلاد)، ذو الصبغة الديمقراطيه، والذي أقر نظام إنتخاب القادة ، وكذلك القانون الإنجليزي (ماجنا كارتا، ١٢١٥م) والمتعلق بحقوق الإنسان، وغيرها من القوانين والمصادر العديدة.

إن هذا البحث لايقصد التقليل بأي شكل من الإشكال من أو التعرض بأي صورة من الصور لتلك الجهود الإنسانية والتاريخية المبذولة من قبل لجنة الجمعية العامة للأمم

المتحدة المحترمة، والتي قامت بصياغة نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك يبدو أن واضعي تلك النصوص قد شرّعوا للبشرية ديناً ودستوراً غيرذلك الذي أقرته الديانات السماوية وخصوصاً الإسلام، وكمثال واضح لم يتم الإشارة إلى العديد من الحقوق الأساسية الأخرى، كحقوق الوالدين ، فقد ازدادت بعد هذا الإعلان أعداد دور رعاية المسنين، وأصبحت تجارة مزدهرة من كثرة طرد الأبناء لآبائهم من منازلهم التي بنوها أصلا ، كي ينعم الإبن أو الإبنة بخصوصية أكثر، هذا مثال واحد، وهو غيض من فيض الحقوق السماوية التي أمرنا الله تعالى بفعلها، فأتى الإعلان العالمي مبرراً للتغاطي عن العديد من تلك الحقوق ، وهذا ما سنتعرض لبيانه في دراستنا هذه ، أملاً أن نقدم ما هو مفيد في هذا المجال من الناحية الإنسانية والقانونية.

ويمثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان توافقاً دولياً يتضمن وثيقة تشمل جملة حقوق إنسانية عبر عنها الإعلان الذي تبنته الأمم المتحدة في 10 ديسمبر ١٩٤٨م، بقصر شايو في باريس، الإعلان يتحدث عن رؤية الأمم المتحدة حول حقوق الإنسان المحمية لدى كل الناس[١].

ويتألف الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من ٣٠ مادة ويخطط رأي الجمعية العامة بشأن حقوق الإنسان المكفولة لجميع الناس، يعتبر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨، من بين الوثائق الدولية الرئيسية لحقوق الإنسان والتي تم تبينها من قبل الأمم المتحدة، ونالت تلك الوثيقة موقعاً هاماً في القانون الدولي، وذلك مع وثيقتي العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية من سنة ١٩٦٦، والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من سنة ١٩٦٦. وتشكل الوثائق الثلاثة معاً ما يسمى (لائحة الحقوق الدولية)، وفي ١٩٧٦، بعد أن تم التصديق على الوثيقتين من قبل عدد كاف من الأمم، أخذت لائحة الحقوق الدولية قوة القانون الدولي ، وأثناء الحرب العالمية

١ - إنظر النص الكامل للإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصادر عن الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨م.

الثانية اعتمد الحلفاء الحريات الاربعة وهي حرية التعبير وحرية التجمع والتحرر من الخوف والتحرر من الحاجة، وكان هدف ميثاق الأمم المتحدة هو التأكيد على الإيمان بحقوق الإنسان الأساسية، وبكرامة الفرد وقدرة الشخص البشري، على أن تلتزم به جميع الدول الأعضاء من خلال تشجيع الاحترام العالمي ومراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع دون تمييز على أساس العرق، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين.

وعندما ظهرت الفظائع التي ارتكبت في الحرب العالمية الثانية، كان ثمة توافق في الآراء داخل المجتمع الدولي أن ميثاق الأمم المتحدة لم يحدد بما فيه الكفاية الحقوق التي اشار إليها! ، (هذا هو النص الحرفي كما ورد في مقدمة الميثاق!) ، وبالتالي ظهر الإعلان العالمي الذي يحدد حقوق الأفراد اللازمة لتنفيذ أحكام الميثاق بشأن حقوق الإنسان.

تم استدعاء الكندي جون بيترز همفري من قبل الأمين العام للأمم المتحدة للعمل على مشروع الصياغة، وأصبح الصائغ الرسمي للاعلان، كان من مساعدي (همفرياليانور روزفلت) من الأمم المتحدة، وجاك ماريتان ورينيه كاسان من فرنسا، شارل مالك من لبنان، وجيمتشانغ من جمهورية الصين وآخرين، (ومنهم بالمناسبة ممثلي دول الرأسمالية الإستعمارية والشيوعية المادية في العالم!)، وفي الوقت الذي تم تعيين همفري مديرا لشعبة حقوق الإنسان في إطار الأمانة العامة للأمم المتحدة، تم تشكيل لجنة حقوق الإنسان، كهيئة دائمة تابعة للأمم المتحدة، للعمل على إعداد ما تم تصوره في البداية باعتباره التشريعة الدولية لحقوق الإنسان وقد صمم لعضوية اللجنة أن تكون ممثلة على نطاق واسع من المجتمع الدولي مع ممثلي البلدان التالية : أستراليا، بلجيكا، الجمهورية السوفياتية البيلاروسية الاشتراكية، تشيلي، الصين، مصر، فرنسا، الهند، إيران، لبنان، وبنما، الفلبين، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة، وشملت اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وأوروغواي ويوغوسلافيا، أعضاء من المعروف جيدا للجنة اليانور روزفلت

في الولايات المتحدة، الذي كان رئيسا، وجاك ماريتان رينيه كاسين من فرنسا، وشارل مالك من لبنان، وبي.سي. تشانغ من الصين، وغيره، صدقت الجمعية العامة في ١٠ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٨ بتصويت ٤٨ لصالحه، ولم توصت أية دولة ضد القرار، غير أنه قد إمتنعت ٨ دول عن التصويت هي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، جمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفياتية، جمهورية بيلوروسيا الاشتراكية السوفياتية، تشيكوسلوفاكيا، جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية، وجمهورية بولندا الشعبية، واتحاد جنوب أفريقيا والمملكة العربية السعودية.

وكانت لجنة حقوق الإنسان مكونة من ١٨ عضواً يمثلون شتى الخلفيات السياسية والثقافية والدينية وقامت إليانور روزفلت، أرملة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت برئاسة لجنة صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، واشترك معها رينيه كاسين من فرنسا، الذي وضع المشروع الأولي للإعلان، ومقرر اللجنة شارل مالك من لبنان، ونائب رئيسة اللجنة بونغ شونغ شانغ من الصين، وجون همفري من كندا، ومدير شعبة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، الذي أعد مخطط الإعلان. ومع هذا، فإنه كان ثمة تسليم بأن السيدة روزفلت كانت بمثابة القوة الدافعة وراء وضع الإعلان.

على الرغم من الدور المركزي الذي كان يقوم به الكندي جون همفري، امتنعت الحكومة الكندية في التصويت الأوّلي على مشروع الإعلان، لكن لاحقاً صوتت لصالح المشروع النهائي ، وكانت أكثر الحقوق بروزاً هي حق العمل وعدم التمييز في الأجر، حق الراحة وقضاء وقت وقت الفراغ ، والمستوى المعيشي الذي يحقق الرفاهية والصحة الجيدة

قام الكندي جون همفري بوضع مسودة للإعلان، فوضع ٤٠٠ صفحة بناء على تكليف اللجنة الثلاثية المؤلفة من روزفلت وتشانغ ومالك، ولما كان من غير العملي أن يصدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ٤٠٠ صفحة، قطعت اليانور روزفلت الجدل بقرار حاسم جرى بموجبه تكليف رينييه كاسان وضع مسودة مختصرة واضحة ودقيقة، على أن

يستنير برأي شارل مالك في كل فقرة من فقراتها، فاعتمد كاسان على (إعلان حقوق الإنسان والمواطن) الصادر عن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وشريعة (الماغنا كارتا) ، والصادرة عن(نبلاء بريطانيا العظمى!!) سنة ١٢١٥، واختصار الإعلان العالمي مستعيناً باللبناني (شارل مالك) في بلورة نصوصه وصياغته باللغة الإنكليزية التي كان يجهلها- هكذا وردت حرفيا في الإعلان !- والتي كانت ولا تزال اللغة الأولى في الأمم المتحدة، وهكذا انطبعت الوثيقة بأفكار السيد شارل مالك ، وكان واضحاً إصراره على المواد ١٨ التي تنص على حرية التفكير والضمير والدين، والمادة ٢٠ (حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية وعدم إكراه أي إنسان في الانضمام إلى جمعية ما[١]، والمادة ٢٦(حق الإنسان في التعليم)، واستطاع كاسان الفرنسي بدبلوماسيته الفائقة وخبرته القانونية من التوفيق بين القائلين بحقوق الفرد والمدافعين عن حقوق الجماعة.

المصادر العامة لقواعد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

في الحقيقة لقد عمدت إلى تضمين ذات الديباجة التي وضعتها لجنة الأمم المتحدة كمقدمة لنصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصادرة عام ١٩٤٨م ، عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، وذلك دون أي إضافة أو تعديل، وهي بحق تعد مقدمة يمكن وصفها (برسالة غرام)، فهل نحن أمام قصيدة غزل كتبها عاشق لمحبوبته !.

إن تلك النصوص يفترض تعلقها بأهم وأسمى حقوق متعلقة بالإنسان كحقه في الحياة والكرامة، والأمن والسلم والغذاء والرأي والدين، وغيرها من الحقوق التي يجب التعاطي معها بكل حزم وحمايتها بكل قوة، فالنصوص المتعلقة بتلك الحقوق هي ذات طابع إستعطافي كما في عبارات : (نأمل ، ونرجو، ونتطلع)١ .

---

١ - إنظر المادة ٢٠ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصادر عن الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨م.

إن حقوق الإنسان وردت بأوامر الله سبحانه في القرآن الكريم (وقضى ربك ..)، وكذلك في قوله تعالى (إنا جعلناكم شعبواً وقبائل ..)، تلك هي الصيغ الحقيقية والواقعية التي تظهر أهمية الموضوع ، وليس كما ورد في ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والتي سأضعها أمامكم كما وردت حرفياً :(لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم، ولما كان تناسي حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنساني !، ولما كان غاية ما يرنو إليه عامة البشر ، هو انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة، ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الإنسان لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم، ولما كان من الجوهري تعزيز تنمية _العلاقات الودية بين الدول، ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قدماً وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح، ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون، مع الأمم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها، ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد، فإن الجمعية العامة تنادي!، بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق، والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها)[1] .

---

١ - إنظر المادة ٢٠ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصادر عن الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨م.

وفي الحقيقة لست أدري من أين أبدأ ، غير أنه (لمّا !) كانت صيغة ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان كما هي مذكورة سابقاً (فإن الجمعية العامة تنادي!)، بإن مايحدث الآن في العديد من دول العالم من إنتهاك صارخ لحقوق الإنسان ، هو بكل صراحة لعدم تقيد حكومات تلك الدول على الرغم من أنها(لما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون!)، ولكنها في الواقع لم تتعاون !. و(لما!) كان السؤال المثار هو لماذا لم تتعاون تلك الدول في (توطيد احترام هذه الحقوق!)، نعتقد بأن من يريد معرفة الإجابة عليه إعادة قراءة ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مرة أخرى، ويمكن بعدها تفسيرعدم تحقيق تلك الدول: (غاية ما يرنو إليه عامة البشر!)، ولماذا لم تتمكن الشعوب من رؤية : (انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول ..).

وعليه فمن الواضح أن تلك الديباجة أقرب لرسائل الغرام منها إلى قانون دولي متعلق بقضايا الإنسانية، وقد إعتمدت لجنة وضع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على مصادر قانونية وتاريخية محددة، وذلك بهدف سن القواعد القانونية المتعلقة بحقوق الإنسان، وقد كان من بين أحد أهم هذه المصادر وثيقة الحقوق البريطانية والتي قام بوضعها (مجلس اللوردات في إنكلترا)[١].

وتجدر الإشارة إلى أن مجلس اللوردات البريطاني، هو نظام أساسه إقطاعي في مواجهة الطبقة العاملة والفقيرة من الشعوب التي سقطت تحت إحتلال الدولة البريطانية العظمى بذلك الوقت، فهو مكون من مجموعة من الإمراء والتجار والإقطاعيين من أصحاب النفوذ الإقتصادي والسياسي، وقد تصدى هذا المجلس لفرض قانون التأمين البحري بالقرن السادس عشرالميلادي، نتيجة غرق بعض السفن التجارية المحملة بالشاي والتوابل، والقادمة من دول شرق آسيا وتحديداً الهند، وقد كان هدف تلك القوانين الصارمة هو

١ - تجدر الإشارة إلى أن مقدمة وديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصادر عن الأمم المتحدة لعام ١٩٤٨م، قام بالتوقيع عليه كافة دول العالم باستثناء٨ دول منها المملكة العربية السعودية .

حماية حقوق التجار والنبلاء، وهم غالبا من طبقة الإقطاعيين! وتم تجاهل حقوق العاملين على تلك السفن، مما أدى لمظاهرات عمالية ونقابية في لندن ، نتج عنها فيما بعد صدور قوانين تأمين إصابات العمل على السفن ، والغريب في الأمر إن وثيقة الحقوق البريطانية والتي إعتمدتها اللجنة العامة في الأمم المتحدة كمصدر لحقوق الإنسان تم وضعها من قبل أكبر دولة إستعمارية في في الحصر الحديث.

وقد ورد في المقدمة الخاصة بتحديد مصادر نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصادرة عن الأمم المتحدة أن وثيقة الحقوق البريطانية عبارة عن قائمة لأهم حقوق الإنسان والغرض من هذه القوانين هو حمايه هذه الحقوق من الانتهاك! ، وقد ظهر مصطلح وثيقة الحقوق في بريطانيا، إشارة إلى أن حقيقة قانون الحقوق الإنجليزي هو يعد بمثابة مشروع قانون، وهو القانون المقترح، الذي اصدره البرلمان البريطاني في عام ١٦٨٩م .

وكذلك كان من بين المصادر المعتمدة لوضع نصو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، شريعة حمورابي والمترجمة من النصوص المسمارية والمنقوشة في الحجر، وهي واحدة من بين العديد من المدونات المماثلة تلك الفترة من تاريخ الشرق الأوسط ، وهي عبارة عن وثيقة قوانين وعقوبات، وكذلك (وثيقة حقوق سايرس)، في الإمبراطورية الفارسية ٥٥٩ -٥٣٠ قبل الميلاد، ودستور اثينا القديمة، (٥٠٨ قبل الميلاد)، وقانون (ماجنا كارتا ١٢١٥م)، في الإمبراطورية البريطانية، وقانون المطالبة بالحقوق(اسكتلندا)، وكذلك (وثيقة الحقوق الأمريكية، ولاية فرجينيا لعام ١٧٧٦م)، والإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن ١٧٨٩م ، وكذلك دستور اليونان لعام ١٨٢٢م، وغيرها من القوانين الوضعية.

النص الكامل للإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام ١٩٤٨م :

المادة (١) : يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء.

المادة (٢): لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصرأواللون أواجنس أواللغة أوالدين أوالرأي السياسي أوأي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أوالميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء، وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي لبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود.

المادة (٣): لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة (٤): لايجوزاسترقاق أواستعباد أي شخص ويحظرالاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعه.

المادة (٥): لايعرض أي إنسان للتعذيب والعقوبات والمعاملات القاسية والوحشية والمسيئة للكرامة.

المادة (٦): لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية.

المادة (٧): كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق بالتمتع بحماية متكافئة دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعا الحق بحماية متساوية ضد أي تميز يخل بهذا الإعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا.

المادة (٨): لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه عن أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.

المادة (٩): لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً.

المادة (١٠): لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً للفصل في حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه.

المادة (١١):

أ- كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته قانوناً بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه.

ب- لا يدان أي شخص من جراء أداة عمل أو الامتناع عن أداة عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرماً وفقاً للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشد من تلك التي كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة.

المادة (١٢): لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق بحماية القانون من هذا التدخل أو تلك الحملات.

المادة (١٣):

أ- لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة.

ب- يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما في ذلك بلده كما يحق له العودة إليه.

المادة (١٤):

أ- لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد.

ب- لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة في جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة (١٥):

أ- لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

ب- لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفاً أو إنكار حقه في تغييرها.

المادة (١٦):

أ- للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.

ب- لا يبرم عقد الزواج إلا برضى الطرفين الراغبين في الزواج رضى كاملاً لا إكراه فيه.

ج- الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة.

المادة (١٧):

أ- لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.

ب- لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً.

المادة (١٨): لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة.

المادة (١٩): لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة دون تقيد بالحدود الجغرافية.

المادة (٢٠):

أ- لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية.

ب- لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما.

المادة (٢١):

أ- لكل فرد حق الاشتراك بإدارة الشؤون العامة لبلاده مباشرة أوبممثلين يختارون اختياراً حراً.

ب- لكل شخص نفس الحق الذي لغيره في تقلد الوظائف العامة في البلاد.

ج- إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تجري على أساس الاقتراع السري وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

المادة (٢٢): لكل شخص بصفته عضواً في المجتمع الحق في الضمانة الاجتماعية وفي أن تحقق بوساطة المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لاغنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته.

المادة (٢٣):

أ- لكل شخص الحق بالعمل، واختياره بشروط عادلة مرضية و له حق الحماية من البطالة.

ب- لكل فرد دون أي تمييز الحق في أجر متساو للعمل.

ج- لكل فرد يقوم بعمل الحق في أجرعادل مرض يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه، عند اللزوم، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية.

د- لكل شخص الحق في أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته

المادة (٢٤): لكل شخص الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ، ولاسيما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر.

المادة (٢٥):

أ- لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته.

ب- للأمومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصتين، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أو بطريقة غير شرعية.

المادة (٢٦):

أ- لكل شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأولي إلزامياً وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني، وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة.

ب- يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملاً، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام.

ج- للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم.

المادة (٢٧):

أ- لكل فرد الحق في أن يشترك اشتراكاً حراً في حياة المجتمع الثقافي وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه.

ب- لكل فرد الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة بإنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.

المادة (٢٨): لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققاً تاما.

المادة (٢٩):

أ- على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نمواً حراُ كاملاً.

ب- يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط ، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي.

ج- لا يصح أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة (٣٠): ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه.

من خلال إستعراض نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، نجد بأن تلك النصوص قد ميزت بين نوعين من الحقوق، النوع الأول يتناول الحقوق الشخصية له كحقه بامتلاك إسم وشخصية قانونية وحقه في الزواج وإنشاء أسرة وغيرها من الحقوق الشخصية، والنوع الثاني هي الحقوق العامة كحق التقاضي والإنتخاب وإنشاء الجمعيات والنقابات، والحريات العامة السياسية والإقتصادية وغيرها.

وفي الدول المتقدمة لايمكن الفصل بين شطري الحقوق الإنسانية من الناحية العملية ، مما يعني أن إنتهاك حقوق الحريات العامة يعني بالضرورة إنتهاكاً للحقوق الشخصية للإنسان، ففي الدول التي لاتراعي الحقوق السياسية العامة كحق الإنتخاب النزيه على سبيل المثال، فهي حتماً لاتراعي حماية الحقوق الشخصية للإنسان كعدم الإعتقال التعسفي وحفظ كرامته وسلامة جسده من التعذيب، غير أن ما يهمنا في هذا البحث هو إجراء مقارنة بين الحقوق المنصوص عليها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وبين

الحقوق الإنسانية في الإسلام والتي أقرتها النصوص القرآنية والأحدايث النبوية الشريفة، وإجتهادات فقهاء الدين وفقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية، وبناء عليه سنعرض مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من خلال بيان المدى الذي ذهبت إليه تلك المواد في حماية تلك الحقوق:

الحريات الشخصية والعامة: أشارت المادة الأولى من الإعلان إلى أنه: (يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء)، إن كلمة (وُهبوا)، الواردة في النص السابق تثير حقاً بعض التساؤلات، فمصدر الهبة المشار إليها هو حتماً إرادة إلهية من قبل الله سبحانه وتعالى، ولو لم يشر إليه النص المذكور صراحة، قال تعالى : (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليّا) مريم/ ٥٠، وكذلك قال تعالى: (فوهب لي ربي حُكماً وجعلني من المرسلين) الشعراء/ ٢١، وقال تعالى : (رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين) الشعراء/ ٨٣، فالهبة هي من عند الله عز وجل، وأما فيما يتعلق بالحريات، فهي أيضا هبة من الخالق و ليست منة من المخلوق قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾فصلت: ٤٦ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ الرعد: ٤٠، فتلك حرية شخصية منحها الإسلام لكافة البشر، ولكن تم ضبط تلك الحريات في الإسلام ضمن ما وهبه الله سبحانه للناس من عقل وحكمة كي يميّز الإنسان بين الخطأ والصواب،قال تعالى: (وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَميعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنين) يونس/ ٩٩ ، وقال تعالى: (لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فقد استَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لاَ انْفِصامَ لَها وَ اللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ ﴾ البقرة ٢٥٦.

من الواضح أن النص على وجوب معاملة الناس بعضهم (بروح الإخاء) كما ورد في المادة الأولى امن مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هو وصف لقوله تعالى : (إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) الحجرات/ ١٠ ، فلِمَ ياترى لم يتم الإشارة إلى ذلك الأمر؟ ، تكمن الإجابة ببساطة في كون تلك الإشارة ستشكل دعوة عامة لكافة سكان الأرض إلى الدخول في الإسلام وهذا ما لن يرضى به اليهود ولا النصارى ، فسبحان الله..

إن مفهوم الحرّية يعد من المفاهيم ذات المضامين الإجتماعية في الأصل ، والتي تلتقي عندها طبيعة ومشاعرالناس كافة، وهذه الصفة المشتركة التي تربط الإنسان بالحرية ليست ظاهرة حديثة في تاريخ الإنسانية، كما هي ليست من نتاج الفكر الحضاري بأنظمته الشمولية كالرأسمالية والإشتراكية ، وإن تم تطبيق تلك النظريات، لتعلقها بفكرة الحرّية وتقبلها إجتماعياً على هذا الأساس، ثم فشلها الذريع لاحقاً لثبوت تورطها في إستغلال البشرية حد العبودية، وإنما تعبّر هذه الصفة المشتركة عن فطرة أصيلة في النفس البشرية على مرالتاريخ إلى يوما هذا، وكأنها معركة مستمرة في مواجهة العديد من القيم الفكرية الشاذة عن طبيعة الفطرة الإنسانية، وهذه الصفة العامة والمتعلقة بالحرية، نجد تفسيرها في جانب ثابت من تكوين الإنسان وهو الإرادة، فالإنسان مجهز ضمن تركيبه العضوي والنفسي بالإرادة، وهو لذلك يميل للحرية كما تميل سنابل القمح مع حركة الرياح، فالحرية ليست تعبيراًعملياً عن امتلاك الإنسان لإرادته ونجاحه في تسخيرها لتحقيق منافع خاصة، بقدر ماهي أداة طوعية لتحقيق منافع عامة تشمل الخاصة.

الحرية المقنعة : آمن الإنسان منذ البدء بأنّ الحرية المطلقة لا يمكن أن تُوفّر للفرد في وسط مجتمع ما، لأن الحرية المطلقة تصطدم بحريات الآخرين، وبالتالي يؤدي استقطاب المصالح المبنية على الحرية المطلقة في أي مجتمع لتفسخه في النهاية ، ولكي يحتفظ كل فرد بقدر الحرية كافياً للمارسة حياته الخاصة ، كان عليه التنازل عن قسم منها لصالح الحياة العامة ، وتتجلى صور هذا التنازل من خلال إحترام وتطبيق القوانين الرسمية والسارية في مجتمعه، وقد حرصت كافة الدول الغربية على إظهار الحد الأقصى لمفهوم الحرية

الشخصية ، وتبدو الحرية في هذا السياق كمركبة موجهة عن بعد، يعيش فيها فيها المواطن الغربي في ظل تحكم الجهات الرسمية في دفة القيادة، وفي ظل هذا المفهوم أضحى كل شيء مباح طالما بقي الفعل داخل تلك المركبة، وقد إستمر رقص المواطن الغربي على ألحان وأحلام تلك الحرية، وكما يبدو فإن هذا الحلم لم يدم طويلاً فقد إستيقظ المواطن الغربي ليجد الآثار المرعبة لتلك الحريات، إبتداءاً من تفسخ الروابط الإجتماعية بين افراد الأسرة الواحدة، وإنتهاءا بحالات الإنتحار، وعلى الرغم من تحقيق الجوانب المادية ، في ظل الحريات الغربية إلا أنها تبقى حريات سطحية تحفل بالتناقضات الخطيرة كالتحررمن القيم الأدبية والإخلاقية والدينية والإجتماعية ، بخلاف الإسلام الذي بمفهوم عملي للحرية، فهي ليست ثورة على القيم الإنسانية بحجة الحريات الشخصية، بل على المعاني الفكرية والعملية، وبهذا كفل للإنسان أرقى وأسمى أشكال الحرية التي عرفها الناس على مرّ التاريخ.

روح الأخاء: أشارت الفقرة الأخيرة من المادة الأول للإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن على البشر كافة أن يتعاملوا مع بعضه بعضه بروح الأخاء: (وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء) ، ولطالما أسهب علماء النفس وعلم الإجتماع الغربيين في تفسير طبيعة وأصول العلاقة الإجتماعية بين البشر، وقدموا نظريات علمية في أسباب وضروريات تعامل البشر مع بعضهم البعض، ولسنا بمعرض الكشف عن نظريات علم الإجتماع والخاصة بتفسير طبيعة العلاقات البشرية، فهي عديدة ، وبعضها يصل لدرجة تصنيف البشر بناءاً على ألوانهم، وبعضها الآخر يستبيح العبودية، ولكن فالمقابل فإن الإسلام قد حسم هذا الأمر من خلال الآية الكريمة التالية : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات/ ١٣ ، وعليه فإن الإسلام جشع على تعارف البشر، وليس فقط التعامل بالآخاء عند التلاقي ، فتلك حكمة إليهة لأعمار الكون، ومقياس التفاضل بين

البشر ليس العرق أوالدين أو الثقافة أو اللون، وإنما التقوى بمفهومها الشامل سواء بالعبادات أو المعاملات كافة.

عدم التمييز في الحقوق والواجبات :

لايختلف إثنان على أن الدول في وقتنا الحالي، تمنح مواطنيها حقوقاً لاتمنحها لمواطني الدول الأخرى على الرغم من وحدة الدين واللغة والثقافة وغيرها من العوامل الشتركة، والغريب أن المادة الثانية من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تنص على أن:(لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصرأواللون أوالجنس أواللغة أوالدين أوالرأي السياسي أوأي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أوالميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء، وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي لبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود)، فسبحان الله ، فأي دولة في يومنا هذا على إستعداد أن تفتح أبوابها بلا تعقيدات أمنية ومالية وسياسية في وجه لاجىء تقطعت به السبل .

فهل ياترى كان سيحدث ذلك في زمن الدولة الإسلامية الموحدة ؟، ولكنه يحدث الآن وأمام أعين الجميع يموت اللاجيء على الحدود من البرد والجوع والمرض، أو غيرها من الأسباب ، فأين لجنة الأمم المتحدة والتي وضعت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من قول الله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا) الإسراء/ ٧٠، وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْـمَحْرُومِ) المعارج/ ٢٤،٢٥ ، وأين هم من قول النبي عليه الصلاة والسلام : (مَثَلُ الْـمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْـجَسَدِ، إِذَا

اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْـجَسَدِ بِالسّهَرِ وَالْـحُمّى)[1]، فكيف نرى اليوم حقوق الإنسان من مسلمين وغيرهم في العالم .

الحق في الحياة : **المادة** (٣): لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

كفلت جميع القوانين الوطنية والدولية الحقوق المنصوص عليها في المادة الثالثة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والواقع بعيد عن ذلك كبعد السماء عن الأرض، فالناس تتقل لأتفه الأسباب وتعذب في السجون والمعتقلات، وأصحاب النفوذ والسلطة يسرقون ميزانيات حكوماتهم، ويتم تعويض ذلك بالضرائب المستمرة، والحديث عن معاناة المواطن العربي في ظل الأنظة العربية الشمولية، لايحتاج دليل.

تجارة الرقيق : **المادة** (٤): لايجوزاسترقاق أواستعباد أي شخص ويحظرالاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعه.

تساق اليوم وفي عصر التطور والإنسانية ، ملايين النساء كالخراف إلى أسواق البغاء سواء بواسطة عمليات الإختطاف من قبل المافيات الدولية لتلك التجارة، أو نتيجة الفقر الذي نتج عن الأنظمة الرأسمالية وغيرها من سياسات القهر والظلم والإحتكار، وكذلك يخطف الأطفال من بين ذويهم ليتم إجبارهم على العمل بالسخرة وبالحد الأدنى من الأجور، وإجبارهم على المشاركة في النزاعات المسلحة في العديد من بؤر التوتر في العالم، وكل تلك الإفعال حرمها الإسلام وعاقب عليها، فهل نجحت نصوص ومواد الإعلان العالمي في مكافحة تلك الجرائم مثلما فعل الإسلام.

التعذيب والإهانة : **المادة** (٥): لايعرض أي إنسان للتعذيب والعقوبات والمعاملات القاسية والوحشية والمسيئة للكرامة.

---

١ - البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين (٦٥).

إن الإحصائيات المتعلقة بعدد الوفيات الناتجة عن عمليات التعذيب في السجون والمعتقلات لدى كافة دول العالم في يومنا هذا، ليست بحاجة إلى محلل أو خبير مختص بحقوق الإنسان، كي يكشف عن الأعداد البشرية الهائلة والتي وقعت ولاتزال نتيجة تلك الجرائم، وحتى لدى الدول المتقدمة، ولقد نهى الإسلام عن التعذيب والضرر بالبشر باي شكل من الأشكال ، والأدلة القرآنية و الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بهذا الأمر كثيرة جداً لمن أراد الإطلاع ، وقد كفلت تلك الأوامر من القرآن والسنة منع ارتكاب تلك الجرائم ، إبان فترة العصور الإسلامية الأولى ، وأما اليوم فلا تمتلك الدول الإسلامية قرارها بيدها بل من قبل الدول العظمى الإستعمارية.

الإعتراف بشخصية الإنسان : المادة (٦): لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية.

إن أول تحويل في أسس الدين قام به الإسلام ودعا له هو الإعتراف بشخية الإنسان بشخصية الإنسان وبأهليتها للتصرف وتحمل مسؤولية عن هذا التصرف بمواجهة الثواب والعقاب ، ونرى في قول الله تعالى : (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) القيامة / ١٤، ١٥ ، خير مثال على أن الإسلام جعل الشخص مسؤول عن تصرفاته ورقيبا على نفسه ، كما شدد القرآن الكريم من استعمال الكلمات الدالة على شخصية الإنسان كالعقل، واللب، والتفكير، والتدبير، والعلم، والفقه، والتذكر، ومدح الذين يفكرون ويتدبرون ويعقلون،وقد عني الإسلام بشخصية المرأة وإعطائها الحرية التامة في التصرف المباشر في شؤونها وخصوصاً المالية دون الرجوع للزوج، وذلك تركيز لاستقلالها الشخصي وإعطائها مكانتها بصفتها كائنا بشريا له نفس الوضعية والقيمة التي للرجل.

مبادىء العدالة والمساواة : **المادة** (٧): كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق بالتمتع بحماية متكافئة دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعا الحق بحماية متساوية ضد أي تميز يخل بهذا الإعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا.

من عظمة الإسلام أنه يمزج بين العدل والمساواة، فالحق أنه لا حرية ولا مساواة بلا عدل، وبلا شريعة حاكمة للناس جميعًا على قدم المساواة، وكل شعارات تنسى العدل ووسائل فرضه وحمايته هي شعارات فارغة المضمون تخدع المظلومين! وفي الإسلام تختلط كلمة المساواة بكلمة العدل، فكأنها كلمة واحدة، أو عملة ذات وجهين، وهذا الحق لا شك فيه؛ فالعدل يفقد معناه إذا كان لأصحاب دين دون دين، أو لقومية دون قومية، أو لطبقة دون طبقة، بل يجب أن يكون مطلقًا بلا حدود، كما يقول الله سبحانه : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) النساء/ ٥٨ ، فالمساواة في الحقوق والواجبات وأمام العدالة من الحقوق الأساسية للإنسان، ولا يجادل في هذه الحقوق إلا عدو للإنسانية وقد كان الإسلام أسبق من كل النظم المعاصرة، وأزكى في تقدير هذا الحق الفطري، إذ إن الناس في الإسلام سواسية ولا تفاضل بينهم، فكلهم لآدم وآدم من تراب، ولا فرق بين رجل وامرأة، الغني والفقير سواءٌ في القيمة الإنسانية، فلا تفاضل بين الناس في هذه الناحية إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة، وبما يقدِّمه كل فرد لربه، ولإخوانه ووطنه، وذلك بخلاف الأنظة الوضعية كالرأسمالية التي أفرزت تفرقة طبقية بين أفراد المجتمع الواحد.

حق التقاضي : **المادة** (٨): لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه عن أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.

يعتبر حق التقاضي من أهم المبادئ الضامنة لحقوق الإنسان والمكفولة لكل إنسان تحترمه جميع الشرائع والقوانين السماوية حتى وإن لم ينص عليها القانون الوضعي، فالمتتبع لنص المادة ٨ السابقة من الإعلان العالمي حول الحقوق يرى في الفقرة الأخيرة عبارة (التي

يمنحها له القانون)، وهذا الأمريفتح المجال لضياع حقوق البشر.وهذا ما يحدث على أرض الواقع في الكثير من الحالات، فلا يحق للنازح أو اللاجىء في الدولة المضيفة حق التقاضي في محاكمها الوطنية كون تلك الدولة لايوجد في دستورها نص قانوني يمنح حق التقاضي إلى النازح أو اللاجىء ، وعليه فتضيع حقوق البشر، وذلك بخلاف القانون السماوي الذي كفل حقوق الناس جميعا مواطنين أولاجئين أو مقيمين، وحرمان الناس من اللجوء إلى القضاء بأية وسيلة من شأنه الإخلال بحقهم في الحرية والمساواة في التكاليف والواجبات والانتصاف كما أن منع الناس من ممارسة هذا الحق يفتح الباب أمام اقتضائهم حقوقهم بأنفسهم بطرق غير سليمة ويقود إلى سيادة قانون الغاب بدلاً من سيادة حكم الشرع والقانون، في حين كفل الإسلام حفظ حقوق جميع البشر مواطنين أو لاجئين أو غيرهم.

الحماية من الإعتقال والحجز التعسفي : **المادة (٩)**: لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً، وإن نظرة سريعة على عمليات القمع والإعتقال التعسفي في معظم دول العالم، تنسف كافة مبادىء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فأين كل تلك القوانين مما يحصل من تجاوزات وإنتهاكات واضحة لحق الفرد في عدم حجزه أو نفيه أو إعتقاله لأوهن الأسباب، وبالمقابل فإن نظام القضاء في الإسلام أوجد حدوداً واضحة للعقوبات يتم فيها أخذ أقصى درجات الدقة ، كسماع الشهود والتثبت من صحة الدعوى قبل القيام بأي نوع من الإجراءات، قال تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} البقرة/ ١٧٩، فالهدف من العقوبة في الإسلام هو الحفاظ على الحياة وليس سلبها، كما يحدث في الكثير من الحالات في وقتنا الحالي من ظلم وتجاوزات لأبسط حقوق الإنسان، حيث تسن القوانين وتطبق العقوبات الوضعية من أجل القمع وحماية المصالح الخاصة.

ضمان حق التقاضي ونزاهة القضاء: **المادة (١٠)**: لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً للفصل في حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه، ومن المعلوم انه في ظل أحكام عرفية، وعدم إستقلال ونزاهة القضاء، فإن الحديث عن المحاكمات العادلة هو من باب الجدل الفلسفي لا أكثر، فأي مساواة وأي عدل هذا الذي نحن نتحدث عنه في ظل قوانين غير مطبقة، بل يتم تطبيق قوانين عرفية ويتحكم في مسارها من لايراعي العدل.

ضمان قواعد وأصول الإدانة الجنائية والمدينة : **المادة (١١)**:

أ- كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته قانوناً بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه.

ب- لا يدان أي شخص من جراء أداة عمل أو الامتناع عن أداة عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرماً وفقاً للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشد من تلك التي كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة، من الضروري الإشارة إلى أن العديد من ضحايا الإعتقال والحجز على ذمة التحقيق يمضون سنوات خلف قضبان السجون فقط لحين إنتهاء التحقيق، بل ويتم تجاهلهم عمداً بحجة جمع المعلومات ، فتلك حجة واهنة، لا تتم بغية تحقيق العدالة وإنما بغية الإنتقام والكيد وحبس الحريات، فهنيئاً للشعوب بقوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ضمان حرمة البيوت والخصوصية : **المادة (١٢)**: لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق بحماية القانون من هذا التدخل أو تلك الحملات، وعلى النقيض تماماً فحدث ولاحرج عن التدخل السافر في الحياة الخاصة للمواطنين، في وقت أصبح التصنت على حياة المواطن فناً لأجهزة الدولة ، فلا إحترام لخصوصية البشر.

حرية التنقل والسفر: **المادة (١٣)**:

أ- لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة.

ب- يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما في ذلك بلده كما يحق له العودة إليه.

لاتعاني معظم الدول النامية من مشكلة تنقل أوسفر مواطنيها فهم يولدون ويموتون وبعضهم لم يتمكن من الخروج من قريته أومدينته، وذلك لإنشغاله بتحصيل قوت يومه الذي يقضي حياته يوماً بيوم في صراع للبقاء نتيجة سياسات التجويع والتركيع المتبعة من السلطات الحاكمة.

ضمان حقوق اللاجئين : **المادة (١٤)**:

أ- لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد.

ب- لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة في جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

يجب الإشارة إلى أن دول العالم الثالث تعتبر أكبر الدول المصدرة للنازحين واللاجئين، بسبب كثرة الحروب والنزاعات المسلحة على السلطة، إضافة لسياسات القهروالإضهاد والظلم، وربما يكون هذا البند ملائماً لمواطني تلك الدول، وذلك في حال تمكنوا من النجاة من خطر الفرار واللجوء بمساعدة عصابات تهريب البشر عبر الحدود، ولكن الأصل البحث في أسباب فرارهم من بلدانهم.

ضمان حق الجنسية : **المادة (١٥)**:

أ- لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

ب- لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفاً أو إنكار حقه في تغييرها.

لقد أضحت الجنسية لبعض الدول تجارة مربحة، فبعض الدول العربية تمنح الجنسية مقابل من يدفع أكثر، وبعضها تمنح الجنسية لبعض الرياضيين من الدول الغربية

متخصصين في رياضات مختلفة كما في حالة رياضة رفع الأثقال كي يمثلها في دورات الألعاب الأولمبية ويحصل لها على ميدالة ذهبية بإسمها، ولكنها لن تمنح الجنسية لمواطن عربي أو مسلم هو بأمس الحاجة لذلك، بل حتى لاتمنحه حق الإقامة ، ولكنها قد ترسل له بطانية بيضاء نظيفة تصلح كفنا كونه لايملك ثمنه.

حق الزواج وتكوين إسرة: المادة (١٦):

أ- للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.

ب- لا يبرم عقد الزواج إلا برضى الطرفين الراغبين في الزواج رضى كاملاً لا إكراه فيه.

ج- الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة.

في الحقيقة لم تبق الحرية الشخصية مجالاً للحديث عن حق المرأة في الزواج ممن تحب، وفق الأسلوب المعاصر وليس التقليدي ، وكذلك حق المراهق في الخروج عن طوع أهله والتعبير عن نفسه، فهي حقوق مقدسة، منحت حلولاً عملية لأسرع طريقة للإنحلال الخلقي والتفسخ الأسري.

حق التملك والتصرف القانوني بالملكية الخاصة: المادة (١٧):

أ- لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.

ب- لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً.

في عصرنا الحالي، يعد الحصول على عمل يؤمن لقمة العيش، حلماً جميلا لمواطني دول العالم الثالث بما فيها الدول العربية باستثناء (دول الخليج العربي) ، وعليه فالتملك ميزة لانزاع فيها إلا إن تجرأ الفقير وحاول تحسين ظروفه فعليه عندها مواجهة أصحاب النفوذ وتحمل العواقب.

حرية الدين والمعتقد والتفكير : **المادة** (١٨): لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة، قد يكون من العبث الحديث عن حرية الرأي أو الدين أمام مجتمعات يقتل فيها الإنسان على الهوية، وضمن ما يطلق عليها عمليات التطهير العرقي والإبادة الجماعية كما يحدث في سوريا وغيرها.

حرية التعبير عن الرأي : **المادة** (١٩): لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة دون تقيد بالحدود الجغرافية، نتفق مع هذا الطرح، ولكن السؤال حول ماهية الأفكار التي يسمح بتداولها، ففي الوقت الحالي تطرح مواضيع الحريات الشخصية الخاصة بالعلاقات الإباحية والتحلل من القيم الإخلاقية فهي دارجة.

حرية الإشتراك في الجمعيات السلمية : **المادة** (٢٠):

أ- لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية.

ب- لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما.

إن أول سؤال يطرح على الفرد عند تقدمه للحصول على وظيفة أو حتى تأشيرة دخول لبلد ما ، هل أنت عضو في أي من المنظمات أو الجمعيات، وقد تكون تلك الجمعية أو المنظمة سلمية ومعترف فيها دولياً ولكن غير معترف فيها لدى دولة الإقامة أو الزيارة لاسباب فكرية أو سياسية أو غيرها من الأسباب والتي قد تكون مبررة أو غير مبررة، وعندها سيتم مطاردة أي شخص منتمي لتلك الجمعية ، بل وإعتقاله والتحقيق معه، وربما طرده ومنعه من أية حقوق، بل إن بعض الدول تجبر المواطنين على الدخول في الأحزاب الحاكمة من أجل الحصول على حقوقهم في التعليم والصحة.

حق التمثيل والإنتخاب: المادة (٢١):

أ- لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حراً.

ب- لكل شخص نفس الحق الذي لغيره في تقلد الوظائف العامة في البلاد.

ج- إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تجري على أساس الاقتراع السري وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

من الواقع العملي، تعتبر العملية السياسية والإنتخابية في معظم دول العالم صفقات تجارية وتبادل للمصالح الخاصة ، ولاعلاقة لمصالح الشعوب فيها، وربما لم تقرأ لجنة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الحديث النبوي الشريف : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .. إلى آخر الحديث).

حق الضمان الإجتماعي والتقاعد : المادة (٢٢): لكل شخص بصفته عضواً في المجتمع الحق في الضمانة الاجتماعية وفي أن تحقق بوساطة المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لاغنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته.

ونرى في المقابل أن الدوائر الرسمية والوزارية في بلدان العالم الثالث، وكذلك مؤسسات الضمان الإجتماعي قد أصبحت في بعض الدول مرتعاً للفساد ونهب ثروات الشعوب ولا من مجيب.

حق العمل وكسب الرزق: المادة (٢٣):

أ- لكل شخص الحق بالعمل، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية و له حق الحماية من البطالة.

ب- لكل فرد دون أي تمييز الحق في أجر متساو للعمل.

ج- لكل فرد يقوم بعمل الحق في أجرعادل مرض يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه، عند اللزوم، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية.

د- لكل شخص الحق في أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته.

في ظل المحسوبية وعدم العدالة في توزيع فرص العمل الجيدة وخصوصاً المناصب التي يتم توريها لبعض العائلات وابنائهم، فإن الحديث عن العدالة والمساواة أمر يثير الإشمئزاز حقاً.

ضمان الحقوق العمّالية : المادة (٢٤):

لكل شخص الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ، ولاسيما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر.

لست أدري أي راحة يتحدثون عنها ومواطن الفقير في معظم دول العالم يعمل بوظيفتين في اليوم فقط كي يستر نفسه ويطعم أولاده ويكاد لايكفي ما يجنيه من عمله، لان من يملك قرار رفع الأجور على المستوى الرسمي ، هو ذاته مالك الشركة التي يعمل فيها المواطن أو شريكاً فيها.

ضمان الحياة الكريمة للمواطنين وخصوصاً الفئات الأضعف: المادة (٢٥):

أ- لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته.

ب- للأمومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصتين، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أو بطريقة غير شرعية.

إن الأمومة والطفولة والكهولة ورعاية المسنين والأيتام ، أصبح لها شركات خاصة تجني أرباحاً هائلة باسم الإنسانية، وأصبح لها منابر تجهر بإسم حقوق الإنسان فقط للوصول إلى مناصب وزارية ومصالح خاصة، فيكفي أن نعلم بأن الله سبحانه قد قرن بر الوالدين بعبادة الله ، قال تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) الإسراء/ ٢٣-٢٥، فأين قوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من تلك الآية الكريمة.

حق التعليم : **المادة (٢٦)**:

أ- لكل شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأولي إلزامياً وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني، وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة.

ب- يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملاً، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام.

ج- للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم.

أصبح التعليم الخاص تجارة رائجة في وقتنا الحالي ، وفي ظل إهمال متعمد من قبل كافة الأطراف المعنية إبتداءاً من المعلم في المدارس الحكومية والذي يسارع لإنهاء ساعات عمله، من أجل الذهاب نحو التدريس في معاهد ومؤسسات التعليم الخاصة، وقد لايلام المدرس بقدر ما تلام الحكومات التي تعطي المعلم حقه وتكرمه حتى يتفانى في عمله، فأين حق المعلم من قوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؟ وكذلك فإن وزارات التعليم مجهدة من كثرة الأوامر الرسمية الخاصة بسن مناهج تعليمية تناسب توجهات السلطة

الحاكمة، وتثبت اركانها وتحض على حب الزعيم ، وليس طلب العلم.لقد خلق الله الإنسان وزوده بأدوات المعرفة وهي السمع والبصر والعقل قال تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) النحل/ ٧٨ والإسلام دين العلم فأول آية نزلت في القرآن أمرت بالقراءة قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) العلق/ ١-٥ ،والعلم في الإسلام يسبق العمل قال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) محمد/ ١٩ ، وقال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) الإسراء/ ٣٦ ، ورفع الإسلام مكانة العلماء قال سبحانه : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) آل عمران/ ١٨ ، و أثنى الله عليهم بقوله : (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء) فاطر/ ٢٨ ، وللعلماء في الإسلام منزلة تعلو من سواهم قال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) المجادلة/ ١١ ، ولأهمية العلم أمر الله رسوله أن يطلب المزيد منه فقال : (وقل رب زدني علماً) طه/ ١١٤، وقد مدح الله العلماء بقوله : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) الزمر/ ٩.

وأهل العلم هم أسرع الناس إدراكاً للحق و إيماناً به، قال تعالى : (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) الحج/ ٥٤ ، والإسلام يدعو إلى طلب العلم، وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وبين فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر وأخبر عليه الصلاة والسلام أن طلب العلم طريق إلى الجنة فقال صلى الله عليه وسلم : (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة) رواه البخاري ، والإسلام

يدعو إلى تعلم سائر العلوم النافعة والعلوم درجات وللعالم ثواب عظيم والدال على الخير كفاعله وإذا مات العالم فإن أجره عند الله لا ينقطع قال عليه الصلاة والسلام : (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) رواه مسلم/ ١٦٣١.

وإذا نشر العالم علمه بين الناس كان له مثل أجور من اتبعه قال عليه الصلاة والسلام : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) رواه مسلم/ ٢٦٧٤.

وقراءة القرآن وتعلمه وتعليمه من أفضل الأعمال كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) أخرجه البخاري/ ٧٣ ومسلم/ ٨١٥ ، فبعد ذلك كله أين كل تلك الحقوق المبتورة في قوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وأين هي أمام عظمة الإسلام وعدله.

ضمان حماية الحقوق الإبداعية البشرية : المادة (٢٧):

أ- لكل فرد الحق في أن يشترك اشتراكاً حراً في حياة المجتمع الثقافي وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه.

ب- لكل فرد الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة بإنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.

قد بين الإسلام حق الإنسان في التعلم ، وحدد ضوابط صالحة للعلم النافع لكافة المجتمعات، كما حفظ حقوق البشر في التمتع بانتاجهم وأبداعاتم الفنية والأدبية والصناعية قبل ظهورماتدعى بحقوق الملكية الأدبية والصناعية ، بل أن المغالاة في حماية حقوق الملكية التجارية قد أدى لقيام بعض التجار بحرق المحاصيل الزراعية هائلة في المواسم الجيدة

كالقمح من أجل ضمان سعر مرتفع لها وعدم إغراق السوق بتلك المنتجات في الوقت الذي يموت فيه مجتمعات بأكملها من الفقر والجوع، فاين قوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من تلك التصرفات.

حماية الحريات العامة: المادة (٢٨): لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققاً تاما.

وقد سبق التطرق لبيان موضوع الحريات، وكل الشكر لمواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لإعادة التذكير بحقوق الحريات المسلوبة.

ضرورة التقيد بالأنظمة وإحترام القوانين: المادة (٢٩):

أ- على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نمواً حراُ كاملاً.

ب- يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط ، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي.

ج- لا يصح أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

إن كافة المؤتمرات والدراسات العلمية العديدة والتي تجري بشكل يومي في معظم أنحاء العالم حول ضوابط الحريات والحقوق، قد لخصها الإسلام بكلمتين فقط وهما (لاضرر ولاضرار)، وهذا أمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام للناس كافة، فهذا الحديث يبيّن السياج المحكم لضمان مصالح الناس، ولذا فإن نفي الضرر يقصد به عدم وجود الضرر فيما شرعه الله لعباده من الأحكام ، وأما نفي الضرار فهو نهي عن إحداث الضرر أو فعله، ومن هنا ، فإن نفي الضرر يؤكد أن الدين الإسلامي يرسّخ معاني الرحمة والتيسير ، وعدم تكليف الإنسان ما لا يطيق ، فلا يمكن أن تجد في أحكامه أمراً بما فيه مضرّة ، أو نهياً عن شيء يحقق المصلحة الراجحة ، وإذا نظرت إلى ما جاء تحريمه في

القرآن الكريم أو في السنة النبوية فلابد أن تجد فيه خبثا ومفسدة ، مصداقا لقوله تعالى:
(ويحرّم عليهم الخبائث) الأعراف/ ١٥٧

على أن الضرر المنفي في الدين لا يتناول العقوبة والقصاص، لأن عقاب المجرم على جريمته هو السبيل الوحيد الذي يردع الناس عن انتهاك حدود الله ، والاعتداء على حقوق الآخرين ، وهذه الحدود التي شرعها الله عزوجل هي مقتضى العدل والحكمة، ولم يقتصر الحديث على نفي الضرر في الشريعة ، بل أتبعه بالنهي عن إضرار العباد بعضهم لبعض، فالمكلف منهي عن كل فعل يترتب عليه إضرار الآخرين ، سواء قصد صاحبه الإضرار أم لم يقصد، وهذا أصل عظيم من أصول الدين فإن الفرد إذا التزم بصيانة حقوق غيره وعدم الإضرار بها، فإن من شأن ذلك أن نزع فتيل المنازعات بين الناس.

المادة (٣٠): ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه، وصحيح القول بأننا نتفق مع ما ورد في المادة الأخيرة من نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، غير اننا لايمكن التغافل أو إنكار سياسة الوزن بمكيالين والتي تتبعها الأمم المتحد تجاه القضايا الدولية وخصوصاً فيما يخص حقوق المسلمين في العالم.

وفي الختام لايسعني القول إلا هنيئاً لشعوب العالم بقوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، تلك الحقوق الغير مفعّلة ابداً في ظل ظلم الحكومات المستبدة بشعوبها.

قال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَال هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) الكهف/ ٤٩

فربما كان من الأجدر بمن وضع قوانين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، أن يقوم بدراسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، كي يضمن قواعد جديدة وتفعيلاً ضامناً لتنفيذ تلك الحقوق.

ومن المؤكد أن السطات الحاكمة في الدول الإسلامية في حالة غياب تام عن معاني ومقاصد الشريعة الإسلامية، وإن جرت بعض المحاولات لتطبيقها، فتكون غالباً لتحقيق مآرب شخصية.

الاتفاقية التكميلية لإبطال تجارة الرقيق

والأعراف والممارسات الشبيهة بالرق

اعتمدت من قبل مؤتمر مفوضية الأمم المتحدة المنعقد بقرار المجلس الاقتصادي والاجتماعي ٦٠٨ (د-٢١) المؤرخ في ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٥٦ حررت في جنيف في ٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦؛ تاريخ بدء النفاذ: ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٥٧، وفقا لأحكام المادة ١٣.

الفرع الأول: الأعراف والممارسات الشبيهة بالرق

المادة ١: تتخذ كل من الدول الأطراف في هذه الاتفاقية جميع التدابير التشريعية وغير التشريعية القابلة للتنفيذ العملي والضرورية للوصول تدريجيا وبالسرعة الممكنة إلي إبطال الأعراف والممارسات التالية أو هجرها، حيثما استمر وجودها، وسواء شملها أم لم يشملها تعريف "الرق" الوارد في المادة ١ من الاتفاقية الخاصة بالرق، الموقعة في جنيف يوم ٢٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٦:

أ- إسار الدين، ويراد بذلك الحال أو الوضع الناجم عن ارتهان مدين بتقديم خدماته الشخصية أو خدمات شخص تابع له ضمانا لدين عليه، إذ كانت القيمة المنصفة لهذه الخدمات لا تستخدم لتصفية هذا الدين أو لم تكن مدة هذه الخدمات أو طبيعتها محددة.

ب- القنانة، ويراد بذلك حال أو وضع أي شخص ملزم، بالعرف أو القانون أو عن طريق الاتفاق، بأن يعيش ويعمل علي أرض شخص آخر وأن يقدم خدمات معينة لهذا الشخص، بعوض أو بلا عوض، ودون أن يملك حرية تغيير وضعه.

ج- أي من الأعراف أو الممارسات التي تتيح: الوعد بتزويج امرأة، أو تزويجها فعلا، دون أن تملك حق الرفض، ولقاء بدل مالي أو عيني يدفع لأبويها أو للوصي عليها أو لأسرتها أو لأي شخص آخر أو أية مجموعة أشخاص أخري، منح الزوج أو أسرته أو

قبيلته حق التنازل عن زوجته لشخص آخر، لقاء ثمن أو عوض آخر، إمكان جعل المرأة، لدي وفاة زوجها، إرثا ينتقل إلي شخص آخر.

د- أي من الأعراف أو الممارسات التي تسمح لأحد الأبوين أو كليهما، أو للوصي، بتسليم طفل أو مراهق دون الثامنة عشرة إلي شخص آخر، لقاء عوض أو بلا عوض، على قصد استغلال الطفل أو المراهق أو استغلال عمله.

المادة ٢: بغية وضع حد للأعراف والممارسات المذكورة في الفقرة :(ج) من المادة ١ من هذه الاتفاقية، تتعهد الدول الأطراف بأن تفرض، عند الحاجة، حدودا دنيا مناسبة لسن الزواج، وتشجيع اللجوء إلي إجراءات تسمح لكل من الزوجين المقبلين بأن يعرب إعرابا حرا عن موافقته علي الزواج بحضور سلطة مدنية أو دينية مختصة، وتشجيع تسجيل عقود الزواج.

الفرع الثاني: تجارة الرقيق:

المادة ٣: يشكل نقل الرقيق من بلد إلي آخر بأية وسيلة، أو محاولة هذا النقل أو الاشتراك فيه، جرما جنائيا في نظر قوانين الدول الأطراف في هذه الاتفاقية، ويتعرض الأشخاص الذين يدانون بهذه الجريمة لعقوبات شديدة جدا.

أ- تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير الفعالة لمنع قيام السفن والطائرات التي تحمل أعلامها من نقل الرقيق، ولمعاقبة الأشخاص الذين يدانون بهذه الأفعال أو باستخدام العلم الوطني لهذا الغرض.

ب- تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير الفعالة لكفالة عدم استخدام موانئها ومطاراتها وساحلها في نقل الرقيق.

تتبادل الدول الأطراف في هذه الاتفاقية المعلومات بغية كفالة التنسيق العملي لما تتخذه من تدابير لمكافحة تجارة الرقيق، وتقوم كل منها بإبلاغ الأخرى بأية حالة اتجار بالرقيق وبأية محاولة لارتكاب هذه الجريمة تصل إلي علمها.

المادة ٤:يصبح حرا بصورة آلية أي رقيق يلجأ إلي أية سفينة من سفن أية دولة طرف في هذه الاتفاقية.

الفرع الثالث: الرق والأعراف والممارسات الشبيهة بالرق :

المادة ٥: في أي بلد لم يستكمل فيه بعد إبطال أو هجر الرق أو الأعراف أو الممارسات المذكورة في المادة ١ من هذه الاتفاقية، يشكل جدع أو كي أو وسن رقيق ما أو شخص ما مستضعف المنزلة -سواء للدلالة علي وضعه أو لعقابه أو لأي سبب آخر- كما يكون الاشتراك في ذلك، جرما جنائيا في نظر قوانين الدول الأطراف في هذه الاتفاقية، ويستحق القصاص من يثبت ارتكابهم له.

المادة ٦: يشكل استرقاق شخص آخر، أو إغراؤه بأن يتحول هو نفسه أو يحول شخصا آخر من عياله إلي رقيق، جرما جنائيا في نظر قوانين الدول الأطراف في هذه الاتفاقية، يستحق العقاب من يثبت ارتكابهم له. وينطبق الأمر نفسه في حالة المحاولة أو التدخل أو الاشتراك في مؤامرة علي هذا القصد.

رهنا بأحكام الفقرة الاستهلالية الواردة في المادة ١ من هذه الاتفاقية، تنطبق أحكام الفقرة ١ من هذه المادة أيضا في حالة إغراء الغير علي أن يهبط بنفسه أو بشخص آخر من عياله إلي المنزلة المستضعفة التي تنجم عن أي من الأعراف أو الممارسات المذكورة في المادة #وينطبق الأمر نفسه في حال المحاولة أو التدخل أو الاشتراك في مؤامرة علي هذا القصد.

الفرع الرابع: تعاريف

المادة ٧: لأغراض هذه الاتفاقية:

أ- يعني مصطلح (الرق) كما هو معرف في الاتفاقية الخاصة بالرق المعقودة عام ١٩٢٦ وصفا لحال أو وضع أي شخص تمارس عليه السلطات الناجمة عن حق الملكية، ويعني الرقيق أي شخص يكون في هذه الحالة أو يكون في هذا الوضع،

ب- ويعني المصطلح "شخص ذو منزلة مستضعفة" شخصا يكون في حال أو وضع هو نتيجة أي من الأعراف أو الممارسات المذكورة في المادة ١ من هذه الاتفاقية.

ج- ويعني مصطلح (تجارة الرقيق)، ويشمل، جميع الأفعال التي ينطوي عليها أسر شخص ما أو احتجازه أو التخلي عنه للغير علي قصد تحويله إلي رقيق، وجميع الأفعال التي ينطوي عليها احتياز رقيق ما بغية بيعه أو مبادلته وجميع أفعال التخلي، بيعا أو مبادلة، عن رقيق تم احتيازه علي قصد بيعه أو مبادلته، وكذلك، عموما، أي اتجار بالأرقاء أو نقل لهم أيا كانت وسيلة النقل المستخدمة.

الفرع الخامس: التعاون بين الدول الأطراف وتبليغ المعلومات

المادة ٨: تتعهد الدول الأطراف في هذه الاتفاقية بالتعاون فيما بينها ومع الأمم المتحدة بغية وضع الأحكام الواردة أعلاه موضع التنفيذ.

ويتعهد الأطراف بأن يرسلوا إلي الأمين العام للأمم المتحدة صورا من أي قانون وأي نظام وأي تدبير إداري تتخذه أو تعمل به إنفاذا لأحكام هذه الاتفاقية.

يقوم الأمين العام بإبلاغ المعلومات التي يتلقاها بمقتضى الفقرة ٢ من هذه المادة إلي الأطراف الأخرى وإلي المجلس الاقتصادي والاجتماعي كجزء من الوثائق المفيدة في أي نقاش قد يضطلع به المجلس بغية وضع توصيات جديدة من أجل إبطال الرق أو تجارة الرقيق أو الأعراف والممارسات موضوع هذه الاتفاقية.

الفرع السادس: أحكام ختامية:

المادة ٩: لا يقبل أي تحفظ علي هذه الاتفاقية.

المادة ١٠: أي نزاع حول تفسير هذه الاتفاقية أو تطبيقها، ينشأ بين دول أطراف فيها ولا يسوي عن طريق التفاوض، يحال إلي محكمة العدل الدولية بناء علي طلب أي من الأطراف في النزاع، ما لم تتفق الأطراف المعنية علي طريقة تسوية أخري.

المادة ١١: تظل هذه الاتفاقية حتى الأول من شهر تموز/ يوليه ١٩٥٧ متاحة لتوقيع أية دولة عضو في الأمم المتحدة أو في وكالة متخصصة، وهي مرهونة بتصديق الدول التي تكون قد وقعتها، وتودع صكوك التصديق لدي الأمين العام للأمم المتحدة، الذي يبلغ بهذا التصديق جميع الدول الموقعة والمنضمة.

وبعد الأول من تموز/ يوليه ١٩٥٧ يتاح الإنضمام لهذه الاتفاقية لأية دولة عضو في الأمم المتحدة أو في وكالة متخصصة، أو لأية دولة أخري تكون الجمعية العامة للأمم المتحدة قد دعتها إلي الانضمام، ويقع الانضمام بإيداع صك انضمام رسمي لدي الأمين العام للأمم المتحدة، الذي يبلغ بهذا الانضمام جميع الدول الموقعة والمنضمة.

المادة ١٢: تنطبق هذه الاتفاقية علي جميع الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والخاضعة للوصاية، والمستعمرات وغيرها من الأقاليم غير المتروبولية التي تكون أية دولة طرف مسؤولة عن علاقاتها الدولية، وعلي الطرف المعني، رهنا بأحكام الفقرة ٢ من هذه المادة، أن يعلن، لدي توقيعه أو تصديقه هذه الاتفاقية أو انضمامه إليها، الإقليم أو الأقاليم غير المتروبولية التي ستنطبق عليها هذه الاتفاقية تلقائيا كنتيجة لهذا التوقيع أو التصديق أو الانضمام.

في أية حالة تتطلب فيها القوانين أو الممارسات الدستورية للطرف أو لإقليم ما غير متروبولي القبول المسبق لهذا الإقليم غير المتروبولي، يبذل الطرف المعني جهده للحصول خلال مهلة اثني عشر شهرا تلي تاريخ توقيع الدولة المتروبولية للاتفاقية، علي قبول الإقليم غير المتروبولي المطلوب وعلي الطرف، متي حصل علي هذا القبول، أن يخطر الأمين العام بذلك. وإذ ذاك تنطبق هذه الاتفاقية علي الإقليم أو الأقاليم المسماة في هذا الإخطار منذ التاريخ الذي تلقاه فيه الأمين العام.

علي اثر انقضاء مهلة الأشهر الإثنى عشرة المشار إليها في الفقرة السابقة، تقوم الدول الأطراف المعنية بإبلاغ الأمين العام بنتائج المشاورات مع الأقاليم غير المتروبولية التي

تكون الأطراف المذكورة مسؤولة عن علاقاتها الدولية والتي لا تكون قد قبلت تطبيق هذه الاتفاقية.

المادة ١٣: يبدأ نفاذ هذه الاتفاقية في التاريخ الذي تكون فيه اثنتان من الدول قد أصبحتا طرفين فيها، وفيما بعد ذلك يبدأ نفاذها إزاء كل دولة أو إقليم في تاريخ إيداع صك انضمام أو تصديق الدولة المذكورة أو في تاريخ الإخطار بانطباقها علي الإقليم المذكور.

المادة ١٤: يقسم تطبيق هذه الاتفاقية علي فترات متعاقبة كل منها ثلاث سنوات، وتبدأ الأولي منها في تاريخ بدء نفاذ الاتفاقية طبقا للفقرة ١ من المادة ١٣.

لكل دولة طرف أن تنسحب من هذه الاتفاقية، وذلك بإشعار توجهه إلي الأمين العام قبل ستة أشهر علي الأقل من انقضاء فترة السنوات الثلاث الجارية. ويقوم الأمين العام بإعلام جميع الأطراف الأخرى بأي إشعار من هذا النوع وبالتاريخ الذي تم تلقيه فيه K ,يسري مفعول الانسحابات لدي انقضاء فترة السنوات الثلاث الجارية.

في الحالات التي تكون فيها هذه الاتفاقية، وفقا لأحكام المادة ١٢، قد أصبحت منطبقة علي إقليم غير متروبولي لطرف ما، يستطيع هذا الطرف، في أي حين بعد ذلك وبقبول الإقليم المعني، توجيه إشعار إلي الأمين العام بالانسحاب من الاتفاقية بصورة مستقلة في ما يخص ذلك الإقليم. ويبدأ نفاذ الانسحاب لدي مرور سنة علي وصول الإشعار المذكور إلي الأمين العام، الذي يقوم بإعلام جميع الأطراف بأي إشعار من هذا النوع وبالتاريخ الذي تم تلقيه فيه[1].

المادة ١٥ :تودع هذه الاتفاقية، التي تتساوى في الحجية نصوصها بالأسبانية والإنكليزية والروسية والصينية والفرنسية، في محفوظات أمانة الأمم المتحدة. ويعد الأمين العام

---

١ - مجموعة الصكوك الدولية، المجلد الأول، الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٩٣، رقم المبيع A.94.XIV-Vol.1, Part 1، ص ٢٩٠.

صورة مصدقة منها طبق الأصل لإرسالها إلي الدول الأطراف في هذه الاتفاقية وكذلك إلي جميع الدول الأخرى الأعضاء في الأمم المتحدة والأعضاء في الوكالات المتخصصة، وإثباتا لذلك، قام الموقعون أدناه، المفوضون بذلك حسب الأصول كل من قبل حكومته، بتذييل هذه الاتفاقية بإمضائهم في التاريخ الذي يظهر إزاء إمضاء كل منهم. حرر في المكتب الأوربي للأمم المتحدة، في جنيف، في هذا اليوم السابع من شهر أيلول/ سبتمبر من العام ألف وتسعمائة وستة وخمسين.

تاريخ تحريم العبودية من قبل دول العالم

١٧٦١م: البرتغال تحرم العبودية.

١٧٧٦م: ا أسكوتلندا

١٧٨٩م: الثورة الفرنسية قررت إلغاء الرق، لكن البلاد الأوربية والأمريكية ظلت تمارسه إلى نهاية القرن التاسع عشر.

١٧٩٢م: الدنمارك اقدمت على تحريم العبودية وتحرير العبيد.

١٨٠٧م: الكونغرس الأمريكي يقر قانون حظر استيراد العبيد إلى أي ميناء أو مكان في الولايات المتحدة ١٨٠٧م: أجاز البرلمان الإنكليزي قانون إلغاء تجارة الرقيق، وفي عام ١٨٢٧ زاد البرلمان في صرامة القانون واعتبر تجارة الرقيق نوعاً من القرصنة وجعل عقوبتها الإعدام.

١٨١٤م: في مؤتمر فينا عقدت الدول الأوربية معاهدة منع تجارة العبيد

١٨٣١م: في مؤتمر لندن المنعقد في ٢٠ ايلول، اتفقت الدول الاوربية المشاركة فيه على اعتبار تجارة الرقيق من اعمال القرصنة البحرية

١٨٣٣م: منعت بريطانيا الرق في جميع مستعمرتها

١٨٣٤م: ألغت إنكلترا الرق بقانون برلماني، وعُدّ جريمة يعاقب عليها بالموت

١٨٣٩م: نادى البابا بإلغاء الرق، وهدد بعقوبة "الحرمان الكنسي" لأي كاثوليكي يتاجر بالعبيد، لكن الإسبان الكاثوليك لم يعبئوا بقرار البابا

١٨٤٨م: ألغت فرنسا الرق بشكل نهائي، وجعلوا يوم ١٠ مايو يوم محاربة الرق

١٨٤٨م: عقدت بريطانيا معاهدة ثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية لكبح تجارة الرقيق

١٨٥١م: وبموجب معاهدة بريطانية فارسية، حُظر الاسترقاق، وكان العبيد يتقدمون إلى مكاتب فتحتها بريطانيا في أنحاء البلاد للحصول على شهادات انعتاق. لكن الجهود توقفت بعد خمس سنوات واستمر الرق حتى القرن العشرين

١٨٦٠م: هولندا والدنمارك تحرمان الرق

١٨٦٥م: نص الدستور الأمريكي علي إلغاء العبودية. (بعد انتصار الشماليين على الجنوبيين)، وقبلها في العام ١٧٧٥ منع تجارة الرقيق وبالتحديد في فلادلفيا، وألغت نيويورك العبودية عام ١٧٩٩، وفي عام ١٨٠٨ اجازت الحكومة الفيدرالية قانون يمنع تملك العبيد، ولكنه لم يعمل به حينها.

١٨١٣- ١٨٨٨م: جميع دول امريكا اللاتينية حرمت الرق، في عام ١٨١٣ الأرجنتين، وآخرها البرازيل في العام ١٨٨٨

١٨٧٧م: معاهدة بين مصر وانجلترا تقضي بإلغاء الاسترقاق والنخاسة في جميع أنحاء مصر، ومن جملته إقليم السودان.

١٩٠٦م: عقدت عصبة الأمم مؤتمر العبودية الدولي، حيث قرر منع تجارة العبيد وإلغاء العبودية بكافة أشكالها

١٩١٠: الصين تحرم العبودية

١٩٢٤م: في السودان حرّم الإنجليز تجارة الرقيق عندما كانوا يحتلونها، وظل القانون بدون تطبيق، ولا زال امتلاك العبيد والإتجار بهم سارياً حتى الوقت الحالي، وفق تقارير جمعيات حقوق الإنسان المتلاحقة حتى تاريخ كتابة هذه السطور.

١٩٢٧م: تم التوقيع علي معاهدة جنيف لمكافحة تجارة الرقيق.

١٩٢٧م: معاهدة جدة التي أبرمت بين الحكومة البريطانية وابن سعود، ملك نجد والحجاز، لمنع تجارة الرق في الجزيرة العربية ، لكن بقي دون تطبيق.

١٩٣٦م: صدر مرسوم منع استيراد العبيد إلى الجزيرة العربية

١٩٦٢م: تم إلغاء كل ممارسات الرق أو التجارة بالعبيد في المملكة العربية السعودية (على الورق) لكن في زمن فيصل بن عبد العزيز (١٩٦٤– ١٩٧٥) تم سن قوانين تحت الضغط الأمريكي لمحاربة تجارة الجواري والإماء والعبيد، حين كان أبراهام لنكولن رئيساً للولايات المتحدة، والذي أجبر الملك فيصل على التوقيع على معاهدة تحرير الرق، حيث كان الاتحاد السوفيتي يركز على ملف الرق والعبودية في السعودية من اجل احراج امريكا.

١٩٦٩م: كانت معظم الدول الإسلامية قد ألغت الرق، لكنه أستمر من الناحية العملية في بقاع مختلفة.

١٩٧٠م: تم إلغاء الرق بشكل رسمي في اليمن وعُمان.

١٩٨١م: جمهورية موريتانيا الإسلامية آخر دولة تسن قانوناً لإلغاء ممارسة الرق، والذي أقره الحاكم العسكري السابق محمد خونا ولد هيدالة، ورغم ذلك لم يصدر به قانون لتنفيذه. (وقد كان الفرنسيون حرموا الرق فيها عام ١٩٠٥ عندما كانوا يحتلونها)، والدولة العربية حرمت الرق إما في فترات الاحتلال، أو في فترات كانت تعاني فيها من ضغوط خارجية، وعملياً هي ما زالت تُمارس عندهم حتى الآن، وتزدهر في فترات الانقطاع عن القيم الغربية (كما حدث في السودان والصومال)، ولا زال مئات الآلاف عبيداً، وما زالوا يسمون السود زنوجاً

المراجع

١- د. حسن المبيض، أسباب انهيار الامبراطورية الرومانية، الدار اللبنانية للنشر ، طرابلس ١٩٩٠.

٢- حضارة العرب ،غوستاف لوبون، دار النهضة - مصر ١٩٨٣ م.

٣- المقاومة بالحيلة، د.كاظم السامرائي ، دار الساقي ، بيروت ،١٩٩٥م.

٤- عبدالهادي خلف، المقاومة المدنية، مؤسسة الأبحاث العربية، مصر ١٩٨٦م.

٥- تاريخ المجتمعات باتريك مورجان، ترجمة عبد الغني سقف الباب،دار النهضة العلمية، بيروت،١٩٨٥م.

٦- فرانكس تايلور، تاريخ الطبقات الإجتماعية ،(غير مترجم)، جون إستلر ، ناشرون وموزعون، ١٩٩٤م، الترقيم الدولي: ISBN ٩٧٨-٠-٨١٥٣-٠٣٤٢-٨.

٧- الحرية والعبودية في ظل الرأسمالية الحديثة، مقدمة لكارل ماركس، مطبعة جامعة كامبردج ١٩٨٦م.

٨- جورج لوكاس (العواقب الطبقية)- غير مترجم- إ.س.ثومبسون، ١٩٢٣م، لندن، بر يطانيا.

٩- آنا راشيل ،القانون والتاريخ (بيع الزوجة والطلاق الذاتي) ، دار هاملتون للنشر والتوزيع، بريطانيا، لندن ٢٠٠٩م.

١٠- الموسوعة البريطانية، الطبعة ١٥، عام ٢٠٠٧، الصفحات ٢٥٧-,٢٨٦

١١- د. أحمد ابراهيم حسن، تاريخ النظم القانونية والإجتماعية، الدار الجامعية، بيروت ١٩٩٥,

١٢- د. لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان، مقدمة في التاريخ الحضاري، دار النهضة العربية النشر، بيروت ٢٠٠١م.

١٣- أ. ديوف، المسلمون المستعبدون في إيطاليا الحديثة، دار إِلَتيشيم بانو للنشر، إسطنبول ١٩٩٨م.
١٤- الحمر والبيض والسود ، مصطفى أبو الخير ، سلسلة الألف كتاب ، مصر ١٩٩٨م.
١٥- عايدة العزب موسى،العبودية فى أفريقيا،ص ٦٣ ، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ٢٠٠٤م .
١٦- الإصحاح ٢١/ ١٠ من سفر الخروج / العهد العهد القديم.
١٧- قاموس الكتاب المقدس لبابا الفاتيكان الثاني ، وكذلك النص الكامل لرسالة القديس بولس.
١٨- سفر التثنية، الأَصحَاحُ الْعِشْرُونَ، ١٠-١٤.
١٩- د. عبد الرحيم مولا، الرقيق في العصور الوسطى، ص ٨٦، دار ومكتبة الشرق، القاهرة ١٩٨٢م.
٢٠- النص الكامل للإعلان العالمي لحقوق الإنسان والموقع في جنيف عام ١٩٤٨م.
٢١- الممتع على زاد المستقنع للشيخ العثيمين، إصدار وزارة الأوقاف السعودية ، ١٩٨٨م.
٢٢- الجوهرة النيرة، باب شروط الصلاة، الرازي ط٢ ، الدار العصرية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٤م.
٢٣- أحكام القرآن للجصاص، وتفسير ابن كثير وتفسير حمدي يازير،وأساس الحرب لوهبة الزحيلي.
٢٤- تفسير ابن كثير ، باب نكاح الأمة، م٦ الدار الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ط٣ ، ٢٠٠١م.
٢٥- المحلى لابن حزم الأندلسي، بيع الجارية، م٢،ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، مصر ١٩٩٤م.

٢٦- في ظلال القرآن لسيد قطب تفسير الآية ٦٠ ، سورة التوبة والآية ٦ من سورة المؤمنون.
٢٧- العبودية والحرية الإنسانية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مجلة جامعة أتاتورك، عدد ١٦،تركيا ٢٠٠١م.
٢٨- الموسوعة الإسلامية الصادرة من رئاسة الشؤون الدينية التركية، مجلد ٢٦ ص ٢٤٠.
٢٩- سير الجلالين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٧٢م.
٣٠- عرائس المجالس لأبي اسحق احمد بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٧هـ)، دار الشمالي، بيروت، ١٩٨٢م.
٣١- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين المحلي، دار احياء التراث العربي،ج٢القاهرة، ١٩٥٢م.
٣٢- تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق قاسم الشماعي ومحمد العثماني ، دار الارقم ، بيروت .
٣٣- هارون الرشيد ، عبد الجبار الجومرد ، المكتبة العمومية ، ج١ ، بيروت ، ١٩٥٦م.
٣٤- الجاحظ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ط ١، المطبعة التجارية الكبرى، ج٣ القاهرة ، ١٩٢٦م.
٣٥- المسعودي، (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ١ ، دار القلم، بيروت، ١٩٨٩ ، ج,٣
٣٦- ابن الجوزي، المنتظم، ط ١، دائرة المعار ف العثمانية ، حيدر اباد ، الدكن ، ١٣٥٧هـ ، ج٦ .

٣٧- واجدة مجيد الاطرقجي، المرأة في العصر العباسي ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١م.
٣٨- ابن كثير، البداية، مج٦ ، ج١١، دار المعارف بالإسكندرية ١٩٧٨م.
٣٩- العامة في العصر العباسي ، د. وجدي حسيب، ط٢ ، الدار للعلمية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٥م.
٤٠- د. فاطمة هدى نجا، ضعف الخلافة العباسية وظهورالخلافة العثمانية، دار الايمان، طرابلس ١٩٩٣م.
٤١- نصوص مختارة من قانون مجلة الأحكام العدلية العثمانية ١٩٢٦م.
٤٢- الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ، ط٣ ،ج١،دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.
٤٤- تاريخ المجتمعات باتريك مورجانـ ترجمة سيد المرزوقي، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٣م.
٤٥- لويس برنارد،استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية،ترجمة سيد رضوان علي ، ط٢، الدار السعودية للنشر والتوزيع،١٩٨٢م.
٤٦- د. عبد الرحيم مولا، الرقيق في العصور الوسطى، دار الجامعة اللبنانية للطباعة والتوزيع ٢٠٠٣م.
٤٧- نك روبينز ،الشركة التي غيرت العالم، كيف بنت شركة الهند الشرقية المؤسسات عابر القارات،ترجمة كمال المصري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة: ٢٠٠٩م.
٤٨- مايكل براون، الذاكرة الأمريكية،(غير مترجم) ثيودور ودوغلاس، ناشرون وموزعون، تورنتو- كندا ١٩٩٨م، الترقيم الدولي (٠٠٠٢-٩٢٩٧ PMC ١٣٧٧٦٥٦- ISBN).

٤٩- إسطورة العبودية، كاثرين بوستمان، غير مترجم، مطبعة جامعة بنسيلفانيا، ١٩٩٩م، الترقيم الدولي (ISBN ٩٧٨-٠-٢٦٤٦١-٧).
٥٠- البوابة الأفريقية،هنري ماكين، مطبعة جامعة شيكاجو٢٠٠٢م، الترقيم الدولي (ISBN٩-١٦٤٨١-٠-٥٢٩).
٥١- روبيرت والتش ،(تاريخ المدن)، صحيفة التايمز الإيرلندية ص٦ ، ٣ / نوفمبر/ ١٩٣٤م.
٥٢- تجارة الرقيق عبر الأنطلنطي، هربرت كلاين، مطبعة جامعة كامبردج ١٩٩٩م، (ISBN ٤-٤٦٠٢٠-٥٢١-٠).
٥٣- وحدة التنسيق الدولية الخاصة بشبكة اليونسكو للمدارس المنتسبة، أولريك ستوروست unesco.org@u.storost.
٥٤- السنن الكبرى للبيهقي ج٢ ص٣٢١، دار المعارف الأهلية ، مصر ، ١٩٨٥م.
٥٥- أنظر تاريخ اشراف الحجاز (١٨٤٠-١٨٨٣)، خلاصة الكلام فى بيان امراء البلد الحرام محمد امين ابن زيني توفيق، ط ١ ، دار الساقى للطباعة والنشر١٩٩٣م.
٥٦- سردار أحمد العلمانية، الدين السياسي ونقد الفكر الديني، الحوار المتمدن العدد ٣٧٩٨، ٢٤,٧,٢٠١٢.
٥٧- رونالد سيجال ،الهولوكست الأفريفي، عقود من العبودية الأفريقية، ص ٣٦٨، باولز ستيوارت للنشر والتوزيع، نيويورك ١٩٩٥م، التاريخ الأفريقي، قصة قتل ١١٨٦٣٠٠٠ مليون مواطن أنجولي، النسخة الأصلية ، الترقيم الدولي: ٠-٣٧٤-ISBN٣-١١٣٩٦ .
٥٨- لعبة الأرقام ، ديفيدز أ. رتشردسون، تجارة العبيد عبر الأطلنطي، ص ٩٦ ، شركة إيجمونت هيوج وشركاه، ناشرون وموزعون ، لندن ، بريطانيا، غير مترجم ، الترقيم الدولي : ٠-٢٨٣-٩٦٤١٦-ISBN٤ .

٥٩- مذكرات الجنرال غردون ١٨٨٣م-١٨٨٥م، ص ١٣٥-١٦٤، دارهاملتون ومفلين للنشر، نيويورك، ٢٠٠٢م.
٦٠- روجر كليمنت، الدبلوماسية البريطانية في مواجهة السياسة البلجيكية بأفريقيا الوسطى عام ١٠٩٣م ، ص ٨٦-١١٥، جامعة دوبلن ، بريطانيا، ٢٠٠٤م، الترقيم الدولي : ISBN 1-900621-99-1 .
٦١- جريمة الكونغو، لآرثر كانون دويلي، شركة هاتشسون وشركاه،(Hutchinson & Co)، لندن ، ص ٦، ط/ ٤، ١٩٠٩م.
٦٢- صلاح صبرى، أفريقيا وراء الصحراء، ص ٢٧، مكتبة النهضة، القاهرة ،١٩٦٠م.
٦٣- أنس مصطفى كامل، الصراعات الاثنية فى حوض النيل والنظام الدولى الجديد، السياسة الدولية، العدد ١٠٧، يناير ١٩٩٢م.
٦٤- محمد فائق، عبدالناصر والثورة الأفريقية، القاهرة:ـ دار المستقبل العربى، ١٩٨٢م .
٦٥- تاريخ وجغرافية السودان، نعوم شقير، القاهرة، ط٢ ، ص ٣٨، دار المعرف بالأسكندرية ، ١٩٧٦م.
٦٦- أبطال سقطوا من الذاكرة أعظم بحارة التاريخ خير الدين بربروسا، ص ٢٨، لجنة تأليف بدار الفرقان للنشر- بيروت، ٢٠٠٤ م.
٦٧- مجموعة الصكوك الدولية، المجلد الأول، الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٩٣، A.94.XIV-Vol.1Part 1.

الفهرس





عمان - العبدلي - مركز جوهرة القدس التجاري

تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٩٨٩١ - خلوي: ٠٠٩٦٢ ٧ ٩٥٧٤٧٤٦٠ - ٠٠٩٦٢ ٧ ٩٦٢٩٥٤٥٧

ص.ب ٩٢٧٤٨٦ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail: dar_jenan@yahoo.com